الشعر العربي في الفتوحات الإسلامية

من عهد السلطان سليم الأول إلى نهاية الدولة العثمانية

الدكتور عثمان قدري مكانسي

إهداء

إلى أخي الحبيب المجاهد عدنان شيخوني "أبي خالد" رحمه الله تعالى الذي استشهد في تشرين الأول عام ثمانين وتسع مئة وألف .

كُنـــتَ إلفـــاً عَـــزّ أنْ ألقـــى لـــه من يضاهِيهِ صِفاتٍ وخِصالا
كنتَ بدراً يملأ الأجواءَ سِحراً يُرسل النورَ جلالاً وكمالا
يا أخي حبّةَ قلبي يا صديقي مثالاً عِشتَ في لُبي وفي فِكري
مرَّ عِشرون خَريفاً لستُ أنسى وَجهَكَ المشرقَ ضوءاً يتلالا
حُبُّنا في الله شِدناهُ مكيناً سوفَ ينمو في رضا اللهِ تعالى
إنْ تكُنْ رُحْتَ شهيداً إنني أسألُ المولى لُحوقاً وَوِصالا
دَرْبُنا دربُ الـهُدى لا نَنْثَني عَنْهُ ما نَبْضٌ بِعِرْقٍ يتوالى

أخوك في الله .... عثمان

الطبعة الأولى

٢٠٠٠-١٤٢١

بسم اللـــــــه الرحمـــــــن الرحيـــــــم

المقدمـــــــــــة:

العلاقة التي قامت بين العرب والعثمانيين منذ البداية كان أساسها الحب والأخوة في الله ، وفي مطلع القرن العشرين بدأنا نسمع نغمات شاذة على ألسنة العلمانيين وبعض الباحثين ممن ليست لهم خلفية تاريخية إسلامية سليمة ومن النصارى ، يصفون العثمانيين بأوصاف تجعلهم غرباء محتلين ، دخلوا البلاد باسم الإسلام وتقنعوا به ، والدين منهم براء[١] .

ونسي هؤلاء أو تجاهلوا أموراً عدة تدحض ما افتروه نجملها فيما يلي:

١ ــ إن الدولة العثمانية حين قامت كان شعارها نشر الإسلام ، وكان هذا قبل دخولهم البلاد العربية بمئتي سنة ، وإن آباءهم حين لم يستطيعوا صد أمواج التتار المكتسحة لبلادهم هربوا بدينهم ولم يرضوا أن يبيعوهم دينهم كما فعل غيرهم ممن تراموا على أقدام التتار وحاربوا تحت رايتهم إخوانَهم في العقيدة ، بل إنهم ساعدوا السلطان السلجوقي ضد قائد التتار في آسيا الوسطى فكافأهم بأن أقطعهم أرضاً على حدود بيزنطة [٢] .

٢ ــ إن مؤسس الدولة الإسلامية العثمانية كان همه وشغله الشاغل نشر الإسلام ، ووصيته لابنه أورخان أوضح مثال على ذلك[٣] .

٣ ــ ونرى حرص العثمانيين الدائب على فتح القسطنطينية ليحققوا حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم فيكون أمراؤهم خير الأمراء ، وجيشهم خير الجيوش. وقد أدرجنا في التمهيد التاريخي من أقوال السلطان الفاتح (محمد الثاني) والخليفة (سليمان القانوني) ما يثبت انتماءهم الساطع للإسلام والعمل له .

٤ ــ إن العرب رحبوا بالعثمانيين ، بل دعوهم إلى تخليصهم من جبروت الدولة المملوكية وظلمها وتعطيلها الأحكام الشرعية ، فقد راسل المصريون السلطان سليماً الأول منذ بداية توليه عرش بلاده لكي يقدم إلى مصر على رأس جيشه فيستولي عليها ويطرد الشراكسة ــ كما كانوا يسمونهم ــ كما رحب أهل الشام به وأسرع العلماء إلى ملاقاة جيشه ، ولقنوا أولادهم أن ينشدوا { ينصرك الله العظيم يا سلطان سليم } وفي الأرشيف العثماني في متحف (طوب قابي سراي) في استانبول عريضة رفعها علماء حلب إلى السلطان سليم يقدمون له ولاءهم ويطلبون تحكيم الشريعة التي عطلها المماليك فظلموا العباد . وكذلك فعل أهل المغرب العربي [١] .

٥ ــ إن الدولة المحتلة تمنع المحكومين من أن يكون لهم صولة وجولة فيها على خلاف مانرى في الدولة العثمانية ، فقد وصل بعض العرب إلى مشيخة الإسلام ، وهي أعلى منزلة من الصدر الأعظم ، كما كان منهم ولاة للأقاليم ووزراء وقادة للجيش ، وكان الخلفاء إذا سمعوا بعالم أو نجيب استقدموه وأكرموه بغض النظر عن جنسه .ولا أزال أذكر أن أبي حدثنا عن حب جدي وأقرانه للعثمانيين ، وثناءهم العاطر عليهم . ومامن رجل معمِّر سألته عنهم إلا تنهد وقال : أولئك الخلفاء والسلاطين المسلمون هم حماة الإسلام وبقية السلف الصالح .

ولا أظن أن أجدادنا كانوا مغرمين بحب من أساء إليهم وحكمهم بالنار والبارود ، حاشا وكلا ، فالعثمانيون حمَوْا البلاد من الصليبيين زهاء أربعة قرون ، وهذا ما أزعج الأعداء فافتروا عليهم .

---

[١] راجع الفصل الثاني من كتاب " صحوة الرجل المريض " لموفق بني المرجة ففيه الكثير من الأدلة على ذلك .
[٢] العثمانيون في التاريخ والحضارة ص / ٤١ / تحت عنوان (العثمانيون المفترى عليهم .
[٣] المصدر السابق ص /١٦ / .
[١] المصدر السابق ص / ١٧٠ / .

٦ ـ ولا ننس أن الذين كتبوا التاريخ الحديث للبلاد الإسلامية نصارى ومستشرقون ، وعلى رأسهم قسطنطين زريق وفيليب حتى وجورجي زيدان .. وغيرهم ، وهم معروفون بصليبيتهم الحاقدة على الإسلام وأهله، فلا بد إذاً من قلب الحقائق والدس على دولة إسلامية هيمنت على قدر كبير من بلادهم ردحاً من الزمن ، وقرعت أبواب عواصمهم وشغلتهم بأنفسهم وصانت المقدسات الإسلامية من كيدهم .

٧ ـ أما إن استشهد الطاعنون بما فعله الكماليون فهذا لايعيب العثمانيين لأنهم قوم ، والكماليون قوم آخرون.

فالطورانيون الذين استولوا على الحكم بعد عام / ١٩١٠ م / كانوا قوميين متطرفين ، فحين سيطروا على الحكم ألغوا الخلافة وأعلنوا تركيا دولة علمانية لاعلاقة لها بالإسلام ، وكتبوا التركية بالأحرف اللاتينية بعد أن كانت تكتب بالأحرف العربية ، ومنعوا تدريس اللغة العربية وذلك ليبعدوا الجيل الجديد عن القرآن ، وقطعوا علائقهم بالعرب بعد أن ساموهم الخسف في العقدين الأولين من هذا القرن .

ونظرة متأملة فاحصة في كتاب (أتاتورك ذلك الصنم) وكتاب (صحوة الرجل المريض أو السلطان عبد الحميد) تظهر بجلاء تلك المؤامرة الخبيثة على الإسلام والدولة العثمانية العظيمة على يد (جمعية الاتحاد والترقي الماسونية) .

ولإظهار هذه الحقائق وبناء جسر متين بين العرب والإخوة الذين يتكلمون التركية ، وإزالة الغبار والقتام عن تاريخ سوَّده أعداء الإسلام وشوَّهوا صورته كان اختياري لهذا البحث .

ولما كان العصر العثماني يمتاز بكثرة الحروب التي خاضتها جيوش هذه الدولة على الجبهتين الأوروبية والشرقية ، فقد تفاعل الشعراء مع هذه الحروب سلباً وإيجاباً ، وكان شعرهم يراعاً يؤرخ هذه الأحداث .

ورأيت أن أدرس شعر هذه الفتوحات والحروب لأشارك في مسيرة الأدب العربي بدراسة متبصرة ـ إن شاء الله تعالى ـ مبتدئاً بدخول السلطان سليم الأول البلاد العربية ، ومختتماً بزوال الخلافة العثمانية عام / ١٩٢٣ / للميلاد ، الموافق / ١٣٤٢ / للهجرة ظناً مني أن أحداً ـ حتى الآن ـ لم يتطرق إلى شعر الفتوحات في العصر العثماني .

هذا الدكتور علي الجندي أسهم في شعر الحرب في العصر الجاهلي .

وهذا حِذوه الدكتور نعمان القاضي قد كتب في شعر الفتوحات الإسلامية .

كما كتب غيرهما في شعر الحروب في العصر العباسي .

ولعل عملي هذا حلقة وصل في بيان جهود المسلمين الفاتحين وتصديهم لأعدائهم الذين أرادوا القضاء على الدولة العثمانية منذ ظهورها، لأنها كانت شوكة في حلوق أعداء الإسلام ونبراساً يضيء الدرب أمام الدعاة إلى الله تعالى .

وأحب أن أنوّه إلى أن الحروب الداخلية لن تدخل في البحث لأنها قلاقل وثورات داخلية ، وليست حروباً غايتها الفتح أو رد العدوان ، إلا إذا كانت تمرداً من فئات غير إسلامية تعيش في قلب الدولة الإسلامية ، أو أرادت أن تنشئ دولة على حساب الدولة العثمانية ، فإني أفردت لها فصلاً أبين فيه دور العثمانيين في الحفاظ على الهوية العثمانية ووحدة البلاد .

وكثير من الباحثين يجعلون نهاية الدولة العثمانية حين دخل (نابليون بونابرت) إلى مصر عام / ١٧٩٨ م / الموافق / ١٢١٣ هـ / وما بعد ذلك أطلقوا عليه اسم الأدب الحديث ، وهذا - في رأيي- إن كان يجوز في الآلات والمخترعات والثورة الصناعية الحديثة ، فإنه لايجوز في الثقافة والفن والأدب ، إذ إن مجيء نابليون دعا الشعراء إلى مناهضة الأوروبيين وقوَّى اللحمة الوطنية والإسلامية تحت راية الخلافة العثمانية، بل إن رواد الشعراء العرب في مطلع هذا القرن أمثال البارودي وحافظ إبراهيم وأحمد شوقي وغيرهم .. كان ولاؤهم الفكري والديني للعثمانيين ، وعودة إلى دواوينهم تؤصل هذا المنحى في شعرهم ، وسنرى في دراستنا هذه الانتماء إلى الدولة العثمانية والولاء لها .

وقد اعتمدت في بحثي هذا على مراجع ومصادر متعددة كان أهمها حسب التاريخ الهجري

١- الكواكب السائرة في أعيان المئة العاشرة / لنجم الدين الغزي
٢- خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر / للمحبي .
٣- سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر/لمحمد خليل المرادي
٤- حلية البشر في تاريخ أعيان القرن الثالث عشر للبيطار .

كما كان لي عودة إلى دواوين كثير من شعراء هذه القرون كما سيتضح لقارئ هذا البحث إن شاء الله .

وفي دراستي الفنية كان لي عود إلى كتب البلاغة (في علوم المعاني والبيان والبديع) لمجموعة من المتخصصين في هذا العلم أمثال : الدكتور عبد العزيز عتيق والدكتور بكري الشيخ أمين .

وقد قسمت هذا البحث إلى مقدمة وتمهيد وثلاثة أبواب وخاتمة وثبت للمراجع .

أولاً : المقدمة :

تحدثت فيها عن أهمية هذا البحث وسبب اختياري له ، وأشرت إلى أهم المراجع التي اعتمدتها في عملي .

ثانياً : التمهيد :

ويضم نبذة عن الحالة السياسية والفكرية للدولة العثمانية في تلك الفترة التي انقسمت إلى ثلاثة عصور :

عصر القوة ، عصر الضعف وعصر التسلط الغربي (عصر الانحطاط والتراجع)

ثالثاً : الباب الأول : و يبحث في شعر الفتوحات العثمانية (مضموناً) ويشمل :

الفصل الأول : شعر الفتوحات في الجبهة الأوروبية وروسيا.

الفصل الثانـي : شعر الفتوحات في الجبهة الشرقية والصفويين

الفصل الثالث : شعر الفتوحات في البلاد العربية .

رابعاً : الباب الثاني : و يشمل أغراض شعر الفتوحات ويتضمن:

١ ـ مديح الخلفاء والقادة .
٢ ـ الفخر .
٣ ـ رثاء الأبطال والمدن .
٤ ـ الوصف ويضم (وصف المعارك ووصف جرائم الغدر ووصف السلاح ..)
٥ ـ الهجاء ويشمل هجاء الأعداء وغيرهم .
٦ ـ الشوق والحنين إلى الأهل والأصحاب والديار .
٧ ـ مواقف ونزعات عربية وإسلامية ووطنية .
٨ ـ موضوعات أخرى .

خامساً : الباب الثالث : دراسة فنية ونقدية وتشمل :

١ ـ دراسة سمات الأفكار من حيث :
ـ الترابط والتسلسل المنطقي .
ـ امتزاج العاطفة بالأفكار .
ـ الأدب الإنساني الخالد .
٢ ـ سمات التعبيـــــر من حيث :
ـ مناسبة الألفاظ والتعابير لموضوع القصيدة

ـ دلالة الألفاظ وإيحاءاتها .

ـ البديع وأثره في الفكرة والأسلوب .

ـ الأساليب الإنشائية والخبرية والغرض البلاغي منها

٣ ـ الصورة الشعرية :

ـ الخيال الجزئي (الصورة البلاغية) من حيث جدتها وقدمها .

ـالصورة الشعرية الممتدة المعتمدة على اللفظ الإيحائي

المتناسق بخطوطه الثلاثة : اللون والصوت والحركة .

٤ ـ ظاهرة القصة الشعرية في شعر الفتوحات .

سادساً : الخاتمة : أُجمِلُ فيها ما قدمت من عمل في الأبواب السابقة .

سابعاً : ثبت المراجع والمصادر .

أما المنهج الذي اتبعته فإنه يتلون بتلون الموضوع ، فالباب الأول يناسبه المنهج التاريخي .

والبابان الثاني والثالث يناسبهما المنهج الفني .

وقد أدمج منهاجين تبعاً لمتطلبات الدراسة .

وأخيراً : أسأل الله تعالى أن يكتب لي في عملي هذا السداد والقبول وأن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم .

والله الموفق

عثمان قدري مكانسي

تمهيد:

نشأة الدولة العثمانية :

دخل الأتراك العثمانيون آسيا الصغرى (تركيا) في أوائل القرن الثالث عشر الميلادي نازحين من وسط آسيا متجهين غرباً إلى الأناضول. وكان بعض قبائل الترك من المسلمين قد سبقوهم إليها في القرن الحادي عشر الميلادي ، وهم من التركمان السلاجقة الذين احتلوا المقاطعات الآسيوية للإمبراطورية البيزنطية حتى جهات بحر إيجة غرباً ، وبعد المعركة الحاسمة التي انتصر فيها المسلمون عام / ٤٦٤ هـ / على الروم المحتشدين شرقي تركيا ، والتي عُرِفت باسم معركة (ملاذكرد) حيث هُزِم جيش بيزنطة وأُسِر امبراطورها (رومانوس الرابع) اكتسب القائد التركي المسلم (ألب أرسلان) شهرة واسعة في كافة أرجاء العالم الإسلامي مما مكن للقبائل التركمانية المسلمة من تثبيت أقدامها في بلاد آسيا الصغرى بعد أن دمرت تحصينات الحدود البيزنطية ، واحتلت شرقي الأناضول ووسطه [١] .

تقول إحدى الروايات : " إن القبيلة التركية من أسلاف عثمان ـ مؤسس الدولة العثمانية ـ كانت ترتحل في وهاد الأناضول بدواً حين رأت قرابة عام / ١٢٣٢ للميلاد / جيشين يقتتلان ، وأدركت أن أحد الجيشين ليس نداً للجيش الآخر ، فانضمت إلى الجيش الضعيف الذي كاد يلقى هزيمة محققة ، فكان انضمام القبيلة إليه سبباً في انتصاره ، وبعد المعركة كانت المفاجأة السارة للقبيلة حين تبين لها أنها تدخلت لنصرة بني جلدتها ، وهم الأتراك السلاجقة الذين كانوا يحاربون فرقة مغولية من جيش الخان (أوقطاي بن جنكيزخان) كان عهد إليها استكمال فتح آسيا الصغرى[٢]، فأقطع السلطان علاء الدين السلجوقي (١٢١٩ ـ ١٢٢٥) القبيلة التركية التي ساعدته ضد أعدائه ـ تقديراً لتدخلها في المعركة لصالحه ـ بقعة مترامية من دولته التي كانت تجتاز دور الاضمحلال " .

يقول بعض المؤرخين الألمان إن هذه القصة محض أساطير ، لكن بعض المؤرخين الإنجليز يرونها قصة حقيقية لامراء فيها ، ويضيفون قائلين : إن الذي دفع السلطان السلجوقي إلى منحهم الأرض أنه لم يرحب في قرارة نفسه بهذه القبيلة ، فقد أثبتت أنها على حظ وافر من الشجاعة والخبرة الحربية والكفاية القتالية ، فلم يطمئن إليها ، ومن ثَمَّ لم يرغب في إدماجها في قواته ، فمنحها تلك الأراضي ، وشغلها بالحرب ضد الدولة الرومانية البيزنطية المجاورة لها ، فشرعت هذه القبيلة بقيادة رئيسها (أرطغرل) تهاجم باسم السلطان (علاء الدين) ممتلكات البيزنطيين ، ونجحت في توسعها الإقليمي ، وحين مات زعيمها ، خلفه ابنه (عثمان) الذي سميت الأمة والدولة باسمه ، وسرعان ما نمت هذه الإمارة فصارت دولة مترامية الأطراف ، امتدت أقاليمها وولاياتها في آسيا وأوروبا وأفريقيا ، وغدت من أكبر الدول الإسلامية التي شهدها التاريخ ، ومن أشدها بأساً وأعزها جنداً [١] .

العثمانيون يعتنقون الإسلام :

هناك رواية مستقاة من الحوليات العثمانية القديمة تشير إلى أن (عثمان) مؤسس الدولة اعتنق الإسلام على يد عالم تطلق المراجع العربية عليه اسم (أدب عال) يقيم في قرية مجاورة لبلدة (أسكي شهر) عاصمة الإمارة الحديثة، وتزوج ابنته بعد أن رأى في نومه أن ذريته ستحكم العالم.

وتقول رواية أخرى : " إن والده قضى ليلة في دار أحد الزهاد، وقبل أن يأوي إلى فراشه جاء الزاهد بكتاب ووضعه على الرف ، فاستفسر (أرطغرل) عنه فأجابه : إنه القرآن الكريم كلام الله ، فحمل أرطغرل الكتاب وقرأه واقفاً حتى الصباح ، ثم نام ، فرأى فيما يراه النائم أن ملاكاً يبشره بأنه وذريته سيعلو قدرهم جيلاً بعد جيل على مدى القرون والأزمان لقاء احترامه القرآن [٢] " .

وسواء أكان هذا صحيحاً أم لا ، فإن العثمانيين جعلوا كتاب الله عز وجل نصب أعينهم وحكَّموا فيهم شريعته وحاربوا في سبيل نشره.

---

[١] ـ العثمانيون والروس : علي حسون ص /١٧ ـ ١٨ / .
[٢] ـ الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها : د . عبد العزيز الشناوي ج١ ص / ٣٤ / .
[١] ـ المصدر السابق ص/٣٥ / .
[٢] ـ المصدر السابق ص / ٣٧ / .

فهذا عثمان يموت وولدُه أورخان يحاصر مدينة " بورصة " ويفتحها ، وحين يعود إلى عاصمة أبيه يجده قد فارق الحياة وترك له وصية تكتب بماء الذهب ، يقول فيها :

يابنيَّ : إيَّاك أن تشتغل بشيء لم يأمر به رب العالمين ، وإذا واجهتك معضلة فاتخذ من مشورة العلماء موئلاً .

يابنيَّ : أحط من أطاعك بالإعزاز ، وأنعم على الجنود ، ولا يغرَّنَّك الشيطان بجندك ومالك ، وإياك أن تبتعد عن أهل الشريعة .

يابنيَّ : إنك تعلم أن غايتنا هي إرضاء رب العالمين ، وأنه بالجهاد يعمُّ نور ديننا كلّ الآفاق ، فتحدث مرضاة الله جلَّ جلاله.

يابنيَّ : لسنا من هؤلاء الذين يقيمون الحروب لشهوة حكم أو سيطرة أفراد فنحن بالإسلام نحيا ، وللإسلام نموت ، وهذا ـ ياولدي ـ ما أنت أهل له[١] .

وهذا فاتح القسطنطينية (محمد الثاني) يضع نصب عينيه قول رسول الله صلى الله عليه وسلم :

{ لتفتحنَّ القسطنطينية ، فلنعم الأمير أميرها ، ولنعم الجيش ذلك الجيش } ، فيدك معاقلها ويفض أسوارها ، ليكون ذلك الأمير الذي مدحه صفوة الأنبياء محمد صلى الله عليه وسلم ومدح جيشه .

ويقدم الدكتور محمد حرب في كتابه [٢] ترجمة نثرية لبعض شعر محمد الفاتح في الدعوة الإسلامية التي ملكت قلبه :

{ نيتي : امتثالي لأمر الله (وجاهدوا في سبيل الله)

وحماسي : بذل الجهد لخدمة ديني ، دين الله .

وعزمي : أن أقهر أهل الكفر جميعاً بجنودي جند الله .

وتفكيري : منصبٌّ على الفتح ، على النصر ، على الفوز بلطف الله.

وجهادي : بالنفس وبالمال ، فماذا في الدنيا بعد الامتثال لأمر الله ؟

وأشواقي : الغزو ، الغزو آلاف المرات لوجه الله .

ورجائي : في نصر الله وسمو الدولة على أعداء الله .

أما السلطان (سليمان القانوني) الذي وصلت الدولة في عهده إلى أوجها ، وحكم ستة وأربعين عاماً ، وتوفي وهو على صهوة جواده أثناء حصار قلعة (سيكتوار) في المجر ، وبموته ينتهي ما كان يعرف بعهد القوة في الدولة العثمانية ، فهو يعلن أن جهاده في سبيل الله وأن قدوته أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يقول في ديوانه الشعري ـ وهو شاعر يغلب على شعره رقة الأحاسيس ـ :

فلننشر الراية العظمى ونردد اسم الله
ولنسيِّر الجيوش نحو الشرق
فرض الله علينا حماية الإسلام
فلماذا نخلد للراحة ونحمل الذنوب ؟
إني آمل أن يحسن تمثلنا لقيادة أبي بكر وعمر
أيها الشاعر محبي[١] ، سر وسيِّر الجيوش
نحو الشرق من الحدود [٢] .

وكان الأوروبيون ينظرون إلى الفتوحات العثمانية على أنها فتوحات إسلامية ، وأنهم الرمز الحي المجسد للإسلام ، وأطلقوا على المسلم لفظ (تركي) لأنهما (المسلم والتركي) امتزجا فصارا في ـ رأي الأوروبيين ـ شيئاً واحداً [٣] .

الخلافة العثمانية :

اختلف عهد الخلافة العثمانية عن عهد السلطنة ، إذ بدأ الاهتمام بالأمة المسلمة والعمل على توحيدها، ثم الوقوف أمام الصليبيين صفاً واحداً . وقد عمل الخلفاء على هذا حتى ضعف أمرهم وأصبح تفكيرهم ينحصر في

---

(١) العثمانيون في التاريخ والحضارة . للدكتور محمد حرب ص/١٦ .
(٢) نفس المصدر ص/٢٥٨ .
[١] كلمة محبي : هي الاسم الشعري الذي كان يطلق على السلطان سليمان نفسه .
[٢] العثمانيون في التاريخ والحضارة ، د. محمد حرب ص/٢٥١ .
[٣] الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها د. عبد العزيز الشناوي ج/١ ، ص/٤٣ .

المحافظة على ما تحت أيديهم ، فلما زاد الضعف بدأ النصارى يقتطعون من الدولة الجزء بعد الآخر حتى أتوا عليها ، وتشتت أمر المسلمين وانقسموا فرقاً وأحزاباً وشيعاً وعصبية. لذا فقد توالى على الخلافة العثمانية ثلاثة عصور :

أولها : عصر القوة :

وحكمها فيه خليفتان فقط هما (سليم الأول ، وابنه سليمان الأول)

سليم الأول : حين تنازل (بيازيد) لابنه(سليم) عن الحكم بدعم من الانكشارية أرضاهم ، ثم تخلص من إخوته وأبنائهم الذين ينازعونه في السلطة فقتلهم ، وقد عرف عنه أنه كان شخصية عسكرية قوية ، جعل من دولته أقوى الدول آنذاك ورأى أنه لايمكن مواجهة أوروبا النصرانية إلا بالمسلمين كافة ، فقد كان البرتغاليون يعملون على احتلال المدينة المنورة وأخذ رفات النبي الكريم صلى الله عليه وسلم ليتخلى المسلمون عن القدس للنصارى وقد عجز المماليك عن مقاومتهم ، بل إن الصفويين شكلوا حلفاً مع البرتغاليين ضد العثمانيين وجعلوا عاصمتهم (تبريز) ليتوسعوا في دولتهم ومذهبهم ، ودعموا الأمير (أحمد) ضد والده (بيازيد) ثم ضد أخيه (سليم الأول) وتعاونوا مع المماليك ضد العثمانيين . فلم يكن أمام السلطان (سليم) بدٌّ من تأديبهم ، فاحتل عاصمتهم وأحصى الشيعة في (ديار بكر) وقتلهم ، وسار إلى بلاد الشام بدعوة من أهلها لتخليصهم من المماليك الظالمين الضعفاء أمام البرتغاليين.

وفي معركة (مرج دابق) في الشمال الغربي من (حلب) قتل السلطان المملوكي في تلك البلاد (قانصوة الغوري) ، وانتهت دولة المماليك سنة / ٩٢٢ هـ / في بلاد الشام وفي السنة التالية دخل السلطان (سليم الأول) القاهرة وتخلّى الخليفة العباسي الاسمي له عن الخلافة فكان أول خليفة للمسلمين من غير العرب ، ولما عاد إلى (استانبول) بدأ يستعد لحرب الصفويين ، غير أنه توفي سنة /٩٢٦ هـ/ بعد حكم دام تسع سنوات وطَّد فيها أركان الدولة .

سليمان القانوني (الأول) : وقد بلغت الدولة في عهده أوج قوتها واتساعها :

١ ـ فقد قضى على (جانبرد الغزالي) حاكم الشام الذي تمرد عليه .

٢ ـ واحتلَّ عاصمة المجر (بلغراد) ، وفتح جزيرة (رودوس) سنة /٩٢٩هـ/

وضمَّ إليه (شبه جزيرة القرم) سنة / ٩٣٩ هـ / ، واستولى على عاصمة الأفلاق(شمال بلغاريا) فدفعت له الجزية ، وحالف ملك فرنسا في قتال المجر ، وفتح بعض المواقع في جزيرة (مورة) اليونانية .

٣ ـ دخل (تبريز) ثانية سنة / ٩٤١ هـ / ، ومنها إلى (بغداد) ففتحها .

٤ ـ أما في الشمال الأفريقي فإن (عروج) وأخاه (خير الدين بربروس) اللذين أسلما حررا الجزائر من جيوش (شارلكان) ملك فرنسا ، وقتل (عروج) في إحدى المعارك مع الإسبان ، وحرر أخوه (خير الدين بربروس) شواطئ ليبيا من الإسبان ، والتقى بأسطول شارلكان سنة / ٩٤٤ هـ / وانتصر عليه ، وغزا جزيرة (كريت) اليونانية وبعض موانئ جنوب إيطاليا ، وتوفي سنة / ٩٥٣ هـ / .

٥ ـ وفي جزيرة العرب جهز (سليمان باشا) والي مصر أسطولاً بحرياً فتح به (عدن ومسقط) وحاصر جزيرة (هرمز) سنة/٩٤٤ هـ/، وحارب البرتغاليين في الهند وفتح (كوجارت) ثم خسر أمامهم في معركة (ديو) البحرية ، وعاد إلى مصر .

٦ ـ وفي أذربيجان لجأ أخو إسماعيل الصفوي إلى الخليفة يشكو ظلم أخيه الشاه ، وطلب مساعدته ، فسار الخليفة إلى (تبريز) ودخلها للمرة الثالثة سنة / ٩٥٤ هـ / .

٧ ـ وعاد جنود الخلافة إلى (ترانسلفانيا) في المجر سنة /٩٥٧ هـ/ وانتصروا على النمساويين سنة / ٩٥٨ هـ / ، وجددوا المعاهدة مع الفرنسيين سنة / ٩٥٩ هـ / وحاصر العثمانيون جزيرة (مالطة) سنة / ٩٧١ هـ / ولم يتمكنوا من فتحها ، وعاد الخليفة بنفسه إلى المجر سنة / ٩٧٣ هـ / نتيجة خلاف بين ملكها التابع للعثمانيين وبين ملك النمسا ثم توفي الخليفة المجاهد على صهوة فرسه أثناء حصاره قلعة (سكتوار) في المجر[1] .

---

[1] التاريخ الإسلامي (العهد العثماني) محمود شاكر من ص/٩٩ ـ ١١٠ / بتصرف .

ثانيها :عصر الضعف :

لم يطل عصر القوة في الخلافة العثمانية ، إذ لم يزد عن نصف القرن كثيراً ، ولم يشمل سوى الخليفتين سليم الأول الذي حكم تسع سنوات ، وابنه سليمان الذي حكم ثمانية وأربعين عاماً ، وجاء عصر الضعف بعدهما مباشرة ، وبدأ الخط البياني للدولة يهبط باستمرار ، وإن كان يتوقف عن الهبوط أحياناً ، ويسير مستوياً في بعض الأحيان، وذلك لقوة بعض الخلفاء النسبية ، أو لهمة بعض حاشيتهم وخاصة الصدر الأعظم .

وقد كان لهذا الضعف عوامل عدة ، نلمسها فيما يلي :

١ـ سيطرة العقلية العسكرية :

وكانت تنزع إلى حلّ الأمور بالسيف دون العــودة إلى العقــل ومناقشة الأمور ، فقد ربَّى الخلفاء عسكرهم تربية الجندية التي ترى القوة فقط سبيلاً إلى تجاوز العقبات وحلّ الأمور ، صغيرها وكبيرها، فحين يكون الإسلام والتربية الخلقيــة يُحَدُّ من طغيانها وجبروتها ، أما إن كان غائباً فالحياة إذن أقــرب ما تكــون إلى حيــاة الجزار ، هذا ما رأيناه واضحاً للعيان في قتل الأخ إخوته وأقرباءه وحتى أبناءه ليصفو له جو الحكم ، فلا ينازعه أحد سلطانه . وغالبية الأبناء من أمهات مختلفات في الجنس والدين ومشارب مختلفة لا يجمع بينهم جامع قوي وأعمارهم متقاربة ، ولذلك كان كل واحد منهم يعمل على ما يوصله إلى السلطة ولو بقي وحده دون إخوته على قيد الحياة ، مما يكثر المنازعات فتضعف الخلافة .

لقد كان الإنكشاريون [1] في بداية أمرهم قوة ضخمة ، ولديهم روح معنوية عالية نتيجة التربية الإسلامية ، فأحرز العثمانيون بهم انتصارات عظيمة ، وأسدوا إليها خدمات جلَّى ، فلما أعطتهم الإقطاعات والامتيازات وكثرت بأيديهم الأموال أخلدوا إلى الأرض ومالوا عن القتال ، ثم تدخلوا في شؤون الدولة ودعموا أحد أبناء السلاطين ضدَّ الآخر ، فلما أوصلوه إلى الحكم بذل لهم يرضيهم فازداد غرورهم وكثر صلفهم ، وتحكموا في مصير الدولة ، فكان هذا عاملاً من عوامل ضعفها .

٢ـ الاتفاقيات مع الدول الأجنبية :

حين اكتشف البرتغاليون رأس الرجاء الصالح تحولت التجارة إلى آسيا وأفريقيا الشرقية عن ذلك الطريق ، ففقد تجار البلاد العربية الأرباح التي كانت في متناول أيديهم وفقدت الموانئ قيمتها ، وارتفعت أسعار الحاجيات، وانعكس هذا كله على الدولة ، فشجع (سليمان القانوني) التجار الأوروبيين ، وعقد معهم اتفاقيات فيها كثير من التنازلات ، كان يظن أنها مؤقتة يمكن إلغاؤها متى أراد خلفاؤه ، لكن ضعف من جاء بعده جعل هذه الاتفاقيات غِلاً ، إذ إنها جعلت للأوروبيين دولة داخل الدولة العثمانية ، وكان ولاء النصارى لها لأنها تحميهم من المساءلة مهما فعلوا . ومن بين بنود هذه الاتفاقيات : أن الدعاوى يبتُّ فيها القنصل العام والباب العالي فقط ، وأنه إذا خرج الفرنسي ـ مثلاً ـ وعليه دين فلا يُسأل عنه ولا تُطالَب بلاده بذلك .

ومن هذا الباب بدأت الدول الأجنبية تتدخل في شؤون الدولة العثمانية وتحرِّض على التمرد وتؤسس الجمعيات المناهضة .

٣ ـ الترف :

نتيجة للفتوحات الكثيرة حصلت الدولة العثمانية على الغنائم الوافرة ، وأفسح المجال أمام الخلفاء وكبار المسؤولين في الدولة أن ينصرفوا إلى اللهو ، وكان الخليفة قبل (سليمان القانوني) يقود الجيوش بنفسه ، فترك ذلك لكبار الضباط ، وجعل المسؤول عن الدولة مجلساً يحكمه الصدر الأعظم ، وأخلد السلاطين بعد ذلك إلى الراحة والتلذذ بمباهج الحياة . وبذلك أصبح الحكم بيد غير أولي الأمر، يتلاعبون به حسب أهوائهم .

٤ ـ الزواج من الأجنبيات :

يصح الزواج من الأجنبيات غير المسلمات إذا اقتضت المصلحة السياسية ذلك ، أو كانت المسلمات قليلات ، لكن الخلفاء درجوا على الزواج من الكتابيات لجمالهن ، وكثيرات منهن بقين على دينهن ، فنشأ أولادهن على حب النصارى ، أو -على الأقل - على عدم الرغبة في معاداتهم.

ولما كانت النساء يوالين أبناء ملتهن ، فقد سعين إلى تشجيع أزواجهن ـ الخلفاء ـ أو أبنائهن على التجاوز عن خيانة النصارى ، وكثيراً ما كن يتآمرن لإيصال أبنائهن إلى سدة الحكم لمصلحة أهليهن، وقد رأينا ما فعلت

---

[1] الإنكشاريون : طائفة عسكرية يشكلون تنظيماً خاصاً ، لهم ثكناتهم وشاراتهم ، وقد كانوا أعز فرق الجيش نفر اً وأقواها جنداً وأكثرها نفوذ اً ، تقلدوا أخطر المناصب العسكرية والمدنية ، استفادت الدولة منهم في عصرها الذهبي ، وأضيرت منهم في = العصور التالية ، جمعهم العثمانيون من أسرى الحرب وضريبة الغلمان من النصارى . الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ج/١ ، ص /٤٧٦ وما بعدها .

زوجة سليمان القانوني (روكسلان) بابن زوجها حيث قتلته لتفسح المجال أمام ابنها (سليم الثاني) ليكون خليفة للمسلمين ، كما أن أم السلطان محمد الفاتح بقيت على عقيدتها .

٥ ـ اتساع رقعة الدولة :

بلغت مساحة الدولة العثمانية /ستة عشر مليون كيلو متر مربع / ممتدة في القارات الثلاث من المغرب على المحيط الأطلسي غرباً ، إلى غرب إيران شرقاً ، ومن البحر الأسود شمالاً إلى السودان واليمن جنوباً ، كما امتدت إلى شرق أوروبا. وهذا الاتساع يحتاج خليفة قوياً يختاره مجلس الشورى ، لاخليفة ضعيفاً ، بل إن هؤلاء الخلفاء تركوا لغيرهم من الوزراء والولاة أمر الحكم ، وتراخت قبضتهم عن أملاكهم، فضعفت الدولة ، كما كان لاتساع الرقعة وصعوبة المواصلات دور في تشجيع الطامعين وأصحاب المصالح على إثارة الشغب والفوضى والعبث بالأمن واقتطاع أجزاء من جسم هذه الدولة المترامية الأطراف .

٦ ـ فقد الأمل والتخطيط للمستقبل :

فمنذ أن قامت الدولة العثمانية كان لها منافسوها من الإمارات الأخرى في الأناضول وآسيا الوسطى ، وكل إمارة تحاول القضاء على غيرها ، حتى استطاع السلطان سليم الأول القضاء على آخرها ، فلم يعد هناك مجال للمنافسة ، كما أن فتح القسطنطينية ألغى الهدف الديني من التوسع ، حيث قضي على البيزنطيين فيها سنة /٨٥٧ هـ/، كما انتهى أمر التفكير في إضعاف الدويلات الصغيرة المجاورة بعد إضعاف الصفويين والقضاء على المماليك ، وتم إجلاء البرتغاليين عن كثير من أماكنهم ، كل ذلك جعل العثمانيين يشعرون أنهم في أمان لايعكر صفوهم أحد ، ففترت هممهم وقصروا في تأمين حدودهم، فبدأ الضعف يسري إلى جسم الدولة .

٧ ـ التعصب الصليبي :

على الرغم من أن الدول الأوروبية لها مصالح تتضارب مع بعضها ، وعلى الرغم من وجود خلافات وحروب بينها ، إلا أنها تلتقي معاً في حربها للإسلام والمسلمين ، (ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم) [١] ، وقد حاول السلاطين التقرب إلى بعض هذه الدول لتكون حليفة لهم ضد الدول الأخرى ، وعقدوا معهم اتفاقيات إلا أن البابا الصليبي والمتعصبين كانوا يؤججون نار الصليبية الحاقدة ، فلم يستفد العثمانيون من الامتيازات التي قدموها للنصارى وإن أظهر هؤلاء أحياناً موافقتهم للعثمانيين ، كما أن إذكاء روح الصليبية الحاقدة أثارت النصارى الذين يعيشون على أرض الإسلام ، فكانوا يقومون بالحركات والثورات ضد الخلافة ، تدعمهم الدول النصرانية مما يؤدي إلى إنهاك الدولة العثمانية[٢].

٨ ـ عدم مسايرة ركب العلم :

انصرف العثمانيون في هذا العصر عن العلم ، واهتموا بالتدريب العسكري وتعبئة الجيوش وبناء الأساطيل ، ولعل حياتهم البدوية كانت سبباً في ذلك ، وكان حظهم من الثقافة أقل من حظ أوروبة التي سارت سيراً حثيثاً في مجال العلوم والحضارة ، فصار البون بين العثمانيين والأوروبيين شاسعاً ، وبرزت فكرة تقليد أوروبا والسير على خطاها ، وكفى بهذا انهزاماً نفسياً يتبعه الانهزام المادي ، وهذا هو الضعف بعينه ، وعقدة الصغار ، وأنى لنفوس ضعيفة أن يتم لها النصر ؟!

٩ ـ وفوق كل هذا : **مخالفة منهج الله** :

فحين قامت الدولة العثمانية كان شعارها نصرة الإسلام ، ونشره في أرض الله ، واتسعت الدولة وكانت محط أنظار المسلمين ، وحين فترت حرارة التربية الإسلامية وضعف أثرها في نفوس الناس ، انحرفت عن منهج الله ، فظهر السلب والنهب في المدن الإسلامية نفسها والمدن المفتوحة ، وعمت الفوضى وتعاطي المنكرات وشرب الخمر وتجبُّر الجنود الانكشاريين .

أما السلاطين فقد تركوا أمور الدولة وسلموها لمن لاهمَّ له سوى جمع المال وفرض الهيمنة وأُعْطِيَ المتمردون والمشاغبون من الجند إقطاعات وامتيازات خوفاً منهم ، فزاد الانحراف وعمَّ الاضطراب فوصل هؤلاء إلى أن قتلوا عديداً من السلاطين ووزرائهم ، وخلعوا العديد منهم ، وفرضوا ما يريدون عليهم .

---

[١] سورة البقرة الآية / ١٢٠ / .

[٢] التاريخ الإسلامي (العهد العثماني) ص /١٢٠ / .

مرحلة الضعف هذه تولى الحكم فيها خمسة عشر خليفة ، واستمرت زهاء قرنين من الزمان ، بدأت سنة / ٩٧٤ هـ / وانتهت سنة/١١٧١ هـ/.

وفي الجدول التالي إضاءة مبسطة لهؤلاء السلاطين والخلفاء :

الرقم	الاسم	الولادة	العمرعند الحكم	مدة الحكم	بدء الولاية و نهايتها	العمر	طريقة الوفاة
١	سليم الثاني	٩٣٠	٤٤	٨ سنوات	٩٧٤ ـ ٩٨٢	٥٢	وفاة عادية
٢	مراد الثالث	٩٥٣	٢٩	٢١ سنة	٩٨٢ ـ ١٠٠٣	٥٠	وفاة عادية
٣	محمد الثالث	٩٧٤	٢٩	٩ سنوات	١٠٠٣ ـ ١٠١٢	٣٨	وفاة عادية
٤	أحمد الأول	٩٩٨	١٤	١٤ سنة	١٠١٢ـ ١٠٢٦	٢٨	وفاة عادية
٥	مصطفى الأول	١٠٠١	٢٥	ثلاثة أشهر	١٠٢٦	ـ	عُزِلَ
٦	عثمان الثاني	١٠١٣	١٣	٥ سنوات	١٠٢٦ ـ ١٠٣١	١٨	قتله الانكشاريون
	مصطفى الأول	١٠٠١	٣٠	سنة واحدة	١٠٣١ ـ ١٠٣٢	ـ	عُزِلَ
٧	مراد الرابع	١٠١٨	١٤	١٧ سنة	١٠٣٢ ـ ١٠٤٩	٣١	وفاة عادية
٨	إبراهيم الأول	١٠٢٤	٢٥	٩ سنوات	١٠٤٩ ـ ١٠٥٨	٣٤	قتله الانكشاريون
٩	محمد الرابع	١٠٥١	٧	٤١ سنة	١٠٥٨ ـ ١٠٩٩	٥٣	عزل ١٠٩٩
١٠	سليمان الثاني	١٠٥٢	٤٧	٣ سنوات	١٠٩٩ ـ ١١٠٢	٥٠	وفاة عادية
١١	أحمد الثاني	١٠٥٢	٥٠	٤ سنوات	١١٠٢ ـ ١١٠٦	٥٤	وفاة عادية
١٢	مصطفى الثاني	١٠٧٤	٣٢	٩ سنوات	١١٠٦ ـ ١١١٥	ـ	عزل ١١١٥
١٣	أحمد الثالث	١٠٨٣	٣٢	٢٨ سنة	١١١٥ ـ ١١٤٣	٦٦	عزل ١١٤٣
١٤	محمود الأول	١١٠٨	٣٥	٢٥ سنة	١١٤٣ ـ ١١٦٨	٦٠	وفاة عادية
١٥	عثمان الثالث	١١١٠	٥٨	٣ سنوات	١١٦٨ ـ ١١٧١	٦١	وفاة عادية

ونستطيع القول إن أكثرهم يُعَدُّ مغموراً إلا من حدثت في أيامه أحداث جسام سلطت عليه الأضواء وعُرِف بسببها [١] .

الخلفاء في عصر الضعف

أ) **ـ النسب :**

١ـ سليم الثاني

٢ـ مراد الثالث

٣ـ محمد الثالث

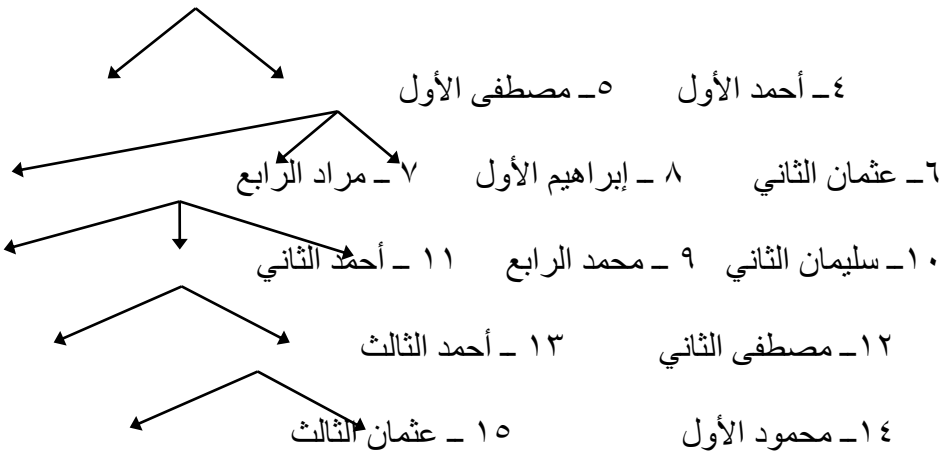

[١] التاريخ الإسلامي (العهد العثماني) ص / ١٢٤ / .

ب) السيرة الذاتية :

١ـ سليم الثاني : كان ضعيف الشخصية ، وصل إلى الحكم بعد أن دسَّت أمه (روكسلان) الروسية على أخويه عند أبيه فقتلهما [١] ـ وكان أبوه السلطان سليمان يحب زوجته ولا يرفض لها طلباً [٢] .

إلا أن وزيره الصدر الأعظم (محمد الصقلي) الذي لم يفارقه كان قوياً ،واستطاع أن يوقف سقوط الدولة ويؤخرظهور الضعف المباشر [٣]. وقد تم في عهد هذا السلطان ما يلي :

١ ـ عقد صلح مع النمسا سنة / ٩٧٦ هـ / .

٢ ـ عقد معاهدة مع فرنسا سنة / ٩٧٧ هـ / مما خولها أن ترسل إرسالياتها إلى رعاياها في الدولة العثمانية ، وأن تربط النصارى العرب بها .

٣ ـ قمع ثورة في اليمن قام بها (المطهَّر بن شرف الدين) حيث أرسلت الدولة العثمانيـة جيشاً كبيراً بقيادة عثمان باشا ودعمه (سنان باشا) والي مصر سنة / ٩٧٦ هـ /

٤ ـ فتح الصدر الأعظم جزيرة (قبرص) سنة / ٩٧٨ هـ / ، مما أدى إلـى تحالـف النصارى بحراً فانتصروا على أسطول العثمانيـين وغزوا جزيـرة (كريت) ، لكـن حكومة (البندقية) عادت واعترفت بسلطة العثمانيين على(قبرص) خوفاً منهم سنة /٩٨٠هـ/ .

٥ ـ احتلال الإسبان (تونسَ) وإعادة واليها (حسن الحفصي) إلى الحكم سنة / ٩٨٠هـ وبعد ثمانية أشهر استرجعها منهم (سنان باشا) .

٢ـ مراد الثالث :

لم يكن كأبيه فسقا وفجوراً ، فقد أمر بمنع شرب الخمر لكنه اضطر إلى التراجع عن ذلك بسبب ثورة الإنكشاريين ضده ، وقد قتل إخوته الخمسة خوفاً من منازعته الملك . أما عن الأعمال التي تمت في عهده فيمكن إجمالها فيما يلي :

١ـ عقد معاهدة مع بولونيا أصبحت فيها تحت رعاية الدولة العثمانية سنة / ٩٨٣هـ/ واعترفت النمسا بذلك سنة / ٩٨٤ هـ / .

٢ـ حدد امتيازات الدول الأجنبية في حماية رعاياها ضمن الدولة العثمانية .

٣ـ قامت ثورة في مراكش سنة / ٩٨٥هـ / استعان زعيمهم بالبرتغاليين ، لكن الجيش العثماني استطاع أن يخمدها .

٤ـ توفي (طهماسب) شاه الصفويين وقتل ابنه (حيدر) في اليوم نفسه ، وتولى ابنه الثاني (خدا بنده) الحكم واستغل العثمانيون هذا الاضطراب فدخلوا (تفليس) إحدى المدن الكبرى للصفويين سنة / ٩٨٥هـ / .

٥ـ دخل الجيش العثماني أذربيجان الشمالية(شروان) سنة /٩٨٦هـ/ .

٦ـ دخل العثمانيون بقيادة (عثمان باشا) داغستان سنة / ٩٩٧ هـ / وتزوج من أهلها ، وأمر جنوده ففعل كثير منهم ذلك ، مما أدى إلى دخول كثير من الداغستانيين في الإسلام .

٧ـ قتل خان الترك بالسم ، (فعل ذلك أخوه واستلم مكانه) فدخل العثمانيون عاصمتهم (كافا) سنة / ٩٩٢هـ / .

٨ ـ دخل القائد عثمان باشا (تبريز) عاصمة الصفويين ، فتنازل هؤلاء عن (الكرج وشروان وجنوب أذربيجان) سنة / ٩٩٣ هـ / .

---

[١] التاريخ الإسلامي (العهد العثماني) محمود شاكر ص / ١٢٥ / .

[٢] كانت حياة سليم الثاني تتشح بالموبقات ، أدمن الخمور حتى أطلق عليه لقب (السكير) وأسرف في ارتكاب الفواحش الجنسية ، وكان ينتمي إلى مجموعة من السلاطين المعروفين (بالتنابلة) وهو لقب أطلق على العديد من السلاطين الذين تركوا التصرف بشؤون الدولة لخدامهم بعد أن فرضوا إتاوات يتنعمون بها ، واتخذوا من السرايا المئات لملذاتهم . من كتاب: الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ج /١ ، ص /٦٠٢ / .

[٣] اقترح الصدر الأعظم على السلطان سليم الثاني إعادة فتح إسبانيا ، فلم يؤخذ برأيه على الرغم من المتاعب التي كانت تحيط بملك إسبانيا آنذاك ، لأن السلطان سليم أخذ برأي اليهودي البرتغالي (جوزيف نانسي) الذي اتخذه صفياً له ، وكان هذا اليهودي في مطلع حياته يسمى (دون ميجيه) وقد كان له دور بارز في سياسة الدولة العثمانية ، وتمتع بنفوذ كبير فيها ، وزين للسلطان فتح جزيرة (تاكوس) ،وحين تم ذلك وهبها السلطان سليم له ـ لليهودي ـ إقطاعاً ، ولم تمض سنوات حتى تجرأ وأعلن نفسه دوقاً عليها (بفضل الله) . ولم تقف أطماعه عند هذا الحد ، بل زين للسلطان فتح جزيرة (قبرص) بحجة أن نبيذها لا يضارعه نبيذ!! وذلك على أمل أن يأخذها هو أيضاً ، وفي غيبة السكر والعربدة وعده بها . الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ج / ٢ ، ص /٩٢٣ ـ ٩٢٤ / المتن والحاشية .

٩ـ أما على الجبهة الأوروبية فقد خسر العثمانيون أول الأمر أمام النمسا والمجر بعد انضمام أمراء رومانيا وترانسلفانيا إليهما ، فسار إليهم (سنان باشا) الصدر الأعظم ودخل بوخارست فانسحب الأوروبيون إلى ما بعد نهر الدانوب .

ومن الملاحظ أن الصدور العظام في عهد هذا الخليفة بلغوا خمسة [١] كان أهمهم (سنان باشا) الذي تولى المنصب ثلاث مرات ، مما يدل على أن أهم منصب بعد السلطان كان مضطرباً نتجت عن ذلك آثار سلبية داخلياً وخارجياً ، ولعل أسباب كثرة العزل والتولية تعود لما يلي :

أ ـ الصراع الخفي بين المتنفذين .

ب ـ المزاجية التي تحكم الخليفة .

جـ ـ الاضطراب الذي تعيشه الدولة .

٣ـ محمد الثالث بن مراد الثالث :

حين تولى الخلافة قتل إخوته التسعة عشر ودفنهم مع أبيه، فكانت بداية حكمه مجزرة رهيبة راح ضحيتها أقرب الناس إليه ، ولا أدري كيف جرؤ أهل الفتيا على ذلك وكيف زينوه لسلاطينهم [٢]. وأعتقد الأمر مختلقاً.

أهم الأحداث التي جرت في عهده القصير نسبياً (تسع سنوات) :

١ـ تصرف الصدر الأعظم (فرهاد) أول الصدور العظام الاثني عشر في أثناء حكمه بمقاليد الحكم تصرفاً تاماً .

٢ـ خسرت الدولة العثمانية يوغسلافيا ورومانيا وقتل الصدر الأعظم (فرهاد) .

٣ـ هزيمة النمسا والمجر أمام الجيوش العثمانية بقيادة الخليفة نفسه في معركة (كرزت سنة /١٠٠٥ هـ /.

٤ـ ثورة الأناضول بقيادة أحد الإنكشاريين الهاربين من معركة (كرزت) حيث تخاذل بعضهم فقتل الخليفةُ عدداً كبيراً منهم ، كما قضى على ثورة (قره يازجي) في عنتاب جنوبي تركيا ، إذ استسلم الثائر على أن يعطى ولاية (أماسيا) ، لكنه عاد إلى الثورة بمساعدة أخيه (دالي حسن) والي بغداد ، فتصدى لهما الصدر الأعظم وقتل (قره يازجي) لكن (دالي حسن) سرعان ما ثأر لأخيه وقتل الصدر الأعظم ، ولما استفحل أمره أعطي ولاية البوسنة فانصرف لقتال الأوروبيين حتى فني وجنوده .

٥ـ قامت خيالة (السباه) من حرس الخليفة بالثورة لما قلَّت إقطاعاتهم في الأناضول فقمعها الخليفة بالإنكشاريين .

أما الصدور العظام فهم كثر ، وتدل كثرتهم على :

ـ عدم أهليتهم في أكثر الأحيان .

ـ طمعهم وجشعهم ، فقد أعدِم بعضهم وعُزِل بعضهم الآخر لفسادهم .

---

[١] معجم الأنساب والأسر الحاكمة في التاريخ الإسلامي (بنو عثمان) للمستشرق زامباور ص / ٢٤٢ / .

[٢] يزعم محمد جميل بيهم في كتابه (فلسفة التاريخ العثماني ج ٢ ، ص / ١٥ ـ ١٦ /) أنه لم تمارس عمليات قتل الأخوة إلا منذ عهد السلطان محمد الفاتح الذي حكم من (١٤٥١ ـ ١٤٨١) ، وادعى أن هذا السلطان كان قد أصدر قانوناً خوّل ـ بمقتضاه ـ أي سلطان جديد يتولى العرش أن يباشر بقتل إخوته تأميناً لسلامة الدولة وأمنها القومي ، وأنه جاء في هذا القانون الذي سُمِيَ بقانون / نامة آل عثمان / مايلي : على أي واحد من أولادي تؤول إليه السلطة أن يقتل إخوته !! .. فهذا يناسب نظام العالم وإن معظم العلماء يسمحون بذلك ، ولذلك فعليهم أن يتصرفوا بمقتضاه .

كما يردد (إبراهيم محمد الفحام الفرية نفسها في ، ويرد الأستاذ زياد أبو غنيمة في كتابيه / جوانب مضيئة في تاريخ العثمانيين ص ١٥٧ وما بعدها ، و السلطان محمد الفاتح ص ٤٥ وما بعدها / على هذه الافتراءات ، ويبين أن الصراع على السلطة حدث في عهد العثمانيين كما حدث في التاريخ الإنساني عامة حيث ينتهي هذا الصراع بقتل أحد الأطراف المتصارعة ، ثم يتساءل : أليس من مقتضيات الأمانة العلمية والتاريخية أن يقدم المدعي بين يدي أي رواية تاريخية البينات التي تدعم صحة الخبر الذي يورده من تحديد الأسماء والأمكنة والأزمنة وسلسلة الرواة الذين تناقلوا هذا الخبر وأن لا يكتفى بالخبر المبهم ؟ . ثم يتساءل قائلاً : أين نص الفتوى الشرعية التي يزعم الزاعمون أنها تبيح للسلاطين العثمانيين قتل بني رحمهم من غير أي مسوغ شرعي ؟ وأين أسماء العلماء الذين أفتوا بهذه الفتوى ؟ ويقول ـ حفظه الله ـ إنه قرأ بضعاً وعشرين مرجعاً عربياً وتركياً وانجليزياً تؤرخ للعثمانيين فما وجد مرجعاً واحداً يذكر نص الفتوى المزعومة ، أو يذكر اسم شيخ واحد تنسب إليه هذه الفتوى ، وأن هذه المراجع قد اكتفي بذكرها وكأنها يقين لا يرقى إليه الشك ولا يحتاج إلى توثيق ! وقد تضاربت هذه المراجع تضارباً فاضحاً في تحديد اسم السلطان الذي تزعم الفرية أنه كان وراء استصدار هذه الفتوى ..

ويرجع الأستاذ أبو غنيمة تلك الفرية إلى دوافع نابعة من الحقد الأسود الذي تمتلئ به قلوب العديد من المؤرخين الصليبيين من أعداء الإسلام ، فوجهوا سهام افتراءاتهم ضد العثمانيين المسلمين وعلى رأسهم السلطان المسلم الذي مدحه رسول الله ﷺ ومدح جيشه قائلاً : " لتفتحن القسطنطينية ، فلنعم الأمير أميرها ، ولنعم الجيش ذلك الجيش " . فهل يمكن أن يكون ممدوح رسول الله ظالماً باغياً ؟ لا إنه والله حقد الحاقدين وافتئات الأعداء يردده الببغاوات دون أدلة ولا براهين ، ودون فهم أو تمحيص .

ـ كبر سن بعض الصدورالعظام حيث استلموالمنصب وهم علىمشارف قبورهم ([1])

٤ ـ أحمد الأول بن محمد الثالث :

كان جيداً في أخلاقه ، تولى الخلافة وهو في الرابعة عشرة من عمره، وحكم أربع عشرة سنة ، ومات في الثامنة والعشرين من عمره [2] .

من أهم الأحداث التي جرت في عهده :

١ـ أبطل عادة قتل الأخوة ، فلم يقتل أخاه مصطفى الذي أصبح خليفة بعده ولقب بمصطفى الأول ، بل حجزه مع الجواري والخدم .

٢ـ ظهرت حركات تمرد عدة منها :

أ ـ حركة جان بولاد الكردي ، وقد قضي عليها سريعاً.

ب ـ حركة والي أنقرة (قلندر أوغلي) وقد قضى عليها سريعاً

ج ـ حركة فخر الدين المعني الثاني ، وهو حفيد فخر الدين المعني الأول الذي كان في عهد سليم الأول ، وهو من أسرة درزية حكمت لبنان، وكانت ثورته سنة ١٠٢٢ هـ وتلقى الدعم من البابا والطليان ورهبان مالطة ، وكان عدد جنوده أربعين ألف ، لكنه هزم وفرَّ إلى إيطاليا

٣ـ استغل الشاه (عباس) شاه إيران الثورات المذكورة ، وأعاد إلى حكمه العراق ومدينتي (تبريز) و (وان) .

٤ـ مات الصدر الأعظم (مراد باشا قويوجي) القوي الشخصية الذي تولى الصدارة وهو فوق الثمانين من عمره .

٥ـ أبرم الصدر الأعظم (نصوح باشا) سنة/ ١٠٢١هـ / صلحاً مع الصفويين ، خسرت فيه الدولة بغداد وكل الأراضي التي كان العثمانيون قد ضموها إليهم .

٦ـ تخلصت النمسا من الجزية السنوية البالغة / ٣٠.٠٠٠ / ثلاثين ألف دوكا ، بشرط أن تدفع ولمرة واحدة / ٢٠٠.٠٠٠ / مئتي ألف دوكا .

٧ـ ظلت المجر تابعة للدولة العثمانية .

٨ ـ جرت حروب بحرية بين العثمانيين وسفن مالطة وإسبانيا وإمارات إيطاليا خسر فيها العثمانيون واضطروا إلى سحب سفنهم من البحر الأسود إلى بحر إيجة ، فاستغل أمراء الدول المعادية لهم مثل (أمراء القازاق) ذلك وهاجموا مدن الدولة العثمانية على البحر الأسود، مما أدى إلى حدوث خلاف بين الخليفة والصدر الأعظم نتج عنه إعدام الأخير.

٩ ـ جددت امتيازات أوروبا ، وأفتي بمنع الدخان الذي نشره الهولنديون ، فهاج الجند والموظفون ، فتراجع العلماء عن فتواهم .

أما الصدور العظام في عهده فقد طالت مدة حكمهم وذلك بسبب مباشرته لهم بنفسه ، حيث أثبت ـ على الرغم من صغر سنه ـ أنه أهل للحكم ، وإن تخلل حكمه بعض الخسائر التي لابد منها بسبب حالة الضعف التي كانت عليها الدولة خاصة في عهد أبيه ، وقد بلغ عدد الصدور العظام أثناء حكمه ستة .

([1]) معجم الأنساب للمستشرق زمباور ص / ٢٤٢ / .

([2]) صور السلطان أحمد الأول قدم الرسول ﷺ وكتب عليه الأبيات التالية باللغة التركية ، ثم وضعه في تاجه وحمله حتى وفاته :

" ماذا يكون لو أحمل في رأسي دائماً مثل تاجي
صورة قدم حضرة الرسول
إن صاحب تلك القدم ورد حديقة النبوة
امسح يا أحمد وجهك دائماً بقدم ذلك الورد " .

من كتاب (السلاطين العثمانيون) تأليف عبد القادر ده ده أوغلو ، ترجمة محمد خان ص /٥٩/ .

٥ ـ مصطفى الأول :

كان عثمان بن أحمد الأول صغيراً فعهد أحمد إلى أخيه مصطفى،وكان ـ كما أسلفنا ـ محجوزاً بين الجواري والخدم ، لذلك لم يستطع أن يدير شؤون الدولة والحكم حين عهد إليه ، ولم يلبث سوى ثلاثة أشهر ، ثم عزل ونصب ابن أخيه عثمان بن أحمد على الرغم من صغر سنه.

الصدر الأعظم الوحيد الذي كان في عصره هو : قيصرية لي خليل ، تولى الصدارة في /١٠٢٦ هـ وعزل في صفر /١٠٢٨ هـ / .على عهد الخليفة عثمان بن أحمد .

٦ ـ عثمان الثاني بن أحمد الأول :

ولي خمس سنوات مكان أبيه ، وكان عمره ثلاث عشرة سنة ، وقتل في الثامنة عشرة من عمره وكان قد قتل أخاه حين ولي الحكم .

من الأحداث التي جرت في عهده :

١ ـ أطلق سراح قنصل فرنسا وكاتبه ومترجمه الذين حبسهم مصطفى الأول لمساعدتهم أحد أشراف بولونيا على الهرب ، واعتذر لملك فرنسا على ما فعله عمه .

٢ـ أعلن الحرب على بولونيا لتدخلها في شؤون البغدان (رومانيا) ثم حصل الصلح بينهما عام / ١٠٢٩ هـ.

٣ـ عفا عن فخر الدين الثاني الذي ثار على والده السلطان أحمد وهرب إلى إيطاليا وسمح له بالعودة إلى لبنان ، فعاد مجدداً إلى الثورة عليه .

٤ـ قتله الإنكشاريون لأنه أراد أن يستبدلهم بغيرهم ، وأعادوا مصطفى الأول .

٥ـ بعد مقتل الخليفة حدث ما يلي :

أ ـ تمرد والي طرابلس فقد أعلن الاستقلال وطرد الإنكشارية من ولايته .

ب ـ تمرد والي/أرض روم / أباظة باشا ودخل مدينتي (سيواس وأنقرة) .

ج ـ نهب الإنكشاريون مدينة استانبول .

د ـ عين الإنكشاريون (كمنكاش علي باشا) صدراً أعظم ، فأشار عليهم بعزل مصطفى الأول لعجزه وتنصيب مراد الرابع بن أحمد الأول ففعلوا ذلك .

مصطفى الأول (للمرة الثانية) :

حكم أقل من سنة (نحو عشرة أشهر) وكان ضعيفاً مهزوزاً للسبب الذي ذكر آنفاً . وتبدل في عهده الثاني هذا خمسة صدور عظام، أُعدِم اثنان منهم ، وعُزِل الثلاثة تباعاً ([1])، وقد حكم أحدهم أياماً مما يدل على الفوضى الضاربة أطنابها في عهده ، وأنه مسير لايفقه شيئاً من أمور الحياة بله الحكم ، يعبث به من حوله من المتنفذين الطامعين ، وأن خليفة كهذا ـ وإن كان بسيطاً لاناقة له ولا جمل فيما هو فيه ـ كان عليه أن لايقبل بهذا المنصب الحساس المسؤول عن أمن أكبر دولة في العالم القديم، وكان على المخلصين من حوله أن يختاروا الأصلح لما فيه حياتهم وحياة أمتهم الإسلامية .

٧ ـ مراد الرابع بن أحمد الأول :

ولد سنة/ ١٠١٨ هـ / ، وتولى الخلافة بعد عزل عمه مصطفى سنة / ١٠٣٢ هـ / وعمره أربعة عشر عاماً، وبسبب صغر سنه سيطر عليه الإنكشاريون في أول الأمر . لكنه ما إن كبر حتى أصبح حازماً يفرض نفسه ويثبت وجوده ، ويقود جنده للقضاء على الفتن الداخلية والخارجية ويستعيد ما سلبه الصفويون ، كما اتسمت الجبهة الأوروبية بالحذر والمهادنة والوفاق .

أما أهم الأحداث في عصره فهي :

([1]) معجم الأنساب : للمستشرق زمباور ص ٢٤٣ .

١ـ ثورة قائد شرطة بغداد (بكير آغا) على واليها وقتله ، فتحاصره قوة عثمانية بقيادة الوزير (حافظ باشا) ويتفقان على ترسيمه والياً عليها ، لكنه يتصل سراً بالشاه عباس واعداً إياه بتسليم المدينة ، وحين يقترب الشاه من بغداد ينسحب حافظ باشا ، ويقتل الشاه بكيراً وابنه .

٢ـ القضاء على ثورة (أباظة باشا) بعد معركة كانت بقيادة الصدر الأعظم خليل قيصريه لي ، الذي رغب في التوجه إلى بغداد لتحريرها ، فتمردت عليه الإنكشارية وعزل نتيجة لذلك .

٣ـ ثورة (أباظة باشا) مرة أخرى وانتصار الصدر العظم (خسرو باشا) عليه ، ودخوله في الطاعة ثم تعيينه والياً على البوسنة سنة /١٠٣٧هـ / .

٤ ـ وفاة الشاه (عباس) وهجوم الصدر الأعظم على همدان سنة / ١٠٣٩ هـ / وفتحها وحصار بغداد مرتين دون التمكن من فتحها . وفي سنة / ١٠٤٨ هـ/ استطاع السلطان مراد أن يفتحها بنفسه .

٥ـ ثورة الإنكشارية وإخماد السلطان مراد لها وقتل رؤوس الفتنة[١] .

٦ـ أسر فخر الدين المعني الثاني وابنه من قبل والي دمشق ، وإرسالهما إلى استانبول ، وإكرام الخليفة لهما على الرغم من خيانتهما المتكررة ، ثم ثورة الحفيـد (قرقماز) مما أدى إلى أن يقتلهما الخليفة ويرسل من يخضع حفيده (قرقماز) .

٧ ـ قتل الخليفة أخويه بايزيد وسليمان .

٨ ـ دخول الخليفة (تبريز) عنوة سنة / ١٠٤٥ هـ / و(بغداد) سنة / ١٠٤٨ هـ / ومقتل الصدر الأعظم (محمد طيار) في ميدان المعركة .

٩ ـ مصالحة الصفويين سنة / ١٠٤٩ هـ / قبل موت الخليفة ، وبقاء (بغداد) بأيدي العثمانيين إلى نهاية الدولة العثمانية ، وقد تولى في عهده أحد عشر صدراً أعظم أُعدِم منهم ثلاثة وقُتِل اثنان .

٨ ـ إبراهيم الأول بن أحمد :

تولى الحكم في الخامسة والعشرين من عمره ، وقتل بعد تسع سنوات من خلافته .

وفي عهده حدثت أمور عدة أهمها :

١ـ احتلال القازاق في القرم مدينة (أزوف) على الساحل الشرقي للبحر الأسود ، واستردها العثمانيون سنة /١٠٥٢ هـ / .

٢ـ فتحت في أيامه جزيرة (كريت) سنة / ١٠٥٥ هـ / .

٣ـ أراد البنادقة الثأر من المسلمين بسبب فتحهم جزيرة كريت ، فأحرقوا عدداً من مرافئ المسلمين ، فأراد الخليفة الرد على ذلك بحرق النصارى في بلاده ، إلا أن المفتي لم يوافقه .

٤ـ أراد أن يفتك برؤوس الإنكشاريين فعلموا بذلك وتآمروا عليه وعزلوه ، ثم قتلوه خوفاً من عودته والانتقام منهم وكان الصدور العظام على عهده خمسة ، كان مصير ثلاثة منهم الإعدام ([١]) .

٩ ـ محمد الرابع بن إبراهيم :

أطول خلفاء فترة الضعف حكماً ، فقد تولى الخلافة طفلاً في السابعة من عمره ، وخلع منها بعد إحدى وأربعين سنة وعمره ثمانية وأربعون عاماً ، وتوفي بعد عزله بخمس سنوات .

كان من السلاطين التنابلة ، فعمت الفوضى وكانت الدولة تخسر بعض مواقعها إذا كان الصدور العظام ضعافاً ، وتسترد بعضها إذا كانوا أقوياء أمثال (محمد كوبريلي وابنه أحمد) .

بعض الأحداث الهامة التي جرت في عهده :

---

[١] من الملاحظ أن الإنكشارية بدءاً من عهد عثمان الثاني كانت عبئاً على الدولة العثمانية ، يسعى الخلفاء إلى التخلص منهم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً .

([١]) معجم الأنساب زمباور ص ٢٤٣ .

١ـ حين تولى الخلافة وهو صغير وعمت الفوضى اضطر (حسين باشا) الصدر الأعظم الأخير عند أبيه إلى رفع الحصار عن مدينة (قندية) عاصمة كريت .

٢ـ ثورة بقيادة (قاطرجي أوغلي وتعني بالعربية ابن سائق البغال) في الأناضول ، ودعمه في ثورته والي الأناضول (كورجي يني) فانتصرا على القائد العثماني (أحمد باشا) واتجها نحو استانبول ، لكنهما اختلفا فاغتنم العثمانيون هذا الاختلاف وهاجموهما فقتل الثاني وطلب القاطرجي العفو .

٣ـ ارتفعت الأسعار في استانبول حين احتلت البندقية جزيرتي (تنيدوس) و(لمنوس) في مضيق الدردنيل، وتحكمت به ومنعت البضائع عن استانبول .

٤ـ تولى (محمد كوبريلي) الصدارة سنة / ١٠٦٧ هـ / وكان قوي الشكيمة فقتل الكثير من الإنكشارية واسترد ما أخذته البندقية بعد جهاد مرير مات أثناءه قائد البحر البندقي

٥ ـ أخضع الصدر الأعظم أمراء رومانيا الشرقية (بغدان) ورومانياالشمالية الغربية (ترانسلفانيا) والأفلاق (رومانيا الوسطى ، وفيها العاصمة بوخارست) لأنهم عصوا أوامر السلطان ورغبوا في مساندة السويد ضد بولونيا .

٦ـ ضعفت العلاقة بين العثمانيين والفرنسيين الذين دعموا البنادقة في موقعة كريت .

٧ ـ توفي الصدر الأعظم (محمد كوبريلي) سنة / ١٠٧٢ هـ / بعد أن أعاد للدولةهيبتها، وكان ابنه أحمد مثله رفض الصلح مع النمسا وقاتلها وفتح أعظم قلعة فيها (نوهزل) سنة /١٠٧٤هـ / ودخل مورافيا ، وسيليزيا [1] ، ودعمت فرنسا النمسا ،وتآمر الجميع ضد العثمانيين .

٨ ـ رفض الصدر الأعظم تجديد الامتيازات لفرنسا ، فأرسل الفرنسيون أسطولهم مهددين ، فلما زاد ثبات الصدر الأعظم (أحمد كوبريلي) أخذوه باللين إلى أن جدد لهم الامتيازات وعاد الصفاء المشوب بالحذر بين الدولتين .

٩ ـ أما في أوكرانيا فقد رغب شعب القوزاق المسلمون بالتبعية للعثمانيين فغضب الألبانيون وهاجموا أوكرانيا فتدخل السلطان العثماني بنفسه وهاجم الألبان وانتصر عليهم فخضعوا وطلبوا الصلح ودفعوا جزية كبيرة ، وذلك سنة / ١٠٨٣ هـ / .

١٠ ـ رفض الشعب البولوني وعلى رأسه قائده (سوبيسكي) المعاهدة وهاجم العثمانيين بجيش جرار وانتصر عليهم ، ثم صار سوبيسكي ملكاً على بولونيا ، واستمرت المعارك سجالاً بين الطرفين ثم عادت المفاوضات ليتنازل الملك الجديد عمَّا تنازل عنه الملك القديم باستثناء بعض المواقع ، وكان ذلك سنة / ١٠٨٧ هـ / ، وفي نفس السنة توفي الصدر الأعظم (أحمد كوبريلي) .

١١ ـ استلم الصدارة (قره مصطفى) صهر أحمد كوبريلي لكنه لم يكن كسابقيه [1] وأساء إلى القوزاق فكرهوا العثمانيين وانحازوا إلى الروس وجرت بين الطرفين معارك طاحنة دامت أربع سنوات وذلك بين / ١٠٨٨ هـ ـ ١٠٩٢ هـ / وتمت المعاهدة بين الطرفين (رادزين) وبقيت الأمور كما كانت قبل الحرب ، وبذلك خسر العثمانيون محبة إخوانهم القوزاق .

١٢ ـ مني العثمانيون بخسائر كثيرة بعد ذلك ، نذكر منها :

أ ـ سار الصدر الأعظم (قره مصطفى) سنة / ١٠٩٢ هـ / لمحاربة النمسا ، لنجدة نصارى المجر الخاضعين لها ، وحاصر عاصمتها وكادت أن تسقط لولا نداءات البابا ، فوصلت قوات من بولونيا وسكسونيا وبافاريا في الوقت المناسب ودارت مارك طاحنة هزم فيها المسلمون وانسحبوا فأغار عليهم (سوبيسكي) ملك ألبانيا وقتل كثيراً من مؤخرة جيشهم ، فغضب الخليفة على الصدر الأعظم وقتله وعيَّن مكانه (إبراهيم باشا) سنة / ١٠٩٢ هـ / .

---

[1] مورافيا : بين تشيكيا وسلوفاكيا .

وسيليزيا : أصلها من ألمانيا ، وهي تقع اليوم في بولونيا حيث ضمت إليها بعد الحرب العالمية الثانية .

[1] لم يكن كسابقيه حنكة سياسية إذ أساء إلى إخوانه المسلمين في القوزاق التي تقع الآن في اوكرانيا ، إلا أنه كان قائداً ماهراً أضاف انتصارات كثيرة ، ولكن القدر لم يمهله إذ أحاط به ـ وهو يحاصر فيينا ـ عدد من الجيوش النصرانية فنسي الناس مآثره وحاسبوه على أمر ليس له به طاقة ، وأعدموه .

ب ـ هذا الانتصار الصليبي شجع النصارى فعقدوا بينهم الحلف المقدس الذي ضمَّ إلى السابقين : البنادقة ومالطة والنمسا وبولونيا ، وهاجموا المسلمين من أماكن متعددة :

ـ هاجمت النمسا بلاد المجر واحتلت بودابست .

ـ استعادت بعض المواقع مثل (قلعة نوهزل) المذكورة سابقاً .

عزل الخليفة الصدر الأعظم إبراهيم باشا ، ونفاه إلى جزيرة (رودوس) وعين مكانه سليمان باشا ، فهزم أيضاً .

ـ هزم سليمان باشا في بودابست سنة / ١٠٩٧ هـ / ، كما هزم ثانية سنة / ١٠٩٨ هـ / (موهاكز) .

ـ أغار سوبيسكي ملك بولونيا على ولاية البغدان وهددها .

ـ أغارت سفن البنادقة على سواحل اليونان وجزيرة الموره ، تساندها سفن البابا ورهبان مالطة .

ـ دخلت جنود النصارى أثينا وكورنتا وعدداً آخر من المدن سنة / ١٠٩٧ هـ / .

١٣ ـ أمام هذه الهزائم والفوضى اتفق العلماء والصدر العظم الأخير اسماعيل تشانجي على عزل السلطان سنة / ١٠٩٩ هـ / فعزل ومات سنة / ١١٠٤ هـ / وتولى مكانه أخوه سليمان الثاني .

وقد بلغ الصدور العظام في عهده تسعة عشر صدراً أعظم ([1]) .

١٠ ـ سليمان الثاني بن إبراهيم :

تولى الحكم ثلاث سنوات ، وكان وقتها في الأربعين من عمره /١٠٩٩ هـ إلى ١١٠٢ هـ / وفي عهده استعادت الدولة هيبتها .

من الحوادث التي جرت في عهده القصير :

١ـ لم يعاقب الجند على ما فعلوه بأخيه ، بل أكثر لهم العطايا مما أطمعهم فيه فتمردوا عليه وقتلوا قادتهم وقتلوا الصدر الأعظم سياوش باشا وسبوا نساءه ، وعمت الفوضى البلاد فعين الخليفة صدراً أعظم جديداً هو مصطفى باشا زودوستو ، ولم يكن كفئاً فعزله الخليفة بعد صدارته بخمسة أشهر لأن الأعداء انتهزوا هذه الفوضى وتقدموا في املاك الدولة العثمانية، واحتل البنادقة(دلماسيا) وهي السواحل الشمالية لبحر الأدرياتيك وبعض المقاطعات في اليونان ، وتوالت الهزائم .

٢ ـ عين الخليفة (مصطفى بن محمد كوبريلي) صدراً أعظم فسار على نهج أبيه وأخيه فحمى الأهالي من تصرفات الجند ، وأعطى الجند حقوقهم ، وسمح للنصارى في استانبول ببناء ما تهدم من كنائسهم فأحبه الناس حتى إن نصارى الموره ثاروا ضد البنادقة وطردوا جيشهم من بلادهم ، واتجه على رأس جيش إلى النمسا واستعاد منها بعض ما أخذته ، ودخل بلغراد سنة /١١٠١ هـ / وأعيدت ترانسلفانيا إلى الدولة العثمانية ، وأخضع ثوار الصرب ، وبذلك عادت للدولة هيبتها وفتح الله فيهما الكثير على يديه واستشهد في معركة (سلنكمن) في عهد أحمد الثاني وفقدت الدولة بذلك أملاً عظيماً .

الصدور العظام في عهده أربعة ، أشهرهم مصطفى الكوبريلي المذكور آنفاً ([2]) :

١١ ـ أحمد الثاني بن إبراهيم الأول :

أصغر من أخيه بشهرين فقط ، ولم يكن لسليمان أولاد فتولى الحكم من بعده ، وله من العمر خمسون سنة ، حكم أربع سنوات ، وكان القتال في أيامه القصيرة عبارة عن مناوشات ، واحتلت البندقية في عهده بعض جزر بحر إيجة .

وكان عدد الصدور العظام في عهده خمسة .

١٢ ـ مصطفى الثاني بن محمد الرابع :

([1]) نفس المصدر السابق ص ٢٤٤ .

([2]) نفس المصدر ص ٢٤٤ .

_تولى الخلافة في الثالثة والثلاثين من عمره ، وحكم تسع سنوات من / ١١٠٦ ـ ١١١٥هـ وعزله الإنكشاريون .

من الأحداث الهامة في عهده :

١ـ كان شجاعاً قاد الجيوش بنفسه فسار إلى بولونيا وانتصر على أهلها في عدة معارك بمساعدة القوزاق المسلمين .

٢ـ انطلق إلى مدينة آزوف التي يحاصرها القيصر الروسي بطرس الأكبر فأجبره على ترك الحصار سنة ١١٠٧ هـ وتوجه إلى المجر وهزم جيوشها أولاً ثم انهزم أمام الملك النمساوي الجديد (أوجين دي سافوا) وغرق كثير من المسلمين في نهر (تيس) ودخل الملك النمساوي بلاد البوسنة وقتل الصدر الأعظم محمد ألماس في نهاية سنة / ١١٠٨ هـ /

٣ـ استغل بطرس الأكبر انشغال العثمانيين في قتال النمساويين ودخل آزوف عاصمة القوزاق .

٤ ـ تولى حسين كوبريلي الصدارة فسار نحو النمسا فتقهقرت أمامه وتراجعت إلى الشمال الغربي إلى ما بعد نهر السافا .

٥ ـ في الوقت نفسه انتصر الأسطول العثماني على البندقية واسترد بعض الجزر التي أخذتها في بحر إيجة.

٦ ـ عقدت الدولة معاهدة عام / ١١١٠هـ / مع دول الغرب مجتمعة خسرت فيها آزوف وأوكرانيا لروسيا ، وإقليم بودوليا وبعض المدن لألبانيا، وساحل دالماسية وبعض الجزر للبندقية وبلاد المجر وإقليم ترانسلفانيا للنمسا ... وسميت هذه المعاهدة الخاسرة (معاهدة كارلوفتس).

٧ ـ لم تعد أية دولة تدفع الجزية للعثمانيين .

٨ ـ بدأت الدول النصرانية تقف مجتمعة أمام الدولة العثمانية خوفاً من انتشار الإسلام .

ولي في عهده أربعة من الصدور العظام .

١٣ ـ أحمد الثالث بن محمد الرابع :

تولى الخلافة بعد أخيه مصطفى وهو في الثانية والثلاثين من عمره ، ودام حكمه ثمانية وعشرين سنة / ١١١٥ هـ ـ ١١٤٣ هـ / حيث ثار عليه الإنكشاريون وعزلوه .

أهم الأحداث في عصره :

١ ـ سار مع الإنكشاريين مدة وأعطاهم الأعطيات ووافقهم على قتل المفتي (فيض الله) حتى إذا تمكن منهم اقتص من قادتهم وعزل الصدر الأعظم (أحمد نشانجي) الذي فرضوه عليه .

شغل الناس بكثرة الصدور العظام الذين يعينهم ويعزلهم والأعداء يمكرون بالمسلمين

٣ـ انتصر الصدر الأعظم (محمد بلطه جي) على القيصر ، لكن خليلة القيصر أغوته ففك الحصار ونجا الروس من الإبادة التي كانت تنتظرهم ، وتعهدوا بعدم التدخل بشؤون القوزاق وميناء آزوف على البحر الأسود.

٤ ـ تخلت روسيا عن المعاهدة لكن الجيش العثماني وخانات القرم ضغطوا فكانت معاهدة أدرنة سنة / ١١٢٥ هـ / من جديد فتنازلت روسيا عن كل ما أخذته من سواحل البحر الأسود .

٥ ـ انتصر العثمانيون على البنادقة وأخذوا منهم ما بقي في ايديهم من جزيرة كريت

٦ ـ هزم النمساويون جيشين للعثمانيين ما بين سنتي / ١١٢٩ ـ ١١٣٠ هـ / وأخذوا بلغراد في معاهدة بساروفتس سنة /١١٣٠هـ / وجزءاً من الأفلاق (بلغاريا) وبقيت دلماسيا للبنادقة ، وأعيدت المورة في اليونان للعثمانيين .

٧ ـ استغل الروس ضعف الدولة العثمانية وطلبوا منها السماح لحجاجهم الذهاب إلى القدس دون دفع شيء، فوافق العثمانيون .

٨ ـ ضعف الدولة الصفوية ، واقتسامها بين العثمانيين الذين أخذوا الكرج وبلاد أرمينيا على يد الصدر الأعظم (إبراهيم باشا) وبين روسيا التي أخذت داغستان وسواحل بحر الخزر الغربية ، وحدوث اصطدام بين الدولتين في تلك المنطقة دون قتال بسبب ضعف الدولة الروسية .

٩ ـ انتفاضة الصفويين ضد العثمانيين وانهزامهم ودخول العثمانيين (تبريز) وهمدان ، ثم الصلح سنة / ١١٤٠ هـ / وموت الشاه أشرف .

١٠ ـ (طهماسب) خليفة الشاه أشرف يعلن الحرب على العثمانيين .

١١ ـ عزوف الخليفة عن قتال الصفويين بسبب مقتل الصدر الأعظم وأمير البحر ، واستمرار الحرب إلى حين عزل الخليفة سنة /١١٤٣ هـ/، ووفاة الخليفة سنة / ١١٤٩ هـ / .

١٢ ـ دخول المطبعة في عهد أحمد الثالث وتأسيس دار الطباعة في استانبول بعد موافقة المفتي([1]) .

بلغ عدد الصدور العظام في عهده أربعة عشر كانوا هملاً ما عدا اثنين منهم هما : الخامس : علي جور ليلى، والحادي عشر : علي باشا الشهيد ([2]) .

١٤ ـ محمود الأول بن مصطفى الثاني :

تولى الحكم بعد عمه المعزول ، وله من العمر خمسة وثلاثون عاماً ودام حكمه خمساً وعشرين سنة / ١١٤٣ هـ ـ ١١٦٨ هـ / .

حدث في عهده أمور أهمها :

١ـ كانت السلطة الحقيقية أول ماتولى الخلافة بيد زعيم الثورة (خليل بطرونا) الذي عزل الخليفة أحمد الثالث ، وفعل ما فعل ، ثم ثار الإنكشاريون عليه وقتلوه .

٢ ـ هدأت الأحوال واتجه الخليفة إلى قتال الصفويين فتغلب عليهم وصالحوه سنة ١١٤٢ هـ وتخلوا للعثمانيين عن تبريز وهمدان وإقليم لورستان .

٣ ـ لم يقبل والي طهماسب الصفوي (نادر شاه) عن هذه المعاهدة فخلع الشاه وولى مكانه ابنه عباساً وجعل نفسه وصياً عليه ، وانتصر على العثمانيين وحاصر بغداد ، واتفق معهم في مدينة تفليس على أن يردوا للفرس كل ما أخذوه منهم ، ثم نصب نفسه ملكاً على الفرس .

٤ ـ اتفقت الدول الأوروبية على قتال العثمانيين بعد احتلال روسيا لبولونيا ولآزوف الواقعة على البحر الأسود واحتلت (ياسي) عاصمة إقليم البغدان ، وسرعان ما اتفق الفرس والعثمانيون وأوقفوا تقدم الروس ، وانسحبت النمسا من المعارك ، وتم ذلك في معاهد بلغراد سنة /١١٥٢ هـ/ حيث تخلت النمسا عن الصرب والأفلاق وتعهد الروس بعدم بناء سفن في البحر الأسود .

٥ ـ اتفق العثمانيون مع السويد ضد الروس بجهود فرنسية سنة / ١١٥٣ هـ / .

٦ ـ انتصر النمسويون على فرنسا سنة / ١١٥٣ هـ / .

٧ ـ حكم الأفلاق والبغدان روم من استانبول فساموهم سوء المعاملة فاتجهوا إلى روسيا .

بلغ عدد الصدور العظام في عهد الخليفة محمود الأول ستة عشر صدراً ([3]) :

١٥ ـ السلطان عثمان الثالث بن مصطفى :

آل إليه الأمر وهو في الثامنة والخمسين ، وتوفي بعد ثلاث سنوات /١١٦٨ ـ ١١٧١ هـ/ كان يهتم بأمر المسلمين ويعمل على الإصلاح .

([1]) التاريخ الإسلامي (العهد العثماني) محمود شاكر ص / ١٤٥ / .
([2])معجم الأنساب زمباور ص ٢٥٥ .
([3]) معجم الأنساب زمباور ص ٢٤٦ .

وكان الصدور العظام على عهده أربعة ، حكم كل منهم شهرين ، عزل الأول والثاني وأعدِم الثالث أما الرابع فقد كان رجلاً صالحاً استمر في توليه الصدارة إلى عهد مصطفى الثالث ([1]) .

وبوفاة الخليفة عثمان الثالث بن مصطفى ينتهي عصر الضعف للدولة العثمانية ليبدأ عصر أضعف وأشد سوءاً .

ومن الملاحظ في هذا العصر الذي امتد قرنين من الزمان أن غالبية الخلفاء لم يكونوا على الكفاءة المتوخاة وإن كان بعضهم قوي الشخصية مهيباً إلا أن الانحدار كان أقوى دفعاً فما من خليفة إلا سلم خَلَفه أقل مما أخذ من سلفه ، فما تزال الدولة في انكماش والاتساع إلى تقلص ، ومما ساعد على ذلك النظام الوراثي البعيد عن مبدأ الشورى في اختيار الأصلح، وانغماس العديد منهم في الترف والنعيم ، وترك الأمر لمن لاهم له إلا اغتنام الدنيا والعبُّ من مباهجها والتكالب على اصطفائها لنفسه وإرضاء نزوات رب نعمته فإذا ما حطت مصيبة تحمَّل مغبتها فعُزل أو أطيح برأسه ، وقد لاتدوم صدارته أشهراً بله أياماً كما رأينا في الجداول الآنفة ، فإذا رزقت الأمة بصدور عظام كآل الكوبريلي ـ مثلاً ـ تنسمت الخير واستعادت هيبتها وقويت شوكتها ، لكنهم شامات في جبين آل عثمان قلَّ أن يجود الزمان بمثلهم.

ثالثها : **عصر التراجع والانحطاط** :

بدأ هذا العصر بعد الضعف الذي آلت إليه الدولة العثمانية ، وبعد النهضة التي نمت في بلاد الغرب، واتفاق الغرب على حرب العثمانيين واقتسام بلادهم ، واتسم هذا العصر بسمات منها :

١ـ التحالف النصراني السافر أحياناً والخفي أحياناً أخرى .

٢ـ ظهور بعض الخلفاء الأقوياء نسبياً ، إلا أن ضعف الدولة واجتماع أوروبة عليها لم يفد كثيراً .

٣ـ اختفاء فكرة قتل الأخوة بعد محمد الثالث ـ تقريباً ـ والاستعاضة عن ذلك بحجزهم عن الناس .

٤ـ بقاء أثر من السيطرة للعقلية العسكرية حيث يثور الجند على القائد فيقتلونه إن فشل في معركة أو يتمردون على الخليفة وصدره الأعظم فيعزلونهما أو يقتلون أحدهما .

٥ـ القضاء على الإنكشاريين في عهد السلطان محمود الثاني وحل الجيوش النظامية محلهم .

٦ـ ظهور الهزيمة النفسية أمام الأوروبيين متمثلة في استقدام مدربين منهم والافتخار بتقليدهم .

٧ ـ ظهور القوميات التي مزقت الدولة وحلت محل الرابطة الدينية .

٨ ـ ازدياد الأثر اليهودي في الدولة واستعانتهم بالنفوذ النصراني للوصول إلى إنهاء الخلافة تماماً .

٩ ـ طول مدة الخلفاء نسبياً ، إذ حكم تسعة خلفاء في أكثر من قرن ونصف من الزمان [1] . وهم كما يلي :

الرقم	الاسم	العمر حين تولي الخلافة	مدة الحكم	بدء الولاية ونهايتها	العمر الكامل	الوفاة
١	مصطفى الثالث ين محمد	٤٢	١٦سنة	١١٧١ـ١١٨٧هـ	٥٨	وفاة طبيعية
٢	عبد الحميد الأول بن أحمد	٥٠	١٦سنة	١١٨٧ـ١٢٠٣هـ	٦٦	= =
٣	سليم الثالث بم مصطفى	٢٨	١٩سنة	١٢٠٣ـ١٢٢٢هـ	٤٧	عزل ومات بعد سنة
	مصطفى الرابع بن عبد الحميد	٢٩	أشهر	١٢٢٢ـ١٢٢٣هـ	ـ	عزل

([1]) نفس المصدر ص ٢٤٦ .

[1] التاريخ الإسلامي محمد شاكر (العهد العثماني) ص / ١٤٩ ـ ١٥١ / بتصرف .

٤	محمود الثاني بن عبد الحميد	٢٤	٣٨سنة	١٢٢٣_١٢٥٥هـ	٦٢	وفاة طبيعية
٥	عبد المجيد الأول بن محمود	١٨	٢٢سنة	١٢٥٥_١٢٧٧هـ	٤٠	= =
٦	عبد العزيز بن محمود	٣٢	١٦سنة	١٢٧٧_١٢٩٣هـ	٤٨	قتل بعد العزل
	مراد الخامس بن عبد المجيد	٣٧	٣ أشهر	١٢٩٣_١٢٩٣هـ		
٧	عبد الحميد الثاني بن عبد المجيد	٣٤	٣٥سنة	١٢٩٣_١٣٢٨	٧٧	عزل ومات بعد ٩ سنوات
٨	محمد الخامس بن عبد المجيد	٦٨	٩سنوات	١٣٢٨_١٣٣٧هـ	٧٧	وفاة طبيعية
٩	محمد السادس وحيد الدين	٦٣	٣سنوات	١٣٣٧_١٣٤٠هـ		اعتزل
	عبد المجيد الثاني بن عبد العزيز	٥٧	أشهر	١٣٤٠_١٣٤١هـ	٨١	عزل ومات في فرنسا[1]

ولكثرة الأحداث التي جرت في هذا العهد وانتقصت الدولة جزءاً فجزءاً بحروب أو معاهدات متلاحقة فإنني ذاكر ـ إن شاء الله ـ أهمها والتي تفيدنا في بحثنا هذا باختصار .

أما روسيا فقد اشتد ساعدها وبدأت تخطط لابتلاع الولايات المحيطة بها بالحروب تارة والمعاهدات القسرية تارة أخرى ، حتى إنها سيطرت على معظم سواحل البحر الأسود وحاصرت العاصمة استانبول أكثر من مرة ، واحتلت القرم وضمتها إليها سنة / ١١٨٥ هـ/ وشجعت ولاة الشام ومصر على الانتقاض على العثمانيين ودعمتهم بالمال والسلاح ، واحتلت الأفلاق والبغدان وأثارت اليونان في جزيرة المورة اليونانية ودعمت النمسا فاحتلت بلاد الصرب .

أما فرنسا فكانت أحياناً تلبس لبوس الحمل الوديع وأحياناً تحرض النصارى في الدولة العثمانية وأحياناً أخرى تحتل البلاد العربية كما فعل نابليون حين احتل مصر ، وحين احتلت جيوشها المغرب العربي.

أما بريطانيا فكانت تشجع الروس أحياناً ضد العثمانيين وأحياناً تقف أمامهم خوفاً على مطامعها ، ثم احتلت مصر عام / ١٨٨٢ / للميلاد ، وفصلتها عملياً عن الدولة العثمانية ، ودعمت حكام شبه الجزيرة العربية ليثوروا عليها ، ثم اقتسمت بلاد الشام مع فرنسا عام / ١٩٢٢ / للميلاد والموافق / ١٣٤٠ هـ / .

وسارعت ايطاليا إلى احتلال ليبيا واعتبارها جزء اً منها عام /١٢٣٨ هـ ـ ١٩١٠ م، أما في تركيا بلد الخلافة فقد تأسست جمعية الاتحاد والترقي الماسونية في باريس / ١٣١٦ هـ / وهي الجناح العسكري لجمعية تركيا الفتاة ، وانضمت إليها جمعية الشبيبة العثمانية التي كانت قد تاسست في استانبول سنة / ١٢٨٢ هـ / وتوغل اليهود في هذه الجمعية حتى كان شعار الماسونية شعارها وهو (حرية ، عدالة ، مساواة) .

وحاول هرتزل زعيم المنظمة اليهودية إذ ذاك الحصول على وطن يهودي في فلسطين فطلب مساعدة روسيا التي وعدته بتهجير كثير من اليهود الموجودين فيها إلى فلسطين ، وعرض على بريطانيا إنشاء هذه الدولة لتساعدهم على الوصول إلى الهند إن تعذر ذلك عليهم وهم في مصر .

---

[1] من الملاحظ أن مدة الحكم للخلفاء شهدت استقراراً في هذا العهد على الرغم من الضعف والتقهقر ، فبالمقارنة مع خلفاء عهد الضعف نجد أن خافاء عهد التراجع والانحطاط حكم غالبيتهم مدة أطول وعاشوا مدة زمنية أكبر . لاشك أن الصراع على الحكم كان واضحاً إلا أنه بين الصدور العظام وقادة الجيش ، أما الخلفاء فقد تخلى أكثرهم عن دفة الحكم فعاشوا في مأمن من القتل ، وإن نال بعضهم نتيجة الصراع بين القوى المتنفذة ، عزل وإقصاء وربما قتل كما حدث لعبد العزيز بن محمود .

وعرض هرتزل على بعض رجالات العثمانيين ـ بعد أن اغراهم بالمال ـ أن يتوسطوا لدى السلطان عبد الحميد الثاني لمساعدته في إنشاء هذه الدولة فرفض السلطان ذلك ، وحاول هرتزل عن طريق الملك الألماني الذي زار استانبول سنة / ١٣١٥هـ ـ ١٨٩٧ م / فصمم السلطان على الرفض [١] وقال : (انصحوا الدكتور هرتزل بأن لا يتخذ خطوات جدية في هذا الموضوع ، فإني لاأستطيع أن أتخلى عن شبر واحد من أرض فلسطين .. فهي ليست ملك يميني بل ملك الأمة الإسلامية .. لقد جاهد شعبي في سبيل هذه الأرض ورواها بدمه .. فليحتفظ اليهود بملاييهم وإذا مزقت دولة الخلافة يوماً فإنهم يستطيعون آنذاك أن يأخذوا فلسطين بلا ثمن .. أما وأنا حي فإن عمل المبضع في بدني لأهون علي من أن أرى فلسطين قد بترت من دولة الخلافة ، وهذا أمر لايكون . إني لاأستطيع الموافقة على تشريح أجسادنا ونحن على قيد الحياة . *//استانبول١٩٠١ م//*[١]

ثم طلبوا إليه تأجير منطقة القدس تسعاً وتسعين سنة وعرضوا على خزينة الدولة العثمانية خمسين مليون ليرة انجليزية ولحساب السلطان خمسة ملايين ليرة فطردهم شر طردة فعملوا على خلعه ، وكان اليهودي العثماني قرَصُوْه من الأربعة الذين أبلغوه قرار الخلع وكان ذلك سنة ١٣٢٨هـ .[٢]

وفي ظلِّ جمعية الاتحاد والترقي عمل كمال أتاتورك [٣] على هدم الخلافة العثمانية مع العديد من أصحابه يؤيدهم في ذلك ويخطط لهم الدول الأوروبية وعلى رأسها بريطانيا ، هذه الدول التي احتلت بعد الحرب العالمية الأولى استانبول وفرضت الوصاية على الدولة العثمانية أولاً ثم طمس معالمها الإسلامية وإنهائها من الساحة ثانياً وكان ذلك سنة ١٣٤٢ هـ الموافق ١٩٢٤ م / وبذلك طويت آخر خلافة إسلامية حتى الآن حفظت البلاد الإسلامية ومن ضمنها البلاد العربية زهاء أربعة قرون ، ولاندعي أنها كانت خلافة راشدة ، بل كان فيها كثير من الأخطاء والتجاوزات .. ألم يقل رسول الله صلى الله عليه وسلم لحذيفة بن اليمان حين سأله عن الخير في آخر الزمان هل يكون ؟ فقال : نعم وفيه دَخَن [٢].

<u>إضاءة :</u>

حين هلك مصطفى كمال أتاتورك في رمضان ١٣٥٧هـ الموافق تشرين الثاني ١٩٣٨ م بعد أن ظل رئيساً للجمهورية التركية خمسة عشر عاماً ، كانت البلاد العربية على الشكل التالي :

سوريا ولبنان والمغرب العربي : تحت الاحتلال الفرنسي .

الخليج العربي والعراق والأردن وفلسطين ومصر : تحت الاحتلال الإنجليزي .

الجزيرة العربية واليمن : تدينان للإنجليز دون أن يحتلوا أراضيهما .

ليبيا : تحت الاحتلال الإيطالي .

جزء من الساحل المغاربي : تحت الاحتلال الإسباني .

---

[١] التاريخ الإسلامي (العهد العثماني) ص / ٢٠١ /

[١] من فاتحة كتاب : صحوة الرجل المريض ، موفق بني المرجة .

[٢] رفض السلطان مساعدة هرتزل المادية على الرغم من فراغ الخزينة العثمانية كما رفض مساعدة اليهود العثمانيين ضد الأرمن . من كتاب (والدي السلطان) لعائشة ابنة السلطان عبد الحميد ص / ٢٦ / ، وكتاب (مذكرات السلطان عبد الحميد) تقديم وترجمة الدكتور محمد حرب ص / ٢٠٣ / .

[٣] ولد مصطفى كمال في سلانيك سنة / ١٢٩٨هـ / من سفاح تسمى بأمه زبيدة، ونسب إلى علي رضا أحد موظفي الدولة في سلانيك ، درس في الكلية الحربية وتخرج منها سنة / ١٣٢٢ هـ / ، كان غير منضبط السلوك ، منصرفاً إلى الخمرة والنساء ، على كره شديد للإسلام وعلى صلة وثيقة بالإنجليز وهم الذين رفعوه مستميتاً على الزعامة ، أعلن إسقاط الخلافة العثمانية سنة / ١٣٤١ هـ ـ ١٩٢٤ م / وأصبح أول رئيس للجمهورية التركية وعاصمتها أنقرة ، جعل الأحد العطلة الرسمية للبلاد بدل الجمعة ، واتخذ الحرف اللاتيني بديلاً للحرف العربي في الكتابة فخسرت الأمة كنوزها العلمية والأدبية ، وانقطع الحاضر عن الماضي ، وانقطعت تركيا عن أخواتها البلاد الإسلامية ، وأمر بالأذان باللغة التركية ، وأعلن القومية الطورانية ، وجعل الدستور علمانياً مستمداً من الدستور السويسري ، ومنع الحجاب و.. من كتاب (العهد العثماني ص / ٢٢٨ / ، وكتاب التاريخ المعاصر ـ تركيا ـ ص / ٥٢ ـ٥٥ /للكاتب محمود شاكر .

[٢] رواه البخاري في باب الفتن ج٨ ص ٩٣ .

الباب الأول
شعر الفتوحات العثمانية { مضمونـــــاً }

الفصل الأول
شعر الفتوحات في الجبهة الأوروبية

استمرت الحروب العثمانية الأوروبية ردحاً من الزمن زهاء أربعة قرون جرت فيها حروب طاحنة تركت على جدار الزمن بصمات عثمانية عريقة عميقة كان فيها العثمانيون الفرسان المجلين والسادة الفاتحين ، ولم تكن حروبهم لتهدأ حتى تعود من جديد ، فالجهاد هدفهم ، ونشر الإسلام ديدنهم ، والمحافظة على مكتسباتهم همهم ، على جناحهم الغربي صليبيون حاقدون وثائرون ما إن يجدوا هنة حتى يثوروا ويعلنوا عصيانهم ، ولم تكن الدول الأوروبية الخائفة لتركن إلى الهدوء إلا لتثب من جديد . فالقتال كان متواصلاً والشعراء الأتراك والأدباء العثمانيون كانوا يهتزون طربا لهذه الانتصارات ، ويؤرخون لها ، وكانت أشعارهم كثيرة ، لكن هذه الفتوحات لم تكن تلقى من شعراءالعرب الأهمية اللازمة لامن قليل ولامن كثير [1] ، أقول هذا على الرغم من أن المسلمين العرب ـ كما توصلت إليه قناعتي من مطالعة الكتب الأدبية والفكرية المتعلقة بالعصر العثماني ـ يحبون الدولة العثمانية والخلفاء العثمانيين ويتمنون لها النصر ويطربون لفتوحاتها في الشرق الأوروبي ، ويحزنون لما يصيبها من خسارة وانكفاء ، لكنهم عرب ، والعربي لايمدح من ليس عربياً ولو كان خليفة أو مسلماً إلا القليل منهم الساعين إلى مكسب دنيوي مادي ، أو الذين فهموا الإسلام فهماً صحيحاً إذ لافضل لعربي على أعجمي ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى .

وقد يعود هذا الشعور حتى النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي إلى أمرين اثنين :

الأول : أنهم لم يشاركوا ابتداء في هذه الحروب ، وإن شاركوا فليست لهم الصدارة في ذلك لأن الأتراك استأثروا بهذا لأنفسهم فمنهم الصدور العظام وكبار الوزراء وشيوخ الإسلام .

الثاني : أنهم اعتادوا في حياتهم في ظل المماليك أن يكونوا الرعية ، وقنعوا بذلك ، فلما جاء العثمانيون لم يروا كبير تغيير ، إذ بقي الأعاجم سادة البلاد وأولي الأمر وأصحاب الصدارة، فارتضى أدباؤهم وشعراؤهم من القريض مدحَ بعضهم بعضاً وتقريظ بعضهم عملَ الآخرين ، وتبادل التهاني الشعرية والرسائل الأدبية والمدائح الصوفية والتأريخ لولادة أو حادثة موت ، ويشحذون قرائحهم الشعرية للمناسبات والأعياد والاستقبال والتوديع والمجاملات ..[2]

---

[1] اطلعت على عشرات الكتب التي أثبتها في آخر الكتاب (ثبت المراجع والمصادر) وكان الشعر الذي يؤرخ للحروب العثمانية وانتصاراتها هزيلاً جداً بالنسبة لموضوعات الشعر الأخرى وأغراضه .

[2] يظهر هذا واضحاً جلياً في الكتب أمثال : ـ الكواكب السائرة في أعيان المئة العاشرة .
ـ خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر .

وانطلاقاً من هذا أقول : لم تحظ الحروب العثمانية على كثرتها إلا بومضات شعرية عربية لا تتعدى العشرات الأولى .. كما أن هذه القصائد الشعرية لم تكن لتحيط بعدد مناسب من المعارك والفتوحات ، فقد تجد موقعة واحدة حازت عدة قصائد لعدة شعراء ، وبهذا ينخفض عدد المعارك التي حازت التأريخ والتمجيد إلى ما يكافئ عدد أصابع اليدين في شعر القرون الأربعة الأولى (العاشر والحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر) الهجرية ، ومثلها في شعر القرن الهجري الأخير الرابع عشر .

هناك العديد من القصائد تتحدث عن معارك جرت في عهد السلاطين لكنها لاتختص موقعة بعينها إنما تصلح لكل خليفة أو وزير أو قائد ، ووصفاً لكل معركة وانتصار ..

وقد ارتأيت ذكر هذه القصائد اعتباراً للتسلسل الزمني للفتوحات .

فُتِحت جزيرة كريت على عهد السلطان إبراهيم الأول بن أحمد الأول سنة / /١٠٥٥هـ/ ، وكريت جزيرة يونانية تقع على بحر إيجة بين اليونان وتركيا ، وكانت من قبل تتبع البندقية ، فمدحه الشاعر الأمير (منجك بن محمد الدمشقي[١]) مخلداً تلك الموقعة .

فالإيمان الذي نشأ عليه الخليفة جعله يسل سيف الحق على الكفار ويجهز السفن الضخمة التي قذفت حمماً على الجزيرة فانقلب موج البحر كرات ملتهبة حسبه الكفار جهنم فاتحة أبوابها □□□ .

ملـــك مـــن الإيمـــان جـــرَّد صارمـــاً ... بـــالحق حتـــى الكفـــرُ أصـــبح مســـلما

قـــد جهـــز الســـفن التـــي لـــو صـــادفت ... رضـــوى بأيســـــر لمحـــة لتهدمـــا

وتلهَّـــب البحـــر الخضـــمُّ مهابـــة ... منـــه فظنَّتـــْه (كريـــت) جهنمـــا

ثم ـ جرياً على عادته في المديح المبالغ فيه جعل الشيطان الذي لم يسجد لآدم عليه السلام لو تنبه إلى قوة السلطان إبراهيم في صلبه لخر ساجداً ، وهو العدل كل العدل وما قبله من الزمان كان أخرس .. ولا أدري كيف يستجيز ذم الخلفاء قبله ليصل إلى مديحه ، فإذا ابتسم صار الظلام الدامس صبحاً مشرقاً ، وإذا بطش بأعدائه قلب نهارهم ليلاً شديد الظلمة .

لـــو شـــاهد المطـــرود ســـطوة بأســـه ... فـــي صـــلب آدم للســـجود تقدمـــا□□□

العـــدل أخـــرس كـــان قبـــل زمانـــه ... أذنـــت لـــه الأيـــام أن يتكلمـــا

يـــذر الـــدجى بالبشـــر صـــبحاً مشـــرقاً ... والصـــبحَ بالإرهـــاب لـــيلاً مظلمـــا□□□

ـ ونفحة الريحانة .
ـ وسلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر .
ـ وحلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر .

(٢) الأبيات من ديوانه ص ٩ .

(٣) المعنى مسروق من قول أبي نواس :

وأخفت أهل الشرك حتى إنه ... لتخافك النطف التي لم تخلقِ

العقد الفريد ج١ ص ٤٩ ، و قول على قول ج٦ ص١١ .
لكن بيت الشاعر منجك جيد السبك كذلك .

وهذا محمد بن عمر العُرضي الحلبي [1] يمدح شيخ الإسلام مصطفى الشهير ببالي زاده [2] في فتح قلعة (ينوه) [3] على يد الصدر الأعظم محمد كوبريلي [4] ، سنة / ١٠٦٨ هـ / وقد قدم للقصيدة برسالة نثرية يقول في مقدمتها [5] :

(سبحان من جعل اندفاق أمداده لأوليائه وفيضه الإلهي غبر مشوب بانقطاع ولا امتناع ، مع أنه منظوم في سلك المسلسل غير المتناهي ، وإن كبت جياد هممهم في بعض الأحيان [6] ، تداركها لطفه بنشاط فيكون لها السبق والإحراز في حومة الميدان فلا تزال خيولها بالمراح كالسيول متدفقة ... فالإسلام وإن بدأ بالمذلة والاغتراب فسيعود عزيزاً وينقلب نحاس أربابه لدى السبك إبريزاً ... وذلك بإقبال ظل الله في الأرض الفائض من وجه البسيطة على الطول والعرض ، واسطة عقد ملوك آل عثمان ، لازالت الأمور منسقة النظام ما قام له كل يوم ديوان وإقدام حضرة الصدر الكبير القائم بأعمال الرأي والتدبير .. من هو في فلك الوزارة بمنزلة النيِّر الأعظم من بين الكواكب السيارة ، ويُمن حضرة شيخ الإسلام ودرة تاج الملك وفص الختام بكر عطاء العلم وثاني الفرقد ومن هو من بين جواهر الذات در التقاصير والزبرجد لا زالت غرة المجد شادخة في جبينه ، وقلم الفتيا راكعاً وساجداً في محراب يمينه ، عنَّ لي نظم أبيات براعتها التهنئة بهذا الفتح المبين ، وختامها تاريخه من الهجرة النبوية بالسنين : يقول في قصيدته [7]

قَبـــولٌ يـــرود ويتلـــوه نجـــحٌ وأيـــد لتســـآل قصـــدٍ تلِّـــح [1]

فأهـــلاً بنشـــر بشـــير أتـــى يضـــمخ مـــن مســـكه الـــروعُ جـــنح [2]

كـــأن الخزامـــى وشيـــحَ الربـــى متـــونٌ، وريـــح الصـــبا ذاك شـــرح [3]

فللـــه بِكـــرٌ قـــد افتضَّهـــا مهنـــدةٌ وســـنانٌ ورمـــح [4]

وعهـــدي بهـــا هامـــة للجبـــال فأضـــحت بتمهيـــدها وهـــي ســـفح [5]

---

(١) هذه الديباجة (تداخل الألوان) مستمدة على الأغلب من قول الشاعر أبي تمام في وصف دمار عمورية التي فتحها الخليفة المعتصم ، والتي يقول فيها :

حتى كأن جلابيب الدجى رغبت عن لونها ، أو كأن الشمس لم تغب
ضوء من النار والظلماء عاكفة وظلمة من دخان في ضحى شحب

(٢) محمد بن عمر العرضي / ٩٩٣ ـ ١٠٧٢ هـ / مفتي الشافعية في حلب وابن مفتيها ، مولده ووفاته فيها ، له اشتغال بالتاريخ والأدب وشعره جيد ، من كتبه : معادن الذهب في الأعيان المشرفة بهم حلب ، وعدة كتب فقهية وتاريخية . الأعلام للزركلي ج ٦ ص ٣١٧ ، وخلاصة الأثر ج ٤ ص ٨٩، ومعادن الذهب بدءاً من ص ٢١ .

(٣) مصطفى بن سليمان بالي زادة / ... ـ ١٠٦٩ هـ / فقيه حنفي من فضلاء الروم ، له (ميزان الفتاوى) في مجلدين ، وله عدة كتب أخرى ، نال مرتبة شيخ الإسلام في الدولة العثمانية وهي المرتبة المنافسة للصدر الأعظم ، الأعلام للزركلي ج ٧ ـ ص ٢٣٤ ، وخلاصة الأثر ج ٤ ـ ص ٩٣ .

(٤) (ينوه) جزيرة عند مضيق االدردنيل كانت بيد البنادقة .

(٥) محمد كوبريلي كان صدراً أعظم للسلطان محمد الرابع ، تولى الصدارة سنة ١٠٦٦ ـ إلى أن توفي سنة ١٠٧٢ هـ ، كانت صدارته خيراً على المسلمين إذ خضد شوكة الإنكشاريين وأخمد فتنة استانبول واستعاد الجزر التي احتلتها البندقية في مدخل الدردنيل ، وأخضع أمراء ترانسلفانيا (الأفلاق و البغدان) وهي الآن في رومانيا وبلغاريا .وبذلك استعادت الدولة العثمانية هيبتها في عهده . ممن كتاب : خلاصة الأثر ج ٤ ـ ص ٣٠٩ . وكتاب التاريخ العثماني ص ١٣٧ ، وكتاب معجم الأنساب ص ٢٤٤ .

(٦) هذا النثر من خلاصة الأثر ج ٤ ص ٩٣ .

(٧) ينبه الشاعر العُرضي إلى أن المعارك كرٌّ وفرٌّ ، يوم لك ويوم عليك .

(١) القصيدة في خلاصة الأثر ج ٤ ص ٩٤ .

(٢) يرود : يأتي رائداً ، قبل الله أولاً نية الجهاد عند هؤلاء فكتب لهم النجاح ، وهم يسألون الله ماحين أن ينصرهم ويتقبل منهم

(٣) النشر : الريح الطيبة ، يضمخ : يعطر ، الجنح : الثابت .

(٤) صورة جميلة ، فرائحة الخزامى وشيح الربى تصل إلى الناس حين تهب ريح الصبا فتنعشهم كما يفعل الشارحون في متون الفقه والأحاديث فيوصلون المعاني إلى الناس واضحة يستفيدون منها .

وكـــم طـــرْفِ طـــرْفٍ كبـــا دونهـــا لـــه فـــي بحـــار الميـــادين ســـبح □□□

ولكـــــن بإقبـــــال سلطاننـــــا تـــــزول الرواســـــي وينهـــــدُّ صـــــرح

مليـــــك بكلكلـــــه قـــــد أنـــــاخ فانقـــــادَ صـــــعب وانـــــزاح جمـــــح □□□

ونكَّـــــس أعـــــلامَ كفـــــر عتَـــــتْ ولمـــــا شقَّـــــها عـــــاد صلـــــح □□□

ففـــي مهـــرَق الأرض أمسَـــوا كخـــط ســـقيم لـــه صـــارم الـــدين يمحـــو □□□□

قـــــد اســـــتله يمـــــن سلطاننـــــا وتدبيـــــرُ صـــــدر توخّـــــاه نصـــــح □□□□

وإقبـــــالُ شـــــيخ لإسلامنـــــا تخطـــــى المعالي،وحاشـــــاه كَـــــدْحُ □□□□

تصـــــدر غـــــماً لأنـــــف العـــــدا ولكـــــن بـــــه قـــــرُّ طـــــرْفٌ وكشـــــحُ □□□

* * * * * *

فللـــــــه فتـــــــحٌ مبيـــــــنٌ إذاً ومـــــا هـــــو إلا مـــــن الله مـــــنح

لـــــذا أنشـــــأ الـــــحال تاريخـــــه لنصـــــر مـــــن الله حَـــــامٌ وفتـــــح

وانبرى الشاعر البهائي البعلي [6] ــ حين وردت البشائر بفتح إيوار ، وزند الدولة إذ ذاك وارٌ، وشخص تلاشيها متوارٍ، ونافذ أمرها لمعصم الامتثال سِوارٌ [7] ــ يمدح الخليفة محمداً الرابع بقصيدة يقول فيها :

بـــالفتح زاد الـــدينُ عـــزاً واعتـــلا واللـــه أعظـــم مِنَّـــةً وتفضـــلا □□□

بالنصـــــر أنجـــــز وعـــــده ســـــبحانه وأعـــز جنـــد المســـلمين أولـــي الـــوَلا □□□

هبـــوا كمـــا هـــبَّ النســـيم إذا ســـرى يفـــتض عِـــرضَ الأرض مـــنهم والفـــلا□□□

فـــي جحفـــل ســـدوا البســـيطة كثـــرة لـــم تُلـــفِ مـــثلهم النواظـــرُ جحفـــلا □□□

---

(٦) هي قلعة عظظيمة على الجبال منيعة فلما فتحها المسلمون عادت كأنها سفح وسهل ممتد يسهل الدخول إليه .

(٧) المعنى أن كثيراً من العظماء حاول فتحها فلم يفلح ، وطرف (الأولى) النظر ، وطرف (الثانية) : الكريم من الناس .

(٨) الكلكل : صدر الجمل العظيم ، وهنا : قوة السلطان ، والجمح : العتو والعناد .

(٩) القصيدة من البحر المتقارب (فعولن) لكن الشطر الثاني مكسور .

(١٠) المهرق بضم الميم : الصحيفة البيضاء يكتب فيها ، والمقصود أن سيوف المسلمين محت الكفار من الأرض كما يمحى الخط الضعيف من الصفحة البيضاء

(١١) توخاه : اختاره ، النصح : بفتح النون : الخالص من الشوائب والغش الذي يضمر لصاحبه الود وحسن المشورة . وهذه الصفات الرائعة الأصيلة في الوزير جعلت السلطان يختاره صدراً أعظم .

(١٢) الكدح هنا : العمل بما يشين ويفسد . فهو يمدح شيخ الإسلام بالعمل الصالح الذي ينأى به عن الإفساد والعمل بما يسيء .

(١) الكشح : مابين الخاصرة والضلوع . والمقصود هنا : النفس ، فقد ارتاحت إليه العيون والنفوس المؤمنة ، وكان همّاً وغمّاً على الأعداء .

(١) البهائي البعلي : عبد اللطيف بن بهاء الدين بن عبد الباقي / .. ــ ١٠٨٢ هـ / من بعلبك ، قرأ على جده لأمه ، وقدم دمشق وهو في السادسة والعشرين ، ولزم بعض علمائها وسافر إلى القسطنطينية واشتغل بالقضاء في طرابلس الشام ثم بلغراد ثم فلبة ، له مؤلفات تدل على طول باعه في العلوم ، منها : شرحه على فصوص ابن عربي ونظم (متن المنار) في الأصول ثم شرحه شرحاً لطيفاً وعنونه باسم الصدر الأعظم أحمد الكوبريلي . كتاب خلاصة الأثر ج ٣ ص ١٤ ، ونفحة الريحانة ج ٢ ص ١٠٤ .

(٢) نفحة الريحانة ج٢ ص٣٩٥، ٣٩٦ مقدمة القصيدة والقصيدة .

(٣) في رواية : واعتلى ، وقد رخَّم كلمة اعتلاء فحذف الهمزة .

(٤) الأصل : أولى الولاء ، وقد رخم فحذف الهمزة .

(٥) يفتض : بمعنى يضيق ، والفلا : ترخيم الفلاة وهي الأرض القفر الواسعة .

أربـــوا علـــى التعـــداد حصـــراً واعتلَـــوا ... ومـــن حيـــث لاأدري أواخـــرهم ولا □□□

فكـــأن وجـــه الأرض حلقـــة خاتـــم ... بهـــمُ ومـــاء الأرض قطـــرٌ أسبـــلا □□□

ثبتـــوا ثبـــات الراســـيات تصبـــراً ... مـــن يلتقـــيهِم يلـــقَ منهـــم أجبـــلا □□□

شـــاكي الســـلاح بكـــل أبـــيضَ مخـــذمٍ ... مـــا شِـــيمَ إلا قـــد أصـــاب المقتـــلا □□□□

حتـــى إذا حمـــي الـــوطيس لـــدى الـــوغى ... لـــم تلـــقَ إلا باســـلاً مستبســـلا □□

أنِفَـــتْ ســـيوفهُمُ الغمـــودَ فـــلا تـــرى ... إلا صـــقيلاً فـــي نجيـــع أَنهـــلا □□□

ســـالت بـــه البطحـــاء حتـــى لاتـــرى ... طِرفـــاً بغيـــر دم الرقـــاب محجـــلا □□□

مـــن كـــل عِلـــج ذاهـــل عـــن نفســـه ... إذ لا يـــرى منـــأى ولا متحـــولا

مُلِـــئ اللعـــين مخافـــة لمـــا رأى ... فـــي الحـــرب شـــدتهم وزاد تزلـــزلا

فغـــدا ينـــادي حســـرة وتأســـفاً ... ياويلتـــاه ؛العمـــرُ ضـــاع ســـبهللا □□□

مـــن بعـــد مـــا قـــد شـــب نيـــرانَ الـــوغى ... بغـــروره تعســـاً لـــه مـــا أشـــعلا □□□

عـــدَّ الهزيمـــة والفـــرارَ غنيمـــة ... أنِـــفَ الإقامـــة خـــوف أن يستأصـــلا

أوَ مـــا يحـــقُّ لـــه الفـــرار وقـــد رأى ... مـــا لا يطيـــق مـــن الغـــزاة تحمـــلا ؟! □□□

جلـــب الغـــزاة بخـــيلهم وبرجلهـــم ... جلبـــاً علـــيهم مـــا أشـــدَّ وأقتـــلا □□□

فعلـــوجهم جـــزر الظَّبـــا ونســـاؤهم ... أســـرى تـــئنُّ تـــذللاً وتهـــوُّلا □□□

تبكـــي علـــيهن البطـــارق حســـرة ... كـــالوُرْق فـــي جـــنح الـــدجى وتململـــا □□□

وبقيـــة الأســـياف مـــنهم شُذِّبـــوا ... أيـــدي ســـبا تَخَـــذوا الهزيمـــة معقـــلا □□□□

---

(٦) الجحفل : الجيش الضخم الكبير .

(٧) من حيث لاأدري أواخرهم ولا أوائلهم . وأربوا : زادوا .

(٨) أسبل : أرخى ونزل ، وأسبلت السماء : أمطرت .

(٩) لم يجزم فعل الشرط (يلتقيهم) لضرورة شعرية ، والصواب من يلتقهم .

(١٠) يجوز أن تكون : شاكي السلاح من شوك أو شكو بمعنى تام السلاح كامله وقويه ، السيف المخذم : القاطع ، شام الشيء : نظر إليه وترقبه .

(١) حمي الوطيس : كناية عن اشتداد المعركة ، والوطيس : حفيرة يخبز فيها ويشوى .

(٢) النجيع : دم الجوف المسفوك . أنهل : سُـقِيَ .

(٣) البطحاء : الأرض المشرفة ، الطِرْف : حد الأرض ، محجل : مخضب بالدماء .

(٤) السبهلل : ما لا قيمة له ، ضاع عمره سبهللاً : أي فيما لايفيد .

(٥) يسخر الشاعر في هذا البيت وما بعده من قادة الأعداء الذين أشعلوا نار الحرب ، فلما اكتووا بنارها آثروا الهروب والسلامة .

(٦) أسلوب استفهام غرضه البلاغي السخرية من الأعداء الفارِّين .

(٧) جلب : اجتمع ، بخيلهم : بفرسانهم ، ورجلهم : ومشاتهم ، وأسلوب أفعل التفضيل (مأشد وأقتلا) يفيد الأثر النفسي السيِّء على العدو حين هجوم جيش المسلمين .

(٨) العلج : فارس الأعداء ، الجزر : الذبح ، الظبا : حد السيف ، والمقصود : إبادة فرسان الأعداء .

(٩) الوُرْق : جمع ورقاء وهي الحمامة ، والتململ : التقلب على فراش الألم والمرض والغم ، والبطارق : رؤساء الدين عند النصارى .

(١٠) المقصود ببقية الأسياف ك جنود العدو ، شذبوا : تفرقوا ، أيدي سبا : تفرقوا مشتتين كما تفرق أهل سبأ في اليمن حين جاءهم سيل العرم ، العقل : المقصود به أن هروبهم حفظهم من الموت أو الأسر .

مـــا ضـــرهم لـــو ســـالموا مـــن قبـــلُ أو ... أدوا كمـــــا شُـــرِعَ الخـــــراجَ تبـــــذَّلا

مـــا كـــان قيصـــر أو هرقـــل وتبـــعَّ ... أو ســـــيف ذي يـــــزن وكســـــرى أولا

وهلـــــمَّ جـــــرًّا مثـــل أدنـــى خـــادم ... لخليفـــة الله المعظـــم ذي العـــلا □□□□

ملـــك عـــلا فـــي الأرض أعلـــى رتبـــة ... أنفَـــت تكـــون لهـــا الثريـــا منـــزلا □□□

تعنـــو ملـــوك الأرض قاطبـــة لـــه ... أبـــــداً وتســـــعى خيفـــــة وتذلـــــلا

لـــم يـــألُ جهـــداً فـــي الجهـــاد ولـــم يـــزل ... يســـعى بإرســـال الجيـــوش مكمـــلا

فـــي نصـــرة الـــدين المبـــين مجاهـــداً ... بـــــراً وبحـــــراً للعســـــاكر مرســـــلا

عـــن حومـــة الإســـلام ذبَّ عداتـــه ... وأبـــاد عبَّـــاد الصـــليب وزيَّـــلا□□□

لازال تأتيـــــه البشـــــائر دائمـــــاً ... أبـــداً ، وتخدمـــه المفـــاخر والعـــلا

بســـميِّه خيـــر الأنـــام محمـــدٍ ... والآل والصـــحب الكـــرام ذوي الـــوَلا

مـــا لاح نجـــم فـــي الســـماء لنـــاظر ... وأضـــاء بـــدر فـــي الـــدجى وتهلـــلا

ونظم الشاعر ابن النقيب الحسيني □□□ قصيدته السياسية الوحيدة ، وكانت في مدح الصدر الأعظم أحمد الكوبريلي باشا فاتح **جزيرة كريت** □□□ والصدر الأعظم الذي أعاد هيبة الدولة العثمانية في عهده الميمون الذي دام خمس عشرة سنة . لقد تمكن هذا القائد العثماني من فتح عاصمتها (قندية) بعد حصار دام سنتين استسلم بعدها قائد حاميتها (موروزفين) وكانت هذه الجزيرة تابعة لجمهورية البندقية عام / ١٠٨٠ هـ / ، وقد خلد الشاعر هذا الحدث الكبير في القصيدة التالية □□□ :

مـــا آل برمـــك فـــي ذرا بغـــداد ... يـــوم الفخـــار ولا بنـــو عبـــاد

يومـــاً بـــأوقع فـــي النفـــوس مفاخـــراً ... ممـــا لكـــم مـــن ســـؤدُد و ســـداد

حليتـــمُ جِـــيْدَ الزمـــان بدولـــة ... حلـــت محـــل الـــروح فـــي الأجســـاد

---

(١١) يريد الشاعر بهذا البيت وما قبله أن كل العظماء قبل الخليفة أدنى مرتبة منه ولا يصلحون أن يكونوا خداماً له .

(١) في النص أنفت تكون له ، وفي نسخة أخرى : انفت تكون لها ، واخترت الأخيرة لأن المقصود : المنزلة .

(٢) زيل : فرق ، ذبَّ : دفع .

(٣) عبد الرحمن بن كمال الدين محمد الحسيني الملقب بابن النقيب / ١٠٤٨ ـ ١٠٨١ هـ / مات ولم يتجاوز عمره الثالثة والثلاثين ـ عمر شباب الجنة ـ ينسب إلى سيدنا علي بن أبي طالب ، ولقب بابن النقيب لأن والده كان نقيب الأشراف في بلاد الشام ، تخرج بأبيه وكان مفاخراً به واستكمل ثقافته وهو لا يتجاوز العشرين من عمره ، وتعلم التركية والفارسية ، وقد رزق بولد وحيد أسماه سعدي . من كتاب خلاصة الأثر ج ٢ ص ٣٩٠ ، ونفحة الريحانة ج ٢ ص ٣٤ ـ ٦٦ .

(٤) الابن الأعظم للصدر الأعظم (محمد الكوبريلي الذي استلم الصدارة من بعده للخليفة محمد الرابع فسار على نهج والده ورفض الصلح مع النمسا ، وهاجمها وفتح عدة مدن فيها ، وفتح أعظم قلاعها (نوهزل) شرقي فيينا ، فأرعب أوروبا ثم دخل (مورافيا) وهي في بلاد التشيك الآن ، واحتل (سيليزيا) وهي اليوم في بولونيا ، دامت صدارته خمس عشرة سنة / ١٠٧٢ ـ ١٠٨٧ هـ / ، وهو الذي أكمل فتح (كريت) ، وكان معه أخوه الشاب مصطفى (وستأتي ترجمته) . التاريخ الإسلامي العثماني ص ١٣٨ ـ ١٣٩ ، و معجم الأنساب ص ٢٤٤ .

(١) تاريخ الأدب العربي (العصر العثماني) ص ٢٦٢ .

جـلَّ المهـيمن كـم أتـاح لـذا الـورى ... منـها جميـلَ عـوارف وأيـاد

إيـهٍ بعيشـك يـا زمـان فـلا تنـي ... أبـداً بنشـر محاسـن الأمجـاد

فتحـوا بقنديـةٍ معاقـلَ أُرْتِـجت ... قِدْمـاً علـى الأمـراء والأجنـاد

وافـى لهـا الصـدرُ الرفيـع جنابـه ... علـمُ الغـزاة ومكمـد الحسَّـاد

فقرن الشاعر أسرة آل كوبريلي في القسطنطينية بآل برمك في بغداد ، وببني عباد في إشبيلية ، فلقد كانت هذه الأسرة التي خدمت العثمانيين حلية رائعة في جيد الزمان يفخر بها ، فأكرم الله تعالى الناس بأن كانت هذه الأسرة الكريمة مالكة زمامهم وقائدتهم إلى العز والمجد . ثم تحدث بعد ذلك عن فتح (قندية) الذي استعصى على القادة فيما سبق ثم أُعْطيَ لآل الكوبريلي.

كما مدحه في هذه المناسبة الشاعر مصطفى بن عثمان البابي الحلبي قاضي المدينة المنورة □□□

لـك الله مـن نـدب إذا عـمَّ صـمَّما ... وطـلاعِ أنجـاد إذا أمَّ يمَّمـا

إذا عرضـت فـي جانـب الملـك زَيْغـةٌ ... أراهـا قـذى الأجفـان أو تتقومـا

وقـام بأعبـاء الـوزارة ناصحـاً ... ووطَّـأ فاستقصـى وشـاد فأحكمـا

مـن النفـر الغـرِّ الألـى تركـت لهـم ... عـزائمُهم فـي غـرة الـدهر مبسـما

فالوزير الأعظم يتصف بصفات قيادية عليا ، فإن ندبه الخليفة إلى أمر أداه كاملاً ، وإذا بدأ بشيء أتمه ، وسرعان ما يذيق المتمردين كأس المر ، إلى أن يعودوا إلى الطاعة ، ويؤوبوا إلى رشدهم ، أمين في عمله ناصح لخليفته وأمته يتابع الأمور ويستقصيها ، ويُحْكم عمله ، فهو إذن من الرجال العظام الذين يفتخر الزمان بهم . ثم يقول :

ليهنـك فتـح بشَّـرته سـعوده ... بإقبـال عـزٍّ يمـلأ الأرض والسـما

رأيـت بـه الإسـلامَ يلتـام شـعبه ... وقـد كرَبـت أوطانـه أن تهدَّمـا

فعلـتَ بجـيش الكفـر مـا أنـت فاعـل ... وجرَّعتـه كأسـاً مـن الـذل علقمـا

فقد نهض الممدوح بشعبه بعد أن كاد يكبو به الزمان ، وجرَّع أعداءه مرارة الهزيمة وذلَّ الخسارة .

فـأخرت حتـى لـم يجـد متأخـراً ... وأقـدمتَ حتـى لـم يجـد متقدَّمـا

ومـا اختـار مـوجَ البحـر إلا لأنـه ... رأى موجـه مـن مـوج سـيفك أسلمـا

فطوَّقْتـَها طـوق الحمامـة نعمـة ... وإنـا لنرجـو فوقـها لـك أنعمـا

إلـى أن تعـود الأرض بالأمـن كعبـة ... حرامـاً ، وكـل الـدهر شـهراً محرَّمـا□□□

---

(٣) خلاصة الأثر ج١ ص ٣٥٥ ، والعقود الدرية : ديوان مصطفى البابي الحلبي ص ٣٩ .

فممدوحه في فتحه (قندية) وغيرها ترك للعدو مجال الاستسلام مفتوحاً فلما أبوا وتمردوا أقدم إقدام المحيط بعدده ، فلم يجد العدوُّ لنفسه منفذاً إلا أن يرمي بنفسه في البحر لأنه رأى موج البحر أرحم من سيف الممدوح ، وكان الممدوح حصناً منيعاً للأمة الإسلامية والدولة العثمانية ، فدعا له الشاعر بدوام العز والسؤدد حتى تستعيد الدولة كامل هيبتها وتتخذ مكانها تحت الشمس مهيبة معززة ، وحتى يعيش الناس في أمان وسلام .

ولم يفت الشاعر عبد الباقي بن أحمد المعروف بابن السمان الدمشقي [١] أن يدلي بدلوه في سقاء المدح ، فانطلق إلى (كريت) يمدح الوزير الفاضل ويهنئه بفتحها ، ومما قاله في ذلك ـ بعد أن فخر بنفسه على عادة المتنبي [٢] :

إذا جاء نقَّاد الرجال من الوغى ... تميَّز عن أهل الكمال الأراذلُ

عنَيْتُ الوزير ابن الوزير الذي به ... تذلُّ وتعنو للشعوب القبائل

جوادٌ إذا استوهبته السيف في الوغى ... وأنت له خصم فإنك نائل ٣

إليه مصير الأمجديْن وإنَّما ... تصب إلى البحر المحيط الجداول ٤

ويهتزُّ قلب الأرض خوفاً إذا مشى ... فتحسب أن الرعب فيه زلازل

له نِعَمٌ تئفْني المديح وهمَّةٌ ... لها كلُّ قدرٍ شامخٍ متضائل ٥

يُيَمِّمُه الجبارُ والكِبْر بُرده ... فتلقاه في أعتابه وهو راجل

أتى مشركي قصر وكانوا جَراءةً ... يظنُّون أن الحصن للقوم حائل ٦

وسار بجيش آصفيٍّ عَرَمْرَمٍ ... هو البدر فيهم ، والنجوم الجحافل٧

فما وجدوا إلا الأمان وسيلة ... إلى عفو من تخشى علاه الوسائل

ولا ملجأ من سيفه غير سيفه ... وكل نصير غيره فهو خاذل

فجاد عليهم بالنفوس تفضلاً ... وعفواً ولم يُخطِ العطا منه سائل ١

---

[١] / ١٠٥٥ ـ ١٠٨٨ / مات في شرخ الشباب ، ولد في دمشق وتعلَّم بها وسافر إلى القسطنطينية وصار نديماً للسلطان محمد الرابع ، كان مفرط الذكاء يسرد ألف بيت من شعر العرب من غير أن يتلعثم ، له تصانيف كثيرة على قصر عمره ، كان صديقاً للمحبي . الأعلام ج ٣ ـ ص ٢٧١ ، وخلاصة الأثر ج ٢ ـ ص ٢٧٠ .

[٢] نفحة الريحانة ج١ ص ٢٤٥ .

[٣] الممدوح كريم حتى إنه ليتنازل عن سيفه في المعركة لخصمه إن طلبه منه ، وقد أخذ هذا المعنى من قول المتنبي :

كريم إذا استوهبته ما أنت راكب ... وقد لفحت حرب فإنك نائل

ويشبهه قول بشار بن برد يفخر بنفسه :

لو كان لي سيف غداة الوغى ... طبت به نفساً لأعدائي

[٤] جمع الممدوح الفضائل كلها ، وإليه منتهى أمجاد أسلافه . وهذا المعنى أيضاً مأخوذ من قول المتنبي

أرى كلَّ ذي ملك إليك مصيره ... كأنك بحر والملوك جداول

[٥] يستجدي الممدوح بطريقة لبقة حيث يجعل عطاياه وافرة تغطي على مدائح الشعراء ، والعكس هو الصحيح في مفهوم العرب ، فلقد قال عمر بن الخطاب لبني الهرم بن سنان : لقد مدح زهير أباكم فأشاد ، قالوا : وأبونا أكثر له العطاء ، قال عمر : وأين عطاياه من مديح زهير ؟ لقد ذهب المال وبقي ذكر أبيكم حياً .

[٦] قصر : حصن عظيم قرب قندية كان اليونان يتحصنون به فما أغنى عنهم .

[٧] آصف بن برخيا ، كان مستشار النبي سليمان ممن يعرفون السر الأعظم .

وعـــــاد بتأييـــــدٍ وعـــــزٍّ ودولـــــةٍ لهـــا فـــوق فـرْق الفرقـدين منـازل ٢

يمـــوج بـــه البحـــر الخضـــمُّ تفاخـــراً وتحســـد أعـــلامَ الجـــواري الرواحـــلُ

أفـــصَّ ختـــامِ الملـــك والخـــاتمَ الـــذي أتـــانا بمـــا لـــم تســـتطعه الأوائـــل ٣

فلـــو كـــان بـــدراً لـــم يلـــحْ قـــطُّ كوكـــبٌ ولـــو كـــان بحـــراً لـــم يحـــدْه ســـاحل

إليـــك عقـــوداً يكســـف الشـــمسَ لونُـــها وتخجـــل بـــدر الأفـــق ، والبـــدر كامـــل ٤

أتتـــك تجـــرُّ الذيـــل تيـــهاً ورفعـــةً بأنـــك ممـــدوح وأنـــيَ قائـــل

وهاتيـــك أبيـــات لهـــا فتفطـــرت وأنـــت لهـــا بالبـــر والبحـــر واصـــل ٥

ومثـــلك مـــن لا يظهـــر المـــدحُ قـــدرَهُ ولكـــنَّ مـــن لا يشـــكر الفضـــل جاهـــل

ألـــم تـــر أن الـــروض يُـــثْني علـــى الحيـــا بنشـــر إذا مـــا باكـــرته الحوامـــل ٦

ســـأوليك مـــدحاً ينقضـــي الدهـــر دونـــه تســـير بـــه ركباننـــا والقوافـــل

وأصـــدح بالحمـــد الـــذي أنـــت أهلـــه كمـــا صـــدحت فـــوق الغصـــون البلابـــل

ألا كـــلُّ مجـــد غيـــر مجـــدك عاطـــلٌ وكـــلَّ مديـــحٍ لـــم يكـــن فيـــك عاطـــل ٧

وهاهو ذا عبد الباقي بن محمد الشهير بعارف الرومي[٨] يمدح الوزير مصطفى الكوبريلي[٩] ــ حين شارك أخاه أحمد الفاضل في فتح جزيرة كريت ــ ويستجديه نائله ، يقول في قصيدته [١٠]:

دراكُ المعـــــالي بالمهنـــــدةِ البُـــتـــــرْ ونيـــل الأمـــاني بالمثقـــفة الســـمر

ومـــن يهتصـــر لـــدن القنـــا باعتقالهـــا جنـى يانعاً من دوحة النجح والنصر ١١

---

١ لم يخط : لم يخطئ ، والمعنى : لقد نال كل سائل عطاياه .. إن كان أعداؤك قد نالوا برك أفلا أحظى منك بالخير العميم ؟..

٢ فرق : رأس ، عاد الممدوح يطال عنان السماء فخراً .

٣ الفصُّ : ما يركب في الخاتم من الحجارة الكريمة ، فالممدوح ياقوتة الخلافة ، والشطر الثاني يذكرنا بقول الشاعر أبي العلاء المعري : وإني وإن كنت الأخير زمانه لآت بما لم تستطعه الأوائل

٤ يفخر الشاعر بشعره ، فهو عقود مدح في عنق الممدوح يطاول الشمس ضياء والقمر نوراً ، جاء تياهاً أن صاغه صاحبه في مدح الوزير الفاضل .

٥ هذا المعنى حسن لكنه مأخوذ من قول محمد العرضي:
هـاب القريضُ مديحَـه فانشقَّ أنصافاً سطورُه .

٦ صورة بديعة جداً ، فعطاء الممدوح فتَّق أريحية الشاعر فصاغ فيه مدحاً رائعاً كما ينزل السحاب على الروض فينشر رائحته العطرة .

٧ كرر كلمة عاطل .. ولو جعل كلمة (زائل) أو ما شاكلها في نهاية الشطر الأول كان أجدر، ولكنه أراد الجناس الكامل .

٨ الشاعر عارف الرومي شاعر جيد الشعر ، مدحه المحبي صاحب خلاصة الأثر ، واجتمع به في القسطنطينية وفي دمشق ، ثم رحل معه إلى القاهرة . لم يعثر على تاريخ مولده ووفاته . من نفحة الريحانة ج ٣ ، ص ١٧ .

٩ مصطفى الكوبريلي : الابن الثاني للصدر الأعظم محمد الكوبريلي ، ولي الصدارة مدة سنتين / ١١٠١ ــ ١١٠٢ هـ / وقاد الجيوش وأحرز الانتصارات فكان مثل أبيه وأخيه ، ووزر للخليفتين سليمان الثاني وأحمد الثاني ، وولي للخليفة إبراهيم الأول ، استشهد في معركة (سلنكمن) ، التاريخ الإسلامي (العهد العثماني) ص ١٤١، ومعجم الأنساب ص ٢٤٤ .

١٠ من كتاب نفحة الريحانة ج ٣ ، ص / ٢٣ـ٢٥ / .

١١ اللدن : اللين ، اعتقالها : مسلها واحتضانها .

ولـــو لـــم يكـــن بالهـــالع النـــذل سُـــبّةٌ كفـى فيـه خُسـراً سـوءُ منقلـب الكـرِّ

ومـــن يعتنـــق هـــيْف القنـــا يَســـلُ معرضـــاً عـــن الخَفِـرات البـيض ناحلـة الخصـر ١

ومـــن لـــم يخـــض لـــجَّ المعـــارك لـــم يكـــد يفـــوز بعقـــد النحـــر مـــن لؤلـــؤٍ نثـــر

لقد أكد الشاعر أن المجد يناله صاحبه بالجهاد والقتال فإن عشق الرماح والطعن بها أعرض عن حب النساء واحتضانهن لأنه عشق النصر والسؤدد ، والجبان يكفيه عاراً أنه باء بالخزي والخسارة ، أما البطل المقدام الذي يلج المعارك ويخوض غمارها فقد فاز بالذكر الحسن وحاز عقود المدح والثناء .

ثم ينعطف الشاعر إلى مدح الوزير (مصطفى) قائلاً :

فهـــاهو ذا الصـــدر الكـــريم الـــذي غـــدا عـــديم المُـــداني غيـــر مشـــترك النجـــر ٢

ســـميُّ النبـــي المصـــطفى الناشـــرَ اللهـــى غزيـرَ النـدى شـمسَ العـلا الواسـعَ البـرِّ٣

معِـــزُّ أســـاس الـــدين محيـــي رســـومه مـــذلُّ رقـــاب المعتـــدين ذوي الكفـــر

وناظـــم شـــمل الديـــن للمـــال ناشـــر يفـوق الـورى فـي ذلـك الـنظم والنثـر ٤

فالممدوح كريم النفس والأصل ، لايدانيه أحد في ذلك ، وحسبه أنه يحمل اسم النبي المصطفى صلى الله عليه وسلم ، وهو حامي حصون الدين ، باذل العطايا وقاهر الكفرة المعتدين . ثم يقول:

تطـــاول للأحـــرار حتـــى اســـترقهم بفـك عُنـاة مـنهمُ عـن يـد الأسـر ٥

وصـــار لـــه خـــوض الحـــروب ســـجية ولـم يـكُ يسـطو فـي المعـارك بـالبتر ٦

حـــريٌّ للـــورى أن يفرشـــوا خـــدودهم يعدونـــه زهـــواً مـــن الشـــيم الغـــرِّ ٧

بغـــزوك آضَ الشـــرع مســـتوثق العـــرى وأصـبح حبـل الـدين مستحصـد الشـزر٨

ومِـــن عضـــبِك البتـــار مـــا بـــرح العـــدا إذا أومـض البـرق الملـيح علـى ذكـر ٩

تـــركتهم تحـــت الســـنابك فـــي الـــوغى لقـىً بعـدما كـانوا اعتلـوا صـهوة الكبـر١

---

١ هيف : جمع أهيف ، ويقال غلام أهيف : دقَّ خصره وضمر بطنه .

٢ النجر : الأصل ، وفلان كريم النجر والنجار .

٣ اللهى : جمع مفرده : اللُّهوة بضم اللام ، وهي المنحة الكثيرة والعطية الجزلة .

٤ في الأصل : للمال ناشر ، ولعلَّ المحقق قد أخطأ ، وأظنه قال : للمال ناثر بالثاء ، وفي الشطر الثاني ما يقوي ظني ، وذلك في قوله (النظم والنثر) .

٥ عناة : جمع عانٍ وهو الأسير الموثوق بالحديد .

٦ حين قال : إن الحروب سجية ، ادعى أنه لايحارب بالسيف .. فبم يحارب إذن ؟!..

٧ إذا أحب إنسان آخر فرش له قلبه فضلاً عن خده ، أما أن يطلب الشاعر من الناس أن يفرشوا خدودهم للممدوح فهذا تعبير عن إفلاس الشاعر ، حيث لا يجد ما يقوله .

٨ مستحصد الشزر : قوي الفتل ، وآض : بمعنى عاد وصار .

٩ العضب : السيف ، ولم اجد في المعجم كلمة (ذُكر) مضمومة الذال ، بل هي ذِكر :

ومـــن يـــك يـــأوي مـــن جنابـــك ملجـــأً جـــلا أوجـــة الآمـــال مبتســـم البشـــر

يقول إن من فضائل الممدوح أن يأسر الأحرار برقة طبعه وخدمته لهم ، واستخلاص المأسور منهم ، وصار القتال طبعاً فيه فقد حمى بيضة الدين وقواه وأصبح الأعداء خائفين منه بعد أن تمردوا وطغَوا .

ومن ثمَّ يأتي طلب النوال والاستجداء الذي يسفُّ بصاحبه فيزيله من مقامه ويصغره في عين الممدوح ــ من وجهة نظري ــ ويقلل من شأن مدائحه .

ولما استرد الصدر الأعظم مصطفى الكوبريلي بلغراد سنة / ١١٠١ هـ / مدحه [١] الشاعر علي الكيلاني بن يحيى شيخ السجادة القادرية [٢] بأسلوب جزل رصين يبدأ فيه بذكر هناء العيش فالدهر طيب والحياة رائعة والزمان جديد كأنه عصر الخلفاء الراشدين ، فيه العدل والإنصاف والأمن على الدين والعرض والمال ، بعد الإرجاف والخوف والخطوب [٣] :

تـــنفس الـــدهر والعـــيش الكـــدور صـــفا والوقـــت طـــاب فأســـدى للنفـــوس صـــفا ٤

وأصـــبح الـــدهر منـــه الثغـــر مبتســـماً يجلـــي نضـــير عـــروس زانهـــا صـــلفا

أضحـــى الزمـــان جديـــداً مثـــل عادتـــه فـــي أعصـــر الراشـــدين الســـادة الخلفـــا

قســـط وعـــدل وإنصـــاف وأمـــن علـــى دم وديـــن ومـــال لات حيـــن جفـــا

مـــن بعـــد هـــول وإرهـــاب وبـــؤس أســـى والخطـــب عـــمَّ عـــوام النـــاس والشـــرفا ٥

ثم يصف ما فعله المجريون والنمسويون في بلغراد :

وصـــال صـــائل أهـــل الشـــرك مشـــتملاً بلأمَـــةِ البغـــي والعـــدوان ملتحفـــا

غـــرورهم غـــرَّهم ، والغـــدر أوغلهـــم فجـــاوز الحـــد جـــيش الخـــزي قـــد رجفـــا

نفوســـهم حـــدثتهم بالمحـــال لمـــا ظنـــوا بقـــاء ظـــلام الكـــفر منعكفـــا

وأن مـــا اختلســـوا بالغـــدر مـــن نشـــب يبقـــى لهـــم خـــولاً ! هيهـــات بـــل أســـفا

ثم جاء المسلمون الصادقون بقيادة الصدر الأعظم مصطفى ــ ومدحه بالعلم وحماية الدين ــ واندفعوا نحو العدو اندفاع السحاب ، ووصف ثيابهم وشجاعتهم في البر والبحر :

ألقـــى مـــن الرعـــب فـــي قلـــب العِـــدا فغـــدا أنكـــى مـــن العســـكر الجـــرار مرتجفـــا

---

[١] سنابك الخيل : حوافرها ، مفردها : سُنبك : طرف الحافر .

[١] الشاعر علي الكيلاني/ ١٠٤٠ ــ ١١١٣ هـ/ القادري الحموي ، له ديوان محفوظ في المكتبة الظاهرية ، الأعلام ج ٥ ، ص ٣٢ وسلك الدرر ج ٣ ، ص / ٢٤٧ / .

[٣] القصيدة في سلك الدرر ج ٣ ، ص / ٢٥٢ـ٢٥٣ / .

[٤] صفا الأولى : فعل ماض ، وصفا الثانية : اسم (الصفاء) .

[٥] ضم (أمن) بواحدة ، وجعل (عوام) بميم واحدة ليستقيم الوزن .

ردَّ النصـــارى علـــى الأعقـــاب ناكصـــة ومـــن توقـــف منـــهم هامـــه نقفـــا

وحكَّـــم البـــيض فـــي أجســـامهم فصـــلت حكـــم القضـــا فأبـــانوا الـــرأس والكتفـــا ١

حتـــى إذا أثخـــن الطاغيـــن جملتـــهم شـــدَّ الوثـــاق علـــى البـــاقين وانعطفـــا ٢

يقفـــو لآثـــار مـــن فـــروا فيـــدركهم قتلـــى وأســـرى إلـــى أن عمـــرهم كشـــفا ٣

وفي فتح (مورة) حين استعادها العثمانيون على عهد السلطان محمود الأول [٤] يمدح الشاعر أحمد البقاعي[٥] البقاعي[٥] الصدر الأعظم علي باشا المعروف بابن الحكيم [٦] ويبدأ قصيدته بحكمة جهادية عالية :

ماالمجـــد إلا بحـــد الســـيف والأســـل والعـــيش إلا بعـــز الخيـــل والأســـل

إن المعـــالي فـــي هـــذين مـــن قـــدم ولـــيس يـــدركها مـــن كـــان فـــي كســـل ٧

أما الصدر الأعظم فلا يشغل باله سفاسف الأمور ، بل همه استئصال الأعداء :

لا يشـــغل الفكـــر إلا فـــي اقتنـــاص عـــدا مـــابين مؤتســـر منـــه ومنـــجدل

كأنـــه والعـــدا فـــي كـــل معتـــرك ســـيف يقـــدُّ بهـــم كـــالأعين النُجُـــل ٨

ثم يذكر التجاء المسلمين من أهل (مورة) إليه فيعيدها إلى حوزة السلطان العلية :

لازلـــت تنصـــر مـــن وافـــاك ملتجيـــاً مـــن كـــل هـــول يـــذيب القلـــب مـــن وجـــل

حتـــى أقمـــت بأبطـــال الحـــروب علـــى أكتـــاف (مـــورة) فانقـــادت علـــى عجـــل

وكان السلطان محمود يباركه ويؤيده ، فانتبه الشاعر إلى أن الله قد نصر السلطان ـ وسماه أحمد ـ بالصدر الأعظم علي كما نصر رسول الله صلى الله عليه وسلم بابن عمه علي رضي الله عنه ثم أرخ في البيت الأخير هذا الانتصار / ١١٤٨ هـ / .

وكـــان طـــائرك الميمـــون مـــن ملـــك تـــروى مفـــاخره مـــن أهلـــه الأُوَلِ

فـــي كـــل حـــرب دهـــى الإســـلام مـــن نُـــوَبٍ قـــد أيَّـــد الله فيهـــا أحمـــداً بعلـــي ١

---

١ أبانوا : قطعوا وأزالوا ، والبيض : السيوف .

٢ المعنى مستمد من قوله تعالى(فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما مناً بعد وإما فداء) الآية /٤/ من سورة

٣ الصحيح قوله : يقفو آثار من فروا .. ولكنه عداه باللام ليستقيم الوزن .

٤ ذكر صاحب سلك الدرر في ص ٢٠٧ أن معركة (مورة) كانت على عهد السلطان أحمد .. والمقصود بذلك السلطان محمود الأول .

٥ الشاعر أحمد البقاعي بن ناصر الدين بن علي الدمشقي نزيل القسطنطينية ، ولد بالبقاع بقرية تعرف بتل ذي النون ، حارب في المورة مع الصدر الأعظم . لم تعرف سنة ولادته لكنه توفي في القسطنطينية سنة / ١١٧١ هـ / ، كان جيد الشعر ، مدح صاحب سلك الدرر أسلوبه وأطنب فيه ، سلك الدرر ج١ ص/ ٢٠٥ ـ ٢١٤ / .

٦ ابن الحكيم علي باشا وزر ثلاث مرات للسلطان محمود الأول ، كانت الأولى أطولها ، وفيها قاد معركة (فتح مورة) اليونانية

٧ هذا البيت يذكرنا بقول النبي ﷺ (الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة) .

٨ أبدع الشاعر في هذا التشبيه المقلوب ، إذ جعل أثر العيون النجل في العاشقين أشدُّ وقعاً من أثر السيوف في أجساد المقاتلين .

وحين تقدم الصدر الأعظم الجديد مصطفى بن محمد كوبريلي سنة / ١١٠١ هـ / للهجوم على النمسا على رأس جيش استعاد به ما اغتصبه ، ومما استعاده بلغراد عاصمة البلغار بعد سنتين من احتلال النمسا لها ، واستعاد من المجر اقليم ترانسلفانيا فاستعاد العثمانيون هيبتهم مدحه الشاعر عبد الباقي بن مراد العمري [٢]:

بشـــرى لأهـــل الـــدين والـــدنيا معـــاً ... بمـــن اعتلـــى صـــدر الـــوزارة مبـــدعا

حـــامي حمـــى الإســـلام مـــن أضـــحى بـــه ... ربـــع الطغـــاة إلـــى العســـاكر مربعـــا

مـــن فـــلَّ جـــيش الكـــافرين وقـــد غـــدت ... قتـــلاهم للـــوحش خصـــباً ممرعـــا ٣

لـــــعبت ثعـــالب رمحـــه بأســـودهم ... فغـــدت غـــذاء للأرانـــب مشـــبعا ٤

طلبـــوا الفـــرار ولات حيـــن تخلـــص ... ولـــو أنهـــم طلبـــوا المكـــان البلقعـــا

أمســـى ببيلغـــراد معقـــل حـــزبهم ... وتحصنـــوا ، وحصـــونهم لـــن تنفعـــا

ظنـــوا حصـــونهم تصـــون دمـــاءهم ... تبـــاً لهـــم ، رجعـــت عليـــهم منجعـــا ٥

ياملـــة الكفـــران ! وَيْحَـــكُمُ ! خُـــذوا ... منـــه الأمـــان فـــلا برحتـــم مطمعـــا

هـــذا الـــوزير المصـــطفى والمرتضـــى ... بالعلـــم والـــرأي المنـــير ترفعـــا

نجـــل الوزيـــر الكبرلـــيِّ محمـــد ... مـــن عصـــبة جعلـــوا الفضـــائل شـــرعا٦

ويقف الشاعر أحمد الكواكبي [٧] أمام الصدر الأعظم علي جور ليلى [٨] الذي أعاد إليه اعتباره بعد أن أقصي عن قضاء طرابلس ، وقربه السلطان أحمد الثالث بن محمد الرابع ، فأهداه كتابه الفقهي معنوناً باسم السلطان أحمد، ويمدح الصدر الأعظم بالعلو والرفعة وأنه مجدد الدين ... وغير ذلك من الصفات التي يحوزها كل ممدوح، إلى أن يقول :

مـــــا قابلتـــــه كتيبـــــة إلا غـــــدا ... ســـلطانها مـــن بأســـه مقهـــورا

---

١ هذا البيت كله لو حسب المتقصي للتاريخ بحساب الجمَّل لوجد التاريخ / ١١٤٨ هـ / .

٢ من الموصل في العراق / ١٠٦٠ ـ ١١٠٩ هـ / ، شاعر أديب من أسرة معروفة بالعلم والأدب ، سافر إلى القسطنطينية ودرس على علمائها ودرس عليه عديد منهم ، ولي قضاء سبع ولايات ، الروض النضر ج١ ص ٥١ ، ومنهل الأدباء ج١ ص ٢٢٧ .

٣ الأرض الممرعة : التي كثر فيها الكلأ والمرعى ، وبقصد الشاعر : كثرة القتلى الذين صاروا طعاماً للوحوش .

٤ ثعلب الرمح : طرف الرمح في أسفل السنان ، وفكرة هذا البيت رائعة أجاد الشاعر في صورتها والتلاعب في لفظها ومعناها ، فالثعالب جبانة في الأصل ، فكيف إذا جعلها الشاعر تخيف الأسود من أبطال العدو فتجندلها وتجعلها طعاماً للأرانب مع أن الأرانب لا تتغذى باللحوم ؟..

٥ المنجع : الموضع الذي يقصد لما فيه من كلأ وماء .والمعنى : حصونهم التي اعتمدوا على منعتها في ثورتهم وتمردهم لم تنفعهم إنما كانت بلاء عليهم فهي مورد سهل لجنود الإسلام يقصدونها للاستمتاع والإيناس ، وهذه لفتة طيبة في مدح الجيش العثماني .

٦ الروض النضر : عصام الدين عثمان بن علي بن مراد العربي ابن أخي الشاعر ج١ ص/٨٠ / .

٧ الشاعر أحمد الكواكبي / ١٠٥٤ ـ ١١٢٤ / كان فقيهاً عالماً أعطي فتوى حلب ثم القضاء في القدس الشريف ثم قضاء طرابلس وقبرص ، ثم كف عن عمله بوشاية واشٍ فذهب إلى القسطنطينية واتصل بالصدر الأعظم (علي جور ليلى) ومدحه فقربه إلى الخليفة .. كان شعره ينبئ عن مستوى شعر العصر العثماني .

٨ علي جور ليلى الصدر الأعظم الذي ولي الصدارة في / ١٩ محرم ١١١٨هـ / وعزل في / ١٧ ربيع الثاني ١١٢٢هـ / وعرف عهده بالاستقرار إذا ما قورن بغيره .

مع العلم أن هذا الصدر ولي الصدارة أربع سنوات ، وكان من قبله ومن بعده لايلبثون فيها سوى السنة أو أقلها ، فشغل الناس بذلك :

فكـــأن وقـــع ســـيوفه فـــي حـــامهم ... قلـــم يســـطر طرســـهم تســـطيرا ١

هاتيـــك أجنـــاس الخلائـــق كلهـــم ... وغـــدا الكبيـــر براحتيـــك صغيـــرا

وعلـــيٌ قـــدرٌ شـــارفت شـــرفاته ... شـــرف النجـــوم غـــدا لـــديك حقيـــرا ٢

فلما فرغ الشاعر من مدح الصدر الأعظم بدأ يستعطفه مادحاً نفسه بقوله :

أيحـــل مـــن كانـــت تراجعـــه الـــورى ... مـــن كـــل مصـــر أن يُـــرى محجـــورا

فـــإذا تصـــادمت الفحـــولُ بمشـــكل ... أضـــحى بخافيـــه البهـــيمُ بصـــيرا

وغـــدا يقـــول الفاضـــلون بأنـــه ... فخـــر غـــدا للفاضـــلين أمـــيرا

ـ وقامت على عهد السلطان عبد العزيز سنة / ١٢٨٢ هـ ــ الموافقة ١٨٦٥ م / ثورة في جزيرة كريت التابعة لليونان ، فأرسل جيشاً لإخمادها ، وساعده المصريون بإرسال كتائب وكان فيها الشاعر الضابط الشاب محمود سامي البارودي ، واستطاع العثمانيون القضاء على هذه الثورة ، وكان مما قاله فيها هذا الشاعر يفخر بنفسه [٣] :

ولمـــا تـــداعى القـــوم واشـــتبك القنـــا ... ودارت كمـــا تهـــوى علـــى قطبهـــا الحـــرب ٤

وزُيِّـــن للنـــاس الفـــرار مـــن الـــردى ... وماجـــت صـــدور الخيـــل والتهـــب الضـــرب

ودارت بنـــا الأرض الفضـــاء كأننـــا ... ســـقينا بكـــأس لايفيـــق لهـــا شَـــربُ ٥

صـــبرت لهـــا حتـــى تجلـــت ســـماؤها ... وإنـــي صـــبور إن ألـــمَّ بـــي الخطـــب ٦

ولما بدأت الحرب في البلقان ، تلك الحرب التي أعلنتها روسيا على الدولة العثمانية سنة / ١٢٩٤ هـ الموافقة ١٨٧٧ م / وتبعتها رومانيا ثم الصرب والجبل الأسود وانتهت بهزيمة تركيا وعقد معاهدة (سان

---

[١] حامهم : لعله شبه الأعداء بالإبل الكثيرة المذبوحة فقال حامهم ، والصحيح حومهم ، والطرس : جمع طروس وهو الصحيفة والكتاب الذي مُحِيَ ثم كتب فيه ، شبه سرعة القتل في الأعداء بسرعة الكتابة وثباتها .

[٢] يهتم بالشاعر بالتصحيف كما في هذا البيت : شارف ، شرفات ، شرف . وقد لاحظنا هذا في بيت سابق : يسطر ، طرسهم ، تسطيرا

[٣] محمود سامي البارودي رائد الشعر العربي المعاصر / ١٨٣٩ ــ ١٩٠٤ م / ، كان أحد القادة الشجعان ، تعلم في المدرسة الحربية المصرية ، وأتقن الفارسية والتركية كان من قادة الحملتين المصريتين لمساعدة العثمانيين ، الأولى : في القضاء على ثورة كريت عام / ١٨٦٨ م / ، والثانية : في الحرب الروسية / ١٨٧٧م/ وتقلب في المناصب فكان محافظاً لمصر ، فوزيراً للحربية فرئيساً للوزراء ، ثم رمزاً لثورة أحمد عرابي باشا ، فقبض عليه الإنجليز ونفوه إلى جزيرة سرنديب (سيلان حالياً) عام ١٨٨٣م ، وعاد بعد سبعة عشر عاماً وقد كف بصره ، له ديوانه وحماسته . الأعلام للزركلي / ج٧ ص١٧١ / .

ويبدو أن هذه الأبيات مما نظمه البارودي في حرب العثمانيين ضد اليونان في كريت وعمره ثمانية وعشرين عاماً ، وقد انتهت الثورة في هذه الجزيرة بمنحها بعض الامتيازات في المؤتمر الذي انعقد في باريس سنة / ١٢٦٨ هـ الموافق ١٨٦٩ م / الديوان ص ١٣٤ ، والقصيدة في ديوانه ص ٧٥ .

[٤] تداعى القوم : تجمعوا ، القنا : جمع قناة وهي الرمح ، وقطب الرحى : حديدة تدور عليها ، أي لما نازل المسلمون اليونانيين في حربهم واشتدت المعركة ...

[٥] ودارت بنا الأرض بالمقاتلين لما يعانون في قتالهم حتى لم يعودوا يعرفون ما يفعلون كأنهم سكارى لايميزون لشدة الخطب الذي ألمَّ بهم .

[٦] كان الشاعر صبوراً في القتال شجاعاً في النزال حتى انكشف البلاء وزالت الغمة وانتصر على الأعداء .

استفانيوس) الجائرة بحق العثمانيين ، كان البارودي أحد ضباط الحملة المصرية التي أيدت العثمانيين . يقول في قصيدته الحائية [١] واصفاً الحرب وأهوالها وموقعه فيها :

مهالـــك ينســـى المـــرء فيهـــا خليلـــه ... وينـــدر عـن ســوم العــلا مــن ينــافح ٢

ترانـــا بهـــا كالأســـد نرصـــد غـــارة ... يطيـر بهـا فتـق مـــن الصبـــح لامـــح ٣

فلســـت تـــرى إلا كمـــاة بواســـلاً ... وجـرداً تخـوض المـوت وهـي ضـوابح ٤

نغيـــر علـــى الأبطـــال والصـــبح باســـم ... ونـــأوي إلـــى الأدغـــال والليـــل جانـــح

فـــإن عشـــت صـــافحت الثريـــا وإن أمـــت ... فـــإن كريمـــاً مـــن تضـــمُّ الصفائـــح ٥

ويقول في هذه الحرب نفسها واصفاً مالاقاه جنده من مصائب وويلات وما لاقاه الأعداء من جنده مما هو أشد وأنكى [٦] :

أدور بعينـــــي لا أرى غيـــــر أمـــــة ... مـــن الـــروس بالبلقـــان يخطئهـــا العـــدُّ

جـــواثٍ علـــى هـــام الجبـــال لغـــارة ... يطيـــر بهـــا ضـــوء الصـــباح إذا يبـــدو

إذا نحـــن ســـرنا صـــرَّح الشـــر باســـمه ... وصـــاح القنـــا بـــالموت واســـتقتل الجنـــد

فأنـــت تـــرى بيـــن الفـــريقين كبَّـــةً ... يحـــدث فيهـــا نفســـه البطـــل الجعـــد ٧

علـــى الأرض منهـــا بالـــدماء جـــداول ... وفـوق ســراة الـنجم مـن نقعهـا لبْـد ٨

إذا اشـــتبكوا أو راجعـــوا الزحـــف خلـــتهم ... بحـــوراً تـــوالى بينـــها الجـــزر والمـــدُّ

فهـــم بـــين مقتـــول طريـــح وهـــارب ... طليـــح ، ومأســـور يجـــاذبه القِـــدُّ ٩

فالأعداء كثيرون لا يحصيهم العد ، يحتلون الجبال كالنسورتهجم على كتائبنا فينقلب ضوء الصباح لكثرة غبار المعركة ليلاً ، أما جيشنا البطل فهو يحمل بين جنباته الموت الزؤام وكان الفريقان متدافعين في القتال ،

---

١ الديوان ص / ١٠٦ ـ ١٠٨ / .

٢ الشطر الثاني من البيت يعني : قليل من يطلب الرفعة وينافح عنها ، و ينافح : يكافح ويدافع .

٣ فتق الصبح : انشقاق الفجر ، لامح : لامع ، أي أن الغارات تبدأ أول الفجر .

٤ الكماة : جمع كميّ وهو الشجاع ، الجرد : جمع اجرد وهو الفرس السبَّاق ، الضوابح : جمع ضابح وضبح الخيل : صوت انفاسها عند الجري والعَدْوِ .

٥ الثريا : نجم معروف يضرب به المثل في الرفعة والسمو ، الصفائح : حجارة عراض رقيقة ، والمراد : القبر ، فالشاعر أمامه طريقان لا يحيد عنهما إما النصر أو الشهادة .

٦ الديوان ص ١٤١ .

٧ الكبة : الدفعة في القتال ، الجعد : الكريم الجواد .

٨ سراة النجم : أعلاه ، النقع : غبار المعركة ، اللبد : ما يتلبد من شعر أو صوف ، والمعنى : امتلأت الأرض جداول من دماء الأعداء ، وتطاول غبار المعركة حتى بلغ عنان السماء

٩ طليح : متعب عيِـيّ ، القد : سير من الجلد يقيد به الأسير .

بينهم مد وجزر ، فطوراً يتقدم هؤلاء ، وتارة يتراجعون ، والقتل مستحر بينهم ، ودماؤهم تسيل جداول إلى أن منَّ الله تعالى بالنصر ، فقُتِل الكثير من الأعداء ، وهرب آخرون ، ووقع الباقون في الأسر .

ومن الحروب التي انتصر فيها العثمانيون : حرب اليونان ، إذ ثارت عليهم في / سنة ١٣١٣ــ ١٣١٥ هـ الموافقة ١٨٩٥ ـ ١٨٩٧ م / فتألق الشعراء في وصفها والفخر بها ، وهذا أمير الشعراء أحمد شوقي [١] يخلدها في في قصيدة (صدى الحرب) في أكثر من ستين ومئتي بيت [٢] يستهلها بمدح الخليفة عبد الحميد الثاني الذي يضرب يضرب بسيف الحق وينصر دين الله ، ولولا القوة ماعلا شأن الدول ، فبها يؤدَّبُ الطغاةُ المارقون :

بســـيفك يعلـــو الحـــق والحـــق أغـــلب ... ويُـــنصَر ديـــنُ الله أيـــان تضـــرب

ومـــا الســـيف إلا آيـــة الملـــك فـــي الـــورى ... ولا الأمـــــر إلا للَّـــــذي يتغـــــلَّب

فـــأدِّب بـــــه القـــوم الطغـــاة فإنـــه ... لـــنعم المربـــي للطغـــاة المـــؤدب

ويصف خوف اليونانيين من قوة العثمانيين ورجاءهم في العفو ، ويؤكد أن قوة الخليفة وذكاءه كانا السبب في النصر على الثائرين حتى هابوه :

ومملـــكة اليونـــان محلولـــة العـــرا ... رجـــاؤك يعطيهـــا وخوفـــك يســـلب

هـــددت ـ أميـــر المـــؤمنين ـ كيانـــها ... بأســـطع مثـــل الصبـــح لا يتكـــذَّب [٣]

ومـــازال فجـــراً ســـيف عثمـــان صـــادقاً ... يســـاريه مـــن عـــافي ذكائـــك كوكـــب

وهـــاب العـــدا فيـــه خلافتـــك التـــي ... لهـــم مـــأرب فيهـــا ولله مـــأرب

ويذكر جبال (ملونا) التي استعصى فيها الثوار فكانت مقبرة لهم لأن الأتراك لا يمنعهم من أهدافهم مانع :

جبـــال ملونـــا لا تخـــوري وتجزعـــي ... إذا مـــال رأس أو تضعضـــع منـــكب

ماكنـــت إلا الســـيف والنـــار مركبـــاً ... ومـــا كـــان يستعصـــي علـــى التـــرك مركـــب

علَـــوْا فـــوق عليـــاء العـــدو ، ودونـــه ... مضـــيق كحلـــق الليـــث أو هـــو أصـــعب

فكـــان صـــراط الحشـــر ، مـــا ثَـــمَّ ريبـــة ... وكانـــوا فريـــق الله ، مـــا ثَـــمَّ مـــذنب

وسنعود إلى هذه القصيدة الجميلة وأمثالها ــ بإذن الله ــ حين نتحدث في الباب الثاني في أغراض شعر الفتوحات .

---

[١] أمير الشعراء في العصر الحديث / ١٨٦٨ ـ ١٩٣٢ م / كان شاعر البلاط في مصر ، مثَّلها في مؤتمر المستشرقين في جنيف عام / ١٨٩٦ م / ، نفاه نفاه ألنجليز إلى اسبانيا عام / ١٩١٥ م / أربع سنوات ، عاش في نعمة وترف ، وكان أول من جوَّد القصص الشعري التمثيلي ، كتب نثراً وشعراً . الأعلام ج ١ ، ص ١٣٦ .

[٢] ديوان شوقي ص / ٤٢ ـ ٥٨ / .

[٣] يخاطب الشاعر السلطان عبد الحميد ، أسطع : شديد السطوع واللمعان .

ولا ينس الشاعر أحمد شوقي إذ مدح الخليفة في حرب اليونان في هذه لبقصيدة أن يحرك مشاعر المسلمين، ولذلك نظم أرجوزته (تحية للترك) [١]ليسهل على الناس حفظها والتنغم بها ، فجعلها بيتين بيتين يجمع بينها رويُّ النون الممدودة ، مستخدماً أسلوب السخرية والتهكم والرسم الكاريكاتوري بالكلمات في تضخيم الأشياء لجذب انتباه السامعين مستعيناً بالبحر الوافر المناسب للشعر الغنائي ، يقول فيها :

بحمـــــــــد الله رب العالمينـــــــــا وحمـــدك يـــا أميـــر المؤمنينـــــا

لقينـــا فـــي عـــدوك مـــا لقينـــــا لقينـــا الفـــتح والنصرالمبينـــــا

** ** **

جمعـــت لنـــا الممالـــك والشـــعوبا وكانـــت فـــي سياســـتها ضـــروبا

فلمـــا هـــبَّ جـــورجيهم هبوبـــــا تلفـــت لا يصـــيب لنـــا معينـــا ٢

** ** **

رأى كيـــف الســـبيل إلـــى كريـــد ٣ وكيـــف عواقـــب الطـــيش المزيـــد

وكيـــف تنـــام ياعبـــد الحميـــد وتغفـــل عـــن دمـــاء العالمينـــا

** ** **

أروتـــر لا تـــدس الســـم دســـاً ومهـــلاً فـــي التهـــوس يـــا هوسَّـــا ٤

ســـل اليونـــان هـــل ثبتـــت لرسَّـــا وهـــل حُفِـــظ الطريـــقُ إلـــى أثينـــا

** ** **

معـــاذ الله كـــلا ثـــم كـــلا هُـــمُ البحـــارة الغـــر الأجـــلا

ومـــا أســـطولهم فـــي البحـــر إلا (شخاشـــخ) مـــا يـــرحن ومـــا يجينـــا٥

** ** **

ســـلاما ســـفح فرســـالو ســـلاما وكـــن خيـــر المقـــام لمـــن أقامـــا

وضُـــنَّ بهـــا وإن بليـــت عظامـــا تطيـــف بهـــا الملائـــك حائمينـــا ٦

** ** **

---

١ ديوان شوقي (الشوقيات) ج ١ ص / ٢٨٠ ـ ٢٨٥ / .

٢ جورجي : ملك اليونان في ذلك الوقت .

٣ كريد : جزيرة كريت .

٤ يتحدث عن وكالتي رويتر وهاواس (ROITER , HAVAS) .

٥ شخاشخ : جمع شخشيخة وهي لعبة معروفة للأطفال في مصر .

٦ القصيدة مؤلفة من ثمانين بيتاً تجد فيها السهولة وروح السخرية والطرافة .

وكان الشاعر عبد الجليل برادة [1] نزيل القسطنطينية حينما انتصرت الجيوش العثمانية على اليونان سنة ١٣١٣ هـ فأنشأ مطولة في مدح الخليفة عبد الحميد الثاني طرباً لهذا الانتصار ، فقال [2] (وأسلوبه فيها يشبه أسلوب أبي تمام) :

كذا فليكن ما يحرز المجد والفخر ... كذا فليكن ما يجمع الفتح والنصر

كذا فليكن ما يبلغ السؤل والمنى ... كذا فليكن ما يدرك الثأر والوتر ٣

كذا فليكن سعي الملوك مقدساً ... يرافقه نسك ويتبعه أجر

حديث عن اليونان يضحك باكياً ... ويطرب محزوناً ويلهو به غرُّ

أماني نفوس في الدجى حلموا بها ... وبالعكس في تعبيرها طلع الفجر ٤

همو دبروا أمرالأمور وفكروا ... فعاد عليهم ضلة ذلك الفكر

فعاثوا وجاسوا في البلاد بجهلهم ... وعمَّ على جيرانهم منهم الغدر

صبرنا وكم عنهم عفونا فلم يفد ... وعن مثلهم لايحسن العفو والصبر

فقام أمير المؤمنين بردعهم ... ببأس شديد لا يقوم له الصخر

فبادرهم منه هصور غضنفر ... كذا الليث يخشى من بوادره الهصر ٥

يشيِّد أركان الخلافة فخرها ... عظيم بني عثمان يا حبذا الفخر

لقد قام في ذا العصر بالواجب الذي ... هو الفرض من غزو تباهى به العصر

فأحيا مواتاً للجهاد تقادمت ... عليه دهور لا يشاد لها ذكر

ويتحدث الشاعر في قصيدته عن أن الرسول صلى الله عليه وسلم سر لهذا الحدث ، وأن الخليفة ملاذ الناس جميعاً ، ويمدحه بالرأي السديد والحلم والشدة والبطش .ثم يهجو اليونانيين فهم ـ في رأيه جبناء ، وقد أثبت ذلك هربهم وتركهم الأوطان وعدم ثباتهم في المعركة .

كانت إيطاليا تطمح إلى السيطرة على ليبيا وخاصة بعد أن احتلت فرنسا تونس / ١٢٩٩هـ ـ ١٨٨١ م / وعقدت الاتفاقات مع الدول الأوروبية ، وبدأت تهيئ الجو في طرابلس لتجد ذريعة تحتل بها ليبيا ، وأسلت

---

[1] الشاعر عبد الجليل برادة / ١٢٤٣ ـ ١٣٢٦ هـ ، ١٨٢٧ ـ ١٩٠٨ م / من أهل المدينة المنورة هاجر جده وأبوه إليها من المغرب فولد هو فيها ، وتوفي راجعاً من مكة إلى المدينة بعد أن كان فاراً إليها بعدما أعلن الدستور ، ودفن في البقيع ، وكان من رواد اليقظة العربية فنفي في عهد السلطان عبد الحميد إلى القسطنطينية . الأعلام ج٣ ص٢٧٥ ، كما أفاضت مجلة المنهل في الحديث عنه ، وذكرت أن بعض معاصريه أطلق عليه لقب أبي العلاء المعري الثاني ، المنهل عدد مايو / ١٩٦٩ ص ٣٦٠ / ، وتحدث عنه صاحب حلية البشر وقال إنه سريع البديهة عميق النقد . حلية البشر ج٢ ص٧٧٩ .

[2] القصيدة في حلية البشر ج٢ ص ٧٨١ ، وفي كتاب الشعر الحديث في الحجاز ص ١٤٣ .

[3] الوتر : عدم إدراك الثأر لقتيل قتل .

[4] أي : لم يدركوا مناهم التي خططوا لها .

[5] الهصور الغضنفر : اسمان للأسد القوي ، والهصر : الجذب والدفع وعطف شيء رطب .

البعثات النصرانية الكاثوليكية ، وفتحت المدارس الإيطالية ومسحت السواحل الليبية ، وأرسلت إنذاراً إلى الدولة العثمانية سنة / ١٣٢٨هـ ـ ١٩١٠ م / تتهمها بعرقلة المساعي لتحضير سكان ليبيا ، وأن إيطاليا لاتريد إضاعة الوقت بالمفاوضات وأنها قررت احتلال ذلك الجزء ، وحاصرت القوات الإيطالية سواحل ليبيا ، وأنزلت القوات فيها ، وقصفت موانئها ، واحتلتها ، لكن المسلمين الليبيين والمتطوعين المصريين بقيادة عزيز باشا المصري وصلوا إلى طرابلس وانتصروا على الطليان في بنغازي [١] ، وكان لدعم المصريين إخوانهم في ليبيا أكبر الأثر في الانتصار .

كما أن حرب البلقان الأولى شهدت اهتماماً واسع النطاق ودعماً مادياً طيباً ،فخلد كثير من الشعراء هذه الاهتمام الذي يثبت أن " المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً [٢] "

فهذا الشاعر أمين ناصر الدين اللبناني [٣] يهتز لموقف المصريين الذين تبرعوا بسخاء بالغ في الحربين الطرابلسية والبلقانية بما أربى على منية المتمني ، وكان صاحبا الدولة : الأمير محمد علي [٤] وعمر باشا طوسون [٥] مجليي هذه الحلبة ، فقال الشاعر قصيدة نوَّه فيها بفضل المصريين وعلى رأسهم هذان الأميران ، ووصفهم بأنهم كرام يدانون النيل سخاء ، كفَـوْا الجيش الذاهب إلى هاتين الحربين كل مؤونة ، وقد انطلق الأميران يحثان المصريين على التبرع ، فكانت أريحية الشعب المصري فوق التصور :

إذا فـــاض مـــاء النيـــل يوشـــك ينثنـــي ... لمـــــرآه نيـــــلاً مـــــن أكفهـــــمُ يجـــــري

وهـــل يســـــتوي النـــــيلان ذاك بمائـــــه ... يجـــــود وذا يســـــخو بعســـــجده الحـــــرِّ

ولـــــم أر نـــــداً للأميـــــر محمـــــد ... ســوى صــنوَه فــي المجـد طوسـن ذي القـدر

همـــا كفيـــا الجـــيش المجاهـــد فاقـــة ... فباتـــا لـــه ذخـــراً وكـــان بـــلا ذخـــر

يطوفـــان بـــين النـــاس يســـتجديانهم ... فـــأكرم بمـــن يمـــري النـــوال ويســـتمري ٦

و حين هزم الإيطاليون في ليبيا عام /١٩١٠ م / انتقموا في البحر فأغرقوا بعض السفن العثمانية وضربوا بيروت من البحر فدمروا الكثير منها ، كما ضربوا استانبول واحتلوا بعض الجزر في بحر إيجة ولم يستطع

---

١ التاريخ الإسلامي محمود شاكر ص ٢١٥ .

٢ متفق عليه ، من رياض الصالحين باب تعظيم حرمات المسلمين وبيان حقوقهم والشفقة عليهم ورحمتهم ص ١٢٠ .

٣ الشاعر ناصر الدين اللبناني : / ١٨٨٠١ ـ ١٩٥٣ م / مولده ووفاته في قرية (كفر متى) بلبنان بدأ يقرض الشعر وهو في العاشرة من عمره ، اشتهر قبل الدستور بتحرير جريدة (الصفاء) التي كان والده يصدرها ثم تولاها هو عام / ١٨٩٩ م / ث/ مجلة الإصلاح لوالده أيضاً ، وظل على ذلك مدة ثلاثين ، له مؤلفات عديدة منها ديوانه **صدى الخاطر** الذي استقينا منه هذه الأبيات **والإلهام** وهو ديوان شعر أيضاً ، **والبينات** وهو مجموعة مقالات ، **وغادة بصرى** وهي قصة . الأعلام ج ٢ ص ١٨ .

٤ محمد علي بن توفيق / ١٨٧٥ ـ ١٩٥٥ م / ولي عهد أخيه عباس حلمي الذي خلعته بريطانيا عام / ١٩١٤م / حين نشبت الحرب العالمية ، ولكن محمداً هذا لم يعيَّن أميراً للبلاد ، غادر مصر بعد الثورة ومات في لوزان ودفن في القاهرة ، الأعلام ج ٦ ص ٣٠٦ .

٥ عمرطوسون من أسرة محمد علي / ١٨٧٢ ـ ١٩٤٤ م / مؤرخ وباحث ، مولده وفاته في الاسكندرية ، أتقن التركية والفرنسية والإنجليزية ، صنف كتباً كثيرة بالعربية والفرنسية وآزر الحركة الوطنية المصرية بقلمه وماله ، وكان من أعضاءالمجمعين العلميين المصري والسوري . الأعلام ج٥ ص ٤٨

٦ يمري : يدر ويستخرج ، يستمري : يطلب النوال (المعجم الوسيط) ، فالشاعر يمدح الشعب الذي يبذل المال رخيصاً لإخوانه ، والأميرين اللذين جمعا التبرعات للشعب الليبي المجاهد ، والأبيات من قصيدة (فم الدهر) ديوان صدى الخاطر ص١٥

العثمانيون الرد عليهم فليس لهم أسطول قوي ، مما حدا بالشاعر أمين ناصر الدين أن يحضَّ العثمانيين على بناء أسطول يملأ البحر ويدفع عن موانئ الدولة إغارة المغير وسطوة المعتدي [١] :

هـــل بغيـــر الأســـطول تُحمـــى الثغـــور ... يـــوم يـــذكي للحـــرب ذاك الســـعير ٢

يـــوم يحكـــي العبـــاب تملـــؤه الســـفنُ ... فـــلاة بالراســـيات تمـــور ٣

وفيها يقول :

لـــيس يحمـــي ثغورنـــا غيـــر أســـطول ... لـــه فـــي البحـــار شـــأن خطيـــر

كلمـــا جـــاء خائضـــاً لجـــج البحـــر ... يقـــول الأعـــداء جـــاء ثبيـــر ٤

ثم يلتفت الشاعر إلى اللاهين ببناء القصور وتزيينها بأبهى الحلل منشغلين عن الاستعداد ليوم الوغى بترهات الأمور ، فيقول لهم موبخاً وناصحاً :

لـــيس يغنيـــك يـــوم يأتيـــك أســـطو ... ل الأعـــادي نُضـــارك المـــذخور٥

إن بنيانـــك القصـــور وأســـطو ... لـــك واه تخـــاذل وقصـــور٦

لـــيس دون الأســـطول يـــا قـــوم حـــامٍ ... ترتجيـــه فَـــروق والبُســـفور ٧

ويفرد الشاعر قصيدته (الحرب الظالمة) [٨] لطرابلس في حربها ضد الإيطاليين عام / ١٩١٢ / فيخاطبها موضحاً كثرة الدماء التي سفكت دفاعاً عنها وبعثاً للمجد والسؤدد فيها :

دار الـــوغى هـــل ســـقت جرعـــاءك الـــديم ... فأمرعـــت أم ســـقاها مـــن بنيـــك دم٩

أكـــرم بجرعـــاء يُـــرويها النجيـــع فـــلا ... تنفـــك ينبـــت فيهـــا المجـــد والكـــرم١٠

ويمدح أبناءها المدافعين عنها ويقرنها بمكة قدسيةً فقد أمَّها كثير من الأبطال :

وحبـــذا الـــدار يحميهـــا غطارفـــة ... تعلَّـــم الـــدهر مـــنهم كيـــف يعتـــزم ١١

---

١ ديوان صدى الخاطر : من قصيدة " في سبيل الأسطول " ص / ١٣٨ ـ ١٤٠ / .

٢ الثغور : الموانئ ، ذكت النار : اشتد لهيبها (المعجم الوسيط ص ٣١٤) .

٣ تمور : تضطرب وتموج ، ، الراسيات : الجبال العالية الذاهبة في الأعماق ، شبه السفن الضخمة في البحر الفسيح بجبال ضخمة تضطرب منها رمال الصحراء .

٤ ثبير : جبل بظاهر مكة .

٥ النضار : الذهب الخالص ، والمعنى : إذا لم يصرف الذهب في تجهيز الجيوش للمعركة وفي بناء الأساطيل فلن يفيد صاحبه يوم الشدة .

٦ في هذا البيت حكمة زادها جمالاً الجناس التام في كلمة القصور ، فالقصور في الشطر الأول : البيوت الضخمة الواسعة ، والقصور الثانية : الإهمال والتقصير .

٧ فروق : استانبول ، البوسفور : المضيق الواصل بين بحر مرمرة والبحر الأسود ، وتقع استانبول على جانبيه .

٨ ديوان صدى الخاطر ص ٦٣ .

٩ الجرعاء : الأرض ذات الحُزونة ، والحزونة غير السهلة ، أمرعت ومرع : أصاب الكلأ فأخصب . والمعنى : لم يسق الماء أرضك يا طرابلس بل بل دماء أبنائك المجاهدين فأخصبت عزة وكرامة .

١٠ النجيع : دم الجوف .

١١ غطارفة : مفردها غطريف ، وغطارف : السيد الكريم .

تـــالله لـــو لـــم يكـــن فـــي مكـــة حـــرم يحجـــه النـــاس ، قلـــنا إنـــه الحـــرم

ويمدح الجندي العثماني في جهاده في حرب البلقان فهو يسعى إلى القتال مسرعاً يلبي نداء الوطن ويدافع عنه ويمنع عن عرضه الأعداء ويعلن للعالم أجمع أن البلقان قطعة من دولة آل عثمان الإسلامية يفديها الناس بأرواحهم [1] ، يقول في قصيدته :

عهـــدتك يـــاابن عثمـــانٍ همامـــا فلـــم تبـــرح إلـــى الـــداعي ســـريعا

شـــببت علـــى التمـــرس بالرزايـــا وكنـــت إلـــى الـــوغى تصـــبو رضـــيعا

يناديـــك الحمـــى لتـــذب عنـــه فلَـــبِّ ، وقـــل دعـــوت فتـــى ســـميعا

منعـــت العـــرض أن يعـــدو دنـــيء عليـــه فيالـــه عرضـــاً منيـــعا

فتعلـــم أمـــة البلقـــان أنَّـــا فـــدًى لهـــلال دولتنـــا جميـــعا [2]

وهذا الرصافي [3] شاعر العراق الشهير يأبى عليه دينه وأخوته للمسلمين إلا أن يشاركهم فرحهم وترحهم ، فحين هاجم الإيطاليون طرابلس الغرب للمرة الأولى وعادوا يجرون أذيال الهزيمة ، وانبرى الشعراء يشيدون بالنصر المبين ، كان شاعرنا في مقدمتهم يعتز بنصر الله المسلمين ويهزأ من إدبار الطليان المهزومين ، فيقول [4] :

:

هـــو النصـــر معقـــود برايتنـــا الحمـــرا علـــى أنـــه فـــي الحـــرب آيتنـــا الكبـــرى

حليفـــان مـــن نصـــر مبيـــن ورايـــة بـــه وبهـــا نعلـــو علـــى غيرنـــا قـــدرا

لـــئن أدبـــر الطليـــان عنـــد كفاحنـــا فـــإن لهـــم فـــي بطـــش شـــجعاننا عـــذرا

فإذا ما أعادت إيطاليا بعد سنة هجومها على طرابلس ودخلتها على حين غرة عام /١٩١٢ م / واستباحت أرضها وأذلت أهلها صاح الشاعر صيحة الحرب وهاجم المدنية الزائفة التي يدعيها الغرب [5] :

ألا انهـــض وشمِّـــر أيهـــا الشـــرق للحـــرب وقبِّـــل غرار السيف واسلُ هوى الكتب[6]

ولا تغتـــرِرْ إن قيـــل : عصـــر تمـــدُّنٍ فـــإن الـــذي قـــالوه مـــن أكـــذب الكـــذب

ومـــا يؤخـــذ الطليـــان بالـــذنب وحـــدهم ولكـــن جميـــع الغـــرب يؤخـــذ بالـــذنب

---

[1] بلاد البلقان : البوسنة والهرسك وما حولها ، كانت تتبع السيادة العثمانية .

[2] ديوان صدى الخاطر ، من قصيدة إلى الجندي العثماني .

[3] معروف الرصافي / ١٨٧٧ ـ ١٩٤٥ م / شاعر عراقي من أعضاء المجمع العلمي بدمشق ، ولد في بغداد ونشأ بها ، اشتغل بالتعليم ، انتخب نائباً في المبعوثان العثماني ، وبعد الحرب الأولى عمل في دمشق مدرساً للأدب العربي ، ثم عاد إلى بغداد وأصدر جريدة الأمل ، وتقلب في المناصب وصار عضواً في مجلس النواب وكان خطيباً لثورة رشيد عالي الكيلاني ، كان عالي الأسلوب ، وصافاً مجيداً ، الأعلام ج٧ ص ٢٦٨ .

[4] ديوان الرصافي ص ٤٨٢ .

[5] نفس المصدر ص / ٤٧٨ ـ ٤٨١ / .

[6] غرار السيف : حده ، والمراد من قوله هذا : عوِّل على السيف واعتمد عليه لأنه أصدق من الكتب ، وهذا القول مأخوذ من قول أبي تمام

السيف أصدق إنباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب

فهم الذين شجعوا الطليان على احتلال طرابلس ودعا لهم البابا :

فلـــولاهُمُ لـــم يـــنقض العهـــد نـــاقض ولا ضـــاع حـــق فـــي طـــرابلس الغـــرب

ومـــا دعـــوة البابـــا لكـــم مســـتجابة فقـــد أغضـــبت طغواكـــم غيـــرة الـــرب

ويأسى الشاعر لما حلَّ ببرقة من دمار ويألم لما حلَّ ببنغازي فيقول :

أمـــا والعـــلا يـــا أرض برقـــة إننـــا لنشـــرق مـــن جـــرَّاك بالبـــارد العـــذب

ويـــا أهـــل بنغـــازي ســـلام فقـــد قضـــت صـــوارمكم حـــق المـــواطن فـــي الـــذبِّ

ويأسف الشاعر أن البلاد المسلمة في الشرق لم تستطع نجدة طرابلس وأخواتها لبعد المسافة ولوجود البحر الذي يحول دون ذلك ، ثم يشجع السنوسي وغيره على مد يد العون للمجاهدين :

يعـــزُّ علينـــا أهـــل برقـــة أنكـــم تـــدور عليكـــم بالدمـــر رحـــى الحـــرب

وأنـــا إذا مـــا تســـتغيثون لـــم نجـــدْ إليكـــم علـــى بعـــد المســـافة مـــن درب

وقـــد علـــم الأعـــداء أن ســـيوفنا تملمـــل فـــي الأغمـــاد شـــوقاً إلـــى الضـــرب

ولكـــن هـــو البحـــر الـــذي حـــال بيننـــا فلـــم نســـتطع زحفـــاً علـــى الضُمَّـــر القـــبِّ[1]

وهذا شاعر مصري محب للخلافة العثمانية وللمسلمين في كل مكان ، إنه أحمد الكاشف [2] وقف شعره للدفاع عن الدولة العلية العثمانية ، فكان يفرح لانتصاراتها ، ويأسى لمصائبها ، ملك قلبه حب إخوانه في ليبيا إذ استطاعوا ردَّ الإيطاليين عام ١٩١٠ م ، فغرد لنصرهم ومدحهم ، وأرسل برقية إلى خليفة المسلمين محمد رشاد يعلن ولاءه ويدعوه إلى الاستمرار في إرسال الكتائب إلى بلاد المسلمين للجهاد [3]:

المؤمنـــــون إليـــــك مســـــتبقونا لذمارهـــــم وديارهـــــم فادونـــــا

فاحشـــــد كتائبـــــك التـــــي أعـــــددتها للحـــــق أبلـــــج والرجـــــاء متينـــــا

ويؤكد أن القوة تجعل العدو يرهبك بل يحتكم إليك في أموره فالقوة هي العدل والحياة :

واتـــــرك لقوتـــــك الرهيبـــــة حكمهـــــا تجـــــد العـــــداة إليـــــك يحتكمونـــــا

فـــــإذا امتلكـــــت النـــــاس فـــــيهم غالبـــــاً فقـــــد امتلكـــــت العـــــدل والقانونـــــا

ثم يستعرض احتلال فرنسا للمغرب العربي وتطاول إيطاليا على شعب ليبيا الذي دافع دفاع الأبطال عن عرينه يقودهم إخوانهم الأتراك وتدعمهم مصر زاداً وسلاحاً ، وتمنى لو كان معهم يواسيهم بنفسه :

---

[1] الضمَّر : جمع ضامر ، وهو الحصان القليل اللحم ، اللاصق البطن ، والقب جمع أقب وهو الدقيق الخصر من الخيل .

[2] الشاعر أحمد الكاشف بن ذي الفقار / ١٨٧٨ ـ ١٩٤٨ م / شاعر مصري قوقازي الأصل مال إلى الموسيقا ينفس بها عن كربه ، واتهم بالدعوة إلى إنشاء خلافة عربية فتدارك أمره عند الخديوي عباس حلمي فرضي عنه ، وأمره بالإقامة في قريته (القرشية) فكان لايبرحها إلا مستتراً ، له ديوان شعر في جزأين ، الأعلام ج١ ص ١٢٤ .

[3] ديوان الكاشف ج١ ص / ١٨٣ ـ ١٨٦ / .

لحقـــت بتـــونس والجزائـــر بغتـــة ... مرَّاكـــشٌ فليبكـــها الباكـــونا [1]

وأبـــت علـــى العـــادي طـــرابلس ومـــا ... تخـــذت ســـوى مهـــج الأبـــاة حصـــونا

صِيْـــدٌ يـــدبر أمـــرهم ويسوســـهم ... صِيْـــدٌ مـــن الأتـــراك قوَّامونـــا [2]

يـــا أخـــت مصـــر وفـــي حشـــاها جمـــرة ... لبيـــك حتـــى يكتفـــي الداعونـــا

بعثـــت إليـــك بزادهـــا وتـــود لـــو ... بعثـــت إليـــك الجـــند مبتدرينـــا

يـــاليتني ســـايرت بعثتـــها عســـى ... أَأْســـو جريحـــاً أو أغيـــث طعينـــا

ثم تراه يهجو الإيطاليين الفارين ويسخر منهم ، فقد هربوا سراعاً تاركين أسلحتهم وميرتهم فغنمها المجاهدون :

يـــا آل رومـــة تطلبـــون أمانيـــاً ... ختـــالة أم تطلبـــون منونـــا

جئـــتم تجـــرّون الحديـــد ورحتـُـــمُ ... بحديـــدكم فـــي اليـــمِّ مغلـولينـــا

هـــاتوا الـــذئاب إلـــى الليوث،وخمســـة ... منهـــم أبـــادوا منكـــم خمسينـــا

واستكـــثروا الـــزاد الشـــهيَّ فـــإنكم ... وسلاحكـــم والـــزاد مأخوذونـــا

أما شاعر النيل حافظ إبراهيم [3]فإنه لما رأى الطليان دخلوا طرابلس وفعلوا الأفاعيل وقاومهم أهل البلاد وقتلوا كثيراً من جنودهم ففروا إلى أسطولهم أرَّخ هذه الواقعة وسخر من المعتدين وحذر أهل الشرق من طمع أهل الغرب فقال [4]:

طمـــع ألقـــى عـــن الغـــرب اللثـــاما ... فاســـتفق ياشـــرق واحـــذر أن تنامـــا

ولما أكثر المجاهدون القتل في العدو انتقم بقتل النساء والذراري والشيوخ والمرضى ، ولم يرحموا طفلاً ولا فتى ، وأحرقوا الدور على ساكنيها :

مـــادت الأرض بنـــا حـــين انتشـــت ... مـــن دم القتـــلى حـــلالاً وحـــراما

عجـــز الطليـــان عـــن أبطالنـــا ... فأعـــلَوْا مـــن ذرارينـــا الحســـاما

كبـــلّوهم ، قـــتلوهم ، مثَّـــلوا ... بـــذوات الخـــدر ، طاحـــوا باليتامـــى

ذبحـــوا الأشـــياخ والزمنـــى[5] ولـــم ... يرحمـــوا طفـــلاً ولـــم يُبْـــقوا غلامـــا

---

[1] احتلت فرنسا الجزائر عام / ١٨٣٠م / وتونس عام / ١٨٨١ م / ومراكش عام / ١٩١٠ م / .

[2] صيد : جمع أصيد كل ذي حول وقوة وطول من ذوي السلطان ، قوامون : أوصياء .

[3] حافظ إبراهيم : واسمه محمد حافظ إبراهيم / ١٨٧١ ـ ١٩٣٢ م / عاش يتيماً ، اشتغل مع بعض المحامين ثم دخل الكلية الحربية وسافر في حملة إلى السودان فأقام في سواكن والخرطوم ، ثم ألف جمعية سرية وطنية اكتشفها الإنجليز فسُرِحَ من الجيش مع من سرح ، رعاه الشيخ محمد عبده ، واشتغل بجريدة الأهرام ولقب بشاعر النيل عام / ١٩٢٧ م / ، كان قوي الحافظة حاضر النكتة ، له غير ديوانه : سطيح وغيرها .

[4] ديوان حافظ إبراهيم ص / ٣٨٠ / .

[5] الزمنى : المرضى بمرض مزمن .

أحرقـــوا الـــدور استحلـــوا كـــل مـــا حـــرمت (لاهـــاي) فـــي العهـد احترامـــا

أما البابا في روما فقد بارك هذه المذابح ، فكأن الإنجيل جاء للقتل لا للسلام [١]:

بـــــارك المطـــــران فـــــي أعمالهـــــم فســـلوه بـــارك القـــومَ علامـــا ٢

أبهـــــذا جاءهـــــم إنجيلهـــــم ؟ آمـــراً يلقـــي علـــى الأرض ســـلاما

كشـــفوا عـــن نيـــة الغـــرب لنـــا وجَلـــوْا عـــن أفـــق الشـــرق الظلامـــا

ويسخر الشاعر من ملك الإيطاليين **فكتور** إذ ترك جيشه مؤنة عظيمة وسلاحاً كثيراً :

خبِّـــروا (فكتـــور) عنـــا إنـــه أدهـــش العالـــم حـــرباً ونظامـــا

أدهـــش العـــالم لمـــا أن رأَوْا جيشـــه يســـبق فـــي الجـــري النعامـــا

لـــم يقـــف فـــي البـــر إلا ريثمـــا يســـلم الأرواح أو يلقـــي الزمامـــا

حاتـــم الطليـــان قـــد قلدتنـــا منَّـــة نذكرهـــا عامـــاً فعامـــا

أنـــت أهـــديت إلينـــا عُـــدَّةً ولباســـاً وشـــراباً وطعامـــا

وسلاحـــاً كـــان فـــي أيديكـــم ذا كـــلال فغـــدا يَفْـــري العظامـــا

ولما كانت حرب البلقان التي تولى كبرها الروس عام ١٩١٢ م وكثرت المصائب في الدولة العثمانية ، وجدنا الشاعر أحمد الكاشف يألم لما يجري ، فيخلد هذا الإحساس شعراً ويقول [٣]:

خطوبكـــم يـــا آل عثمـــان جَـــمَّة ولكنكـــم أقـــوى عليهـــا وأقـــدر

أمـــن دولـــة مجهـــودة بفريســـة إلـــى أربـــع خوَّانـــة تتنمَّـــر ٤

ويعدُّ هذه الحرب صليبية كافرة بل هي الشرك بعينه ، ويبين أن النصارى لم يفعلوا بما أمرهم به عيسى عليه السلام من مودة وحسن أخلاق ، بل سعوا إلى البغي والظلم :

صليبيـــة يـــا قـــوم أم عنصريـــة حـــروبكم ؟ والـــدين هـــذا أم الشـــرك ؟

وجيرانكـــم أعداؤكـــم أم حماتكـــم؟ وأعـــداء عيســـى المســـلمون أم التـــرك ؟

فهـــل كـــان عيســـى يطلـــب الثـــأر بالخنـــا ؟ وهـــل كـــان مـــن أخلاقـــه البغـــي والفتـــك ؟

---

[١] كان الشاعر معروف الرصافي قد طرح هذه الفكرة حين تحدث عن حرب طرابلس ، ديوانه ص / ٤٧٨ـ ٤٨١ / .

[٢] هذا ديدن النصارى والكافرين ، وقد وضح القرآن الكريم كرههم للمسلمين وأنهم لايرعَوْن عهداً ولا ذمة (لا يرقبون في مؤمن إلاً ولا ذمة ، وأولئك هُمُ المعتدون) .سورة الأنفال الآية ١١ .

[٣] ديوانه ص ١٨٧ .

[٤] الدول الأربع هي الصرب والبلغار واليونان والجبل الأسود .

ويصور كيف جاء الأعداء براً وبحراً يريدون إنهاء الخلافة فلما اشتكت الدولة العثمانية إلى الإنجليز والفرنسيين ما فعله الروس والنمساويون تنكر هؤلاء ، فعاد العثمانيون إلى القتال والجهاد ، فهذا أولى من التماس النصرة من أعداء الدين ثم يقول بثقة إن الخلافة ستبقى على رغم من رغم:

أفي كل برٍّ يحمل الشر جحفل؟ وفي كل بحرٍ يرتمي بالأذى فلك ؟

شكاكم إلى أشياعكم فتنكروا فعاد إلى أسيافه والقنا يشكو

تخرُّ الجبال الراسيات عليكم ولا تنقضي هذي الخلافة والملك

ويصف أثر المصيبة التي حلت بالعثمانيين في هذه الحرب على الأمصار الإسلامية ، فالعيد ليس عيداً والأنباء تترى فتقلق نفوس المسلمين ، ولعلَّ بيت الله الحرام وحجاجه قد بلغتهم خسارة العثمانيين فأجفلوا ، ولربما اهتز قبر رسول الله ﷺ ألماً لما سمع ، ويحاول الشاعر التصبر فلا يستطيع :

بأيَّة عيد أنت ياعيد عائد تفيض تباريحاً لنا أم شمائلا ؟ [1]

جزعت من الأنباء حتى كأنني ألاقي من الأنباء جيشاً مقاتلا

وهل علم القبر الكريم بما جرى فقد بات مهتزَّ الجوانب سائلا

ويزداد غمُّه وحزنه حين يتراءى له أن الجهاد توقف ولم يعد للإسلام جند تحميه من سطوة الأعداء :

عفاء على الدنيا إذا بتُّ لا أرى جحافل الإسلام تردي الجحافلا

كما نجد الرصافي يحزن لسقوط أدرنة في يد البلغار في الحرب العثمانية البلغارية عام ١٩١٢ م ، فنراه يؤكد على أن القتال سيعيدها إلى حوزة المسلمين وإن يكن ودَّعها فلن يكون الوداع طويلاً ، ثم يصف لوعته على المساجد التي هجرها مصلوها هرباً بحياتهم ، وأن سقوطها فادح فاجع هزَّ مكة والمدينة وتألم له الرسول الكريم محمد ﷺ وصاحباه أبوبكر وعمر وكل من سكن البقيع من الصحابة والتابعين والمجاهدين [2]:

أدرنة مهلاً فإن الظُّبا سترعى لك العهد والموثقا

وداعاً لمغناك زاهي الربا وداعاً ولكن إلى الملتقى

** ** **

عزاء لمسجدك الجامع أفارق محرابه المنبرا

وهل في مصلاه من راكع يجيب المؤذن إن كبَّرا

** ** **

فيا لسقوطك من فاجع به فجعَ الدهرُ أمَّ القرى

---

[1] الديوان ص ١٨٨ .

[2] ديوان الرصافي ص ٤٨٥ .

وقبـــــــر النبـــــوة فـــــي يثـــــرب ومثـــوى ضجيعَـــيْه مثـــوى التقـــى

ومـــن فـــي البقيـــع ومـــن فـــي قـــُبا ومـــن شـــهدوا الفتـــح والخندقـــا

وكان أمير الشعراء أحمد شوقي قد رثا أدرنة حين سقطت ، وقرن مصيبة المسلمين فيها بمصيبتهم في الأندلس [١] ، يقول في بعض أبياتها :

يـــا أخـــت أنـــدلس عليـــك ســـلام هـــوت الخلافـــة عنـــك والإســـلام

نـــزل الهـــلال عـــن الســـماء فليتهـــا طويـــت وعـــم العـــالمين ظـــلام

فالشاعر يتمنى لو أن القيامة قامت قبل حدوث هذه المصيبة في الدولة العثمانية .

وفي الحرب العالمية الأولى كان النصر حليف الأتراك وحليفتهم ألمانيا في أول الأمر ، لكن الموقف تغير بعد ١٩٢٠ م وبدأ الحلفاء يتقدمون فدخل البلغار أدرنة ، واحتلت اليونان إزمير ، وانطلقت شرقاً حتى كادت تصل أنقرة ، واحتل الإنجليز إستانبول ، وكان سقوط دولة الخلافة شراً وبيلاً بكى له المسلمون طويلاً ، وحين استطاع كمال أتاتورك بمساعدة الإنجليز وأسلحة روسيا الوقوف أمام اليونانيين ــ وكانت هذه المساعدة بسبب اختلاف المصالح بين اليونان والإنجليز ــ وطردهم إلى خارج الأراضي العثمانية ، زغردت النساء المسلمات في بقاع الأرض ، وبكى الرجال فرحاً بانتصار الإخوة في العقيدة ، ودبَّج كثير من الشعراء قصائد مدح في الجيش التركي وقائده ، ومن هؤلاء الشاعر محمود محمد صادق [٢] ، يقول في قصيدة (أفراح الشرق) [٣]:

أثلجـــت صـــدر الشـــرق يـــايوم المنـــى شـــفيت فـــي الـــنفس الغليـــل الصـــادي

وبعثـــت فـــي روح الحزيـــن تعـــزياً عـــن عـــزة راحـــت بمجـــد غـــادِ

وضـــمدت للإســـلام جرحـــاً طالمـــا مـــرَّ الزمـــان ولـــم يفـُـــز بضـــماد

اليـــوم نلـــبس فيـــك مـــن زهـــو الصبـــا بـــرداً ونخلـــع فيـــك ثـــوب حـــداد

هـــبُّوا بنـــي الشـــرق الجديـــد ورتلـــوا أنشـــودة الهيجـــاء خلـــف الحـــادي [٤]

واستقبلـــوا الفـــتح المبـــين وجـــددوا قســـم الوفـــاء لحرمـــة الأجـــداد

مـــن كـــان يحســـب أن يفـــوزعلى العـــدا قـــوم لهـــم كـــل الوجـــود معـــاد؟

---

[١] ديوان الشوقيات ج١ ص ٢٣٠ .

[٢] الشاعر محمود محمد صادق : لم أعثر على ترجمة له سوى أنه شاعر مصري له ديوانان (من وحي الفجر ، ووادي الدموع المطبوعان عام / ١٩٢٣ م / ، وفي الديوان الثاني منهما صورة للشاعر وعمره اثنان وعشرون عاماً فهو إذن من مواليد بدايات القرن العشرين ، قدم لديوانه الأول الأديب مصطفى لطفي المنفلوطي وقد نوَّه إلى ديوان ثالث لم أعثر عليه .

[٣] ديوان ( ) للشاعر محمود صادق ج٢ ص١٥٢ .

[٤] الشرق في مفهوم الشعراء والأدباء والمفكرين في النصف الأول من القرن العشرين : يعني الإسلام .

فالشاعر مزهو بما حدث من انتصار للأتراك على اليونانيين ، لذلك يطلب إلى الناس أن يهبوا إلى حياة جديدة يرتلون أنشودة الجهاد ويستقبلون الفتح الذي سماه (الفتح المبين) ، ويحسب المسكين أن كمالاً هذا يحارب لتثبيت الخلافة الإسلامية وإعادة هيبتها لها ، وما درى أنه يهودي ماسوني شارك في إخراج مسرحية للقضاء على الخلافة .. فما إن استتب الأمر له حتى ألغاها وقطع علائق تركيا بأخواتها الدول الإسلامية ، وزاد الطين بلة حين أعلن أنها دولة علمانية لاعلاقة لها بالدين أبداً .

ويحسب هذا الشاعر محمود صادق أن الخلافة الإسلامية التي لم تنقطع منذ عهد أبي بكر (رضي الله عنه) باقية لن تمسها يد بسوء ، فتراه يلتفت إلى بني عثمان ممثلين بالخليفة الاسمي (وحيد الدين) معلناً ولاءه وولاء المسلمين له ، قائلاً [1]:

إليكم بني عثمان في كل خطوة ... عواطف تصبو نحوكم وتشايع

إليكم أمانيها ، إليكم رجاؤها ... ومنكم وفيكم حرها والمدامع

إليكم وهذا الجيش يقتحم الذرا ... وتسعى للقياه الربا والمتالع ٢

ويطوي فجاج الأرض كالسيل جارفاً ... سواء لديه سهلها والمواقع

تدفقت الويلات والخصم ذاهل ... فما هب مذعورولا ارتد جازع

فتلك سراياهم وتلك فلولهم ... تلاقفُها آجالها والمصارع ٣

إذا أنت لم تشفع حقوقك بالقوى ... فعرضك مسلوب وحقك ضائع

فجيش الخليفة !! يقتحم تحصينات العدو ويتدفق السيل الحارف والويل الحاطم لكل سرايا الأعداء ، والعدو ذاهل مما حدث من انقلاب موازين الحرب ، وأحلام العدو تتقوض حين يطالب بالحق مشفوعاً بالقوة ، فيضطر للاستجابة ويستفيق عاى واقع لايسعده ، فإذا أحلامه كلها هباء منثور:

تقوضت الأحلام وانهارت المنى ... وكذاك ساءت بالبغاة المراتع

تفتح هذا الحلم عن يقظة الردى ... فما الجنَّة الفيحاء إلا بلاقع ٤

وجازت الخدعة على المسلمين [5] ، وكال له الشعراء المديح ، وسماه أمير الشعراء

أحمد شوقي (خالدَ الترك) في قصيدته الشهيرة (الأتراك في الحرب والسياسة [1]) والتي يقول فيها:

---

[1] ديوان وادي الدموع ص ١٥٤ من قصيدة بعنوان (ذكرى النصر الخالد)

[2] المتالع : جمع تلعة ، وهي ماارتفع من الأرض ، وما اتسع من فم الوادي .

[3] تلاقفها : فعل مضارع حذفت منه التاء الأولى والأصل تتلاقفها : أي تتلقاها بسرعة وخفة .

[4] البلاقع : جمع بلقع وهو المكان الخالي من كل شيء . والمعنى : خاب فأل الأعداء إذ حسبوا أنهم حين احتلوا جزءاً من تركيا فقد حققوا أحلامهم ودخلوا جنة الخلد ، فإذا المجاهدون يدكون سراياهم ويبيدونهم ، فقد قتلوا منهم أكثر من مئة ألف وأسروا ضعف هذا العدد فانتبه هؤلاء إلى أنهم وجدوا في هذه البلاد عكس ما حلموا فيها .

[5] التاريخ الإسلامي التاريخ المعاصر (تركيا) محمود شاكر ص ٤٢ .

الله أكبـر كـم فـي الفـتح مـن عجـب ... يـا خالـد التـرك جـدِّد خالـد العـرب[2]

صـلح عزيـز علـى حـرب مظفـرة ... فالسيف في غمده والحق في النصب [3]

سـئلت سـلماً علـى نصـر فجـدت بـه ... ولـو سـئلت بغيـر النصـر لـم تجـب

ويشتط الخيال بالشاعر لشدة فرحه بهذا النصر فيشبهه بيوم بدر :

يـوم كبـدر فخيـل الحـق راقصـة ... علـى الصـعيد وخيـل الله فـي السـحب [4]

وتاه بيت الله في مكة عجباً من هذا النصر العظيم ، وسرَّت الروضة الشريفة في المدينة المنورة ، وفرح المسلمون في أقاصي الأرض وأدانيهم :

لمـا أتيـت ببـدر مـن مطالعهـا ... تلفَّـت البيـت فـي الأسـتار والحجـب

وهشَّـت الروضـة الفيحـاء ضـاحكة ... إن المنـورة المسـكية التُـرَب

وأَرَّج الفـتح أرجـاء الحجـاز وكـم ... قضـى الليـاليَ لـم ينعـم ولـم يطـب

وازَّينـت أمهـات الشـرق واسـتبقت ... مهـارج الفـتح فـي الموشـية القشـب

هـزَّت دمشـق بنـي أيـوب فـانتبهوا ... يهنئـون بنـي حمـدان فـي حـلب

ومسـلموالهند والهنـدوس فـي جـذل ... ومسـلمو مصـر والأقبـاط فـي طـرب

و**لكنْ** ـ بعد ذلك ـ فوجئ المسلمون جميعاً بهذا الزعيم (كمال أتاتورك) يقلب لهم ظهر المجن ويلغي الخلافة ويطمس معالمها ، فكانت المسرحية التي رسمها ساسة الغرب وحبكوها ، ونفذها اليهودي كمال أتاتورك للقضاء على معالم الإسلام الذي عمَّ العالم ونشر الخير على العالم أجمع فأشعل الحقد في قلوب أعدائه إلى أن تم لهم ما أرادوا .

---

[1] ديوان شوقي ج١ ص / ٢٩ـ ٦٤ / .

[2] جعل الشاعر في سورة فرحه كمال أتاتورك في مقام خالد بن الوليد رضي الله عنه الذي قضى على امبراطورية الفرس في العراق وامبراطورية الروم في الشام .

[3] هذا البيت وما بعده يؤكد انسحاب اليونانيين من المناطق التي احتلوها في تركيا دون قتال إثر خطة مرسومة مدبرة .

[4] إشارة إلى قتال الملائكة في غزوة بدر : (إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا ، سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب ، فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان) . سورة الأنفال الآية ١٢ .

الفصل الثاني
شعر الفتوحات في الجبهة الشرقية

وكما أننا لم نجد شعراً عربياً يكافئ الانتصارات العثمانية وفتوحاتها في الغرب ؛ على الرغم من البحث الدؤوب في العديد من مكتبات الإمارات العربية المتحدة ؛ وعلى رأسها مكتبة السيد جمعة الماجد في دبي والمكتبة الوطنية في استانبول ، وعلى الرغم من مراجعة كثير من الكتب المهتمة بالأدب العربي في هذا العصر ، فكذلك لم نجد أشعاراً تدل على اهتمام الشعراء العرب بالمساجلات والحروب بين العثمانيين والصفويين بله القصائد التي لا تروي صادياً متعطشاً لمتابعة أدب الحروب التي دامت ثلاثة قرون .

وصحيح أن ما بين يديَّ يوضح العلاقة بين الطرفين ويرصد العداوة المستحكمة بينهما إلا أنني كنت أطمع بالمزيد من ذلك .

يقول صاحب كتاب (**إيران وعلاقتها الخارجية في العصر الصفوي**) [١] بعد تحليلات واضحة : إن أسرة الشيخ صفي الدين الأردبيلي / ٦٥٠ ـ ٧٣٥ هـ / التي ينتسب إليها الصفويون ليست من آل البيت ، إنما من الأسر المحلية الإيرانية ، وبعضهم ينسب هذا الرجل إلى تركيا [٢] وقد تزوج حفيده السلطان حسن بك قوينلو من مسيحية كانت أختها زوج سفير البندقية ، وكان لهذا التزاوج الشيعي النصراني أثره الإيجابي على العلاقات الشيعية الأوروبية من جهة والشيعية العثمانية السنية من جهة أخرى [٣] .

وحين اعتلى إسماعيل الصفوي [٤] عرش الدولة الصفوية أجرى حمامات من الدم ليثبت هذا العرش [٥] ولم يوفر من مناوئيه الإيرانيين ولا الأكراد أحداً ، وأول صِدام حقيقي كان بين السلطان سليم الأول [٦] وبين عباس الصفوي حين هرب أحد أبناء السلطان سليم إلى الشاه إسماعيل فأمر السلطان سليم غريمه أن يعيد إليه الهارب فرفض ، وكان بينهما رسائل فيها تحد واستفزاز رمى كل واحد منهما الآخر بمنقصة [٧] ، ثم كان بينهما لقاء في سهل (جالدران) قرب تبريز ، ودارت الدائرة فيه على عباس الصفوي ، ودخل السلطان سليم تبريز .

---

١ صفحة (هـ) من كتاب إيران وعلاقتها الخارجية في العصر الصفوي .

٢ المصدر نفسه ص (و) .

٣ المصدر نفسه ص (يب) .

٤ اسماعيل الصوفي : هو اسماعيل بن طهماز بن عباس ، لقب بالصوفي نسبة إلى جبل الصوف المزاحم لأنطاكية ، وذلك لكون جده (حيدر الجنيد) قد نشأ هناك ، تغلب على العراق والعجم ، ثم سار إليه السلطان سليم الأول سنة / ٩٢٣ هـ / وهزمه وفتح تبريز ، كان ينصر الشيعة ، وقد خلفه ابنه طهماز . الأعلام ج ١ ص / ١٣٥ ـ ١٣٦ / .

٥ المصدر نفسه من ص (يز) إلى (ك) .

٦ السلطان سليم الأول بن بيازيد بن محمد الفاتح / ٨٧٢ ـ ٩٢٣ هـ / تاسع السلاطين العثمانيين ، تنازل له والده عن الحكم فتربع على كرسي السلطنة وله من العمر ستة وأربعون عاماً ، كان عظيم البأس جباراً ، وله نظم بالعربية والتركية والفارسية ، وله بروضة القياس في مصر بيتان هما :

الملك لله من يظفر بنيل غنى يسلبه قهراً ومن ذا يضمن الدركا
لو أن لي أو لغيري قيــد أنملة فوق التراب لكان الأمر مشــتركا

٧ المصدر نفسه من ص (لز) إلى (لح) .

وأنقل ـ هنا ـ من كتاب مفاكهة الخلان في حوادث الزمان : تاريخ مصر والشام[1] صورة حية عن القتال الذي دار بين العثمانيين والصفويين :

ورد في هذا الكتاب المرسوم السلطاني لفاتح البلاد العربية والفارسية السلطان سليم الأول وصف لقتال ملك الفرس اسماعيل الصفوي وفتح تبريز في شهر رجب سنة ٩٢٠ هـ جدير أن يذكر كله ، لكننا نكتفي بسوق بعضه لما فيه من فائدة في توضيح سير المعركة بين السلطان العثماني والملك الفارسي :

(الحمد لله الذي أذلَّ أعداءنا وأجلَّ أولياءنا ، وأظفر بنبيل المأرب رجاءنا ، وجعل أيامنا بالأيامن مسفرة، ولياليها بغرر الميامن مقمرة ، ومساعينا بالمحامد مثمرة ومعاهد معادينا بقهر النقم مقفرة) ... ثم يصلي على رسول الله صلى الله عليه وسلم ويترضى على الصحابة البررة ويقول [2]:

(وبعد .. فإنا أرصدنا هذه المفاوضة الشريفة إلى الحضرة العلية للأعلمية الأجملية ، الأورعية الأروعية ، الأكملية الأفضلية ، الأعدلية الأكرمية ، الأفخمية الأعظمية ، العونية الغوثية الغياثية ، وهو الذي جمع المحاسن كلها واستولى على المفاخر قلِّها وجلِّها ، وألقت إليه المعالي مقاليدها ، وأرجعت إليه أخبار المكارم أسانيدها ، حامي الحرمين المكرمين ، المبجلين المعظمين ، كهف المظلومين ، ملاذ المظلومين نصير الإسلام والمسلمين ظهير أمير المؤمنين [3] أعز الله أنصاره وضاعف اقتداره وأيد دولته وأجزل من الخيرات همته .)

ثم يقول (وتبدى لعلمه الكريم أن الرجل الجافي المدعو إسماعيل الصوفي قد خرج من جيلان واجتمع على الملاحدة وأحزاب الشيطان فسار بهم إلى سروان ودخله غصباً وأوسعه نهباً ، ثم هجم على أذربيجان عنوة فنال منها حظوة ..) .. (ثم استولى على ممالك الشرق يوماً فيوما ..)

(.. وقد تعين الجهاد على كل مسلم ، من حارب هذا العدو الكافر ما غُلِبَ بل غَلب ومن صادف ذاك الغوي الفاجر ما سُلِب بل سَلَب ..)

ثم وصف نفاق الناس وانتشار الفساد : (فعجز الناس وتبرأوا من اعتداد العدة ، والغدر جرى على كل لسان لكل قوم مدة فأظلمت الآفاق من غياباتهم ، وأشفق الإسلام من نكاياتهم ، فنادى بلسان الحال كل قوم : أين المؤدون فرض الجهاد المتعين ؟ وأين المهتدون في تهييج الرشاد المتدين ؟ .. فلما اقتربت الساعة التي قدر فيها رغم أنفه، وحان ظهور الآية التي جعلت سبباً لهلاكه وحتفه ، ألهمنا الله أن نهتم لهذا الأمر الخطير لأنه من أفرض الهامِّ وأهمِّ الفروض ، واختال في صدورنا أن ننفرد في حمل عبء هذا القادم الباهظ بالنهوض ، فقلنا : إن هذا

---

[1] الكتاب لشمس الدين محمد بن طولون / ٨٨٠ ـ ٩٥٣ هـ / مؤرخ وعالم بالتراجم والفقه ، من الصالحية في دمشق ، لم يتزوج له مشاركة في التعبير والطب وله نظم لكنه لم يكن شاعراً ، وله كتب منها مفاكهة الخلان ، وإنباء الأمراء بأنباء الوزراء ، و القلائد الجوهرية و قضاة دمشق . الأعلام ج ٦ ، ص ٢٩١ .

[2] مفاكهة الخلان ، القسم الثاني ص / ٤٧ ـ ٥٧ / .

[3] لاحظ ما يلي : أ ـ الصفات التي أسبغها السلطان على نفسه ، فهذا الكلام ورد في المرسوم السلطاني كما ذكرنا .
ب ـ انتماءه للخلافة العباسية التي كان خليفتها يقبع في القاهرة ، فلما فتح السلطان سليم مصر انتزعها منه .

فضيلة خصَّنا الله بها وأسعدنا بسببها .. فدعونا مشايخ الفقهاء ومشاهير العلماء واستفتيناهم عن حالهم وسألناهم عن قتالهم فأفتوا مطابقين ، وأجابوا متوافقين ، بأن سعي من جدَّ في قمعهم مشكور ، وعمل من جاهد في دفعهم مبرور ، فحكموا لدينا بكفرهم وإلحادهم وارتدادهم ، فقوي عزمنا وقمنا على ساق الجد والاجتهاد ، فاشتد علينا من جميع الجهات جموع الجهاد ، واجتمع جمٌّ غفير .. فبعثت العساكر الإسلامية للتوجه إلى بلاد الشرق في زمن الربيع النضير ، فعبرنا ــ بعد الاستخارة لله عزَّ وجلَّ في شهر صفر ختم الخير والظفر ــ من خليج قسطنطينية حماها الله من البلية وكبتنا إليه كتاباً مستطاباً ، متضمناً للنصيحة والموعظة ، فأمرنا فيه أن يتوب من جرائمه وجرائره ، ويستغفر لصغائره وكبائره ، ويغيِّر ما تعود في الأيام الماضية والأعوام الخالية من سوء الاعتقاد وتعذيب العباد ، والفعل اللئيم والخلق الذميم فقلنا { لئن لم تنتهوا لنرجمنَّكم وليمسَّنكم منا عذاب أليم } [١] وأوضحنا المعاني المنيعة باللفظ الوجيز ، فما وُفِّقَ لذلك والتوفيق عزيز .. فسرت مستعيناً بالله إلى دياره وبلاده مصمم العزيمة على قتاله وجِلاده فمادت الأرض بحركتنا ، وغامت السماء من غبرتنا واضطربت السهول والدُّعوث [٢] وانبعثت الهمم وهجم البعوث والعسكر في كل يوم يعدون ويغتدون ، وفيما يجدون الطريق إليه من النكاية في العدو يمدُّون ويجيدون ..) ويصف المسير إلى العراق ، ثم يقول :

(.. وأرسلنا إليه كتاباً آخر داعياً للطعن والضرب مستدعياً منه المقارعة والحرب وأردفنا رسولاً برسول ، وألزمناه القتال بمعقول ومنقول { واضرب لهم مثلاً أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون ، إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث فقالوا إنا إليكم مرسلون [٣] } فإذا بلغنا المنازل القريبة من بلدة تبريز دعته الضلالة إلى المكابرة بحسِّه وخطاره بنفسه .. فسار بكثره وقلِّه وجزئه وكله ، وجاء والإدبار قائده ، والخذلان رائده موضعاً يسمى (خالدران) فاختاره لأن يكون معارك القتال ، ومصارع الرجال ، ومجامع الأبطال ومطالع اللقاء ومواضع الهيجاء ..

وكان الجمعان في تلك الليلة الظلماء على تعبئتهما وإجابة داعي الموت بتلبيتهما ، وباب الإسلام للكفر مقابلا والرشد للرفض مقاتلا ، والهدى للضلالة مراقبا ، والحق للباطل محاربا .. وهيئت دركات النيران وهنَّأت درجات الجنان وانتظر مالك واستبشر رضوان [٤] فلما تجلى الصبح وعموده ، وانهزم الليل وجنوده ، وانتكست أعلامه وبنوده ، نفر النفير غراب الغبار وانتبهت في الجفون الصوارم وسقط النار ، وماجت خضارمنا ، وهاجت ضراغمنا .. وترتبت أطلابنا على قلب وجناح داعين للفوز والنجاح ، وعُيِّن لكل أمير موقف لايبرح عنه ولايغيب جمعه ولا أحد عنه ، فاتحدنا عليهم بهيئة مهيبة وأبَّهة عجيبة ، والتوفيق مسامرنا والتأييد مؤازرنا، والتمكين مقارننا والجد مكاثرنا ، والقدر مسامرنا ، والظفر مجاورنا ، والإسلام شاكرنا والله عز وجل

---

[١] سورة يس الآية ١٨ .

[٢] الدعوث : التراب المدقوق على وجه الأرض بالقدم ، والمقصود اضطربت الأرض تحت أقدامنا .

[٣] سورة يس الآية ١٤ .

[٤] مالك خازن النار ورضوان خازن الجنة .

ناصرنا ..) ثم يصف القتال ويذكر أنهم مئات الآلاف أو يزيدون ، ويدِق في الوصف ومعالجة القتال إلى أن ينتهي بخسارة الصفويين :

(.. وساعدت الأقدار وتباعدت الأكدار ، كلما ساروا وشدُّوا أُسِروا وشُدُّوا ، وناسبهم النشَّاب فعادت أسودهم قنافذ وسابقتهم السهام فوسَّعت فيهم الخَرْق النافذ ، فمنَّ الله علينا بالفتح الجميل وأيدنا من عنده بالنصر الجليل ، فزلت أقدامهم وولت أعلامهم ، وانحل عقدهم وانفك حدهم ، وانتكس تدبيرهم وانعكس تقديرهم ، فما بقي من تلك الآلف آحاد وما نجا من هذه الأعداد أعداد .. فأما من أُسِر فلم يكفِ أطناب الخيام لقيده وشده ، وأما من قُتِل فقد حُصِرت الألسن عن حصره وعدِّه ، فلم تقع إلا على أشلاء طريحة وأعضاء جريحة ، وعادت الغبراء حمراء وجرت أنهار الدماء .. فقعدنا في ذلك المنزل يوماً واحداً ثم أصبحنا على عقبه سائرين مسرورين محبورين ، والوجوه سافرة والألسن بأنعم الله شاكرة ، فحللنا بالطائر الأسعد والمجد الأمجد ببلدة تبريز ..)

ثم يصف الفرح والسرور والصلاة الجامعة في تبريز ، وعودة أهل السنة إلى صلاتهم الجامعة ، وحمد الله على النصر .

إن المتتبع للعلاقة المتوترة والحروب الطاحنة بين العثمانيين والصفويين ليلمح العداء المستحكم بين الدولتين على أساس مذهبي ، فكل من الطرفين يدعي الهدى والرشاد وينعت خصمه ـ كما رأينا في سرد أحداث المعركة في جالديران ـ بالكفر والمروق ، والخروج عن الهدى والسداد .

لقد كان بين نصارى أوروبا وبين الصفويين أحلاف ومعاهدات ضد الدولة العثمانية الواقعة بينهما ، ولقد كان للصفويين الأثر السلبي السيئ على حروب العثمانيين على الجناح الغربي لحدودها ، فما من موقعة تجري بينهما وبين الأوروبيين وتكاد تنتصر فيها ، إلا رأيتها تتوقف عنها لأن الصفويين في الجبهة الشرقية بدؤوا هجوماً كاسحاً عليها ، فلماذا يفعل الصفويون ذلك ؟!.. وماالذي يريدونه من هجومهم في هذا الوقت الحرج ؟!

إن نظرة سريعة إلى رسائل الشاه عباس إلى ملوك أوروبا وحكامها تجيب عن هذه التساؤلات ، فهي تشتمل على الشروط والموضوعات التالية [1] :

١ ـ يفتح شاه إيران باب الصداقة للنصارى كرهاً في العثمانيين العدو المشترك بينهما .

٢ ـ يرغب في الاطمئنان إلى مساعدة دول أوروبا له إذا دخل في حرب مع هذا العدو المشترك بينهما (العثمانيين) ، وبالتالي فالحرب لن تلقى على عاتقه وحده .

٣ ـ طلب إلى امبراطور ألمانيا وبابا روما وسائر حكام أوروبا أن يلغوا معاهدات الصداقة مع العثمانيين ، وإن لم يستطيعوا مساعدة الشاه جهرة فعليهم مساعدته في الخفاء .

٤ ـ على التجار الأوروبيين الذين يوردون الأسلحة إلى العثمانيين التوقف عن ذلك .

---

[1] كتاب (إيران وعلاقتها الخارجية في العصر الصفوي) ص / ٢٦ـ ٢٧ / .

٥ ــ يعد الشاه الدول الأوروبية إذا ما اتحدت ضد العثمانيين وبدؤوا الحرب أن يدعمهم فوراً بستين ألف مقاتل مجهز بأحدث الأسلحة .

٦ ــ لا يحق لأي دولة بدأت الحرب ضد العثمانيين مشتركة مع غيرها من الدول أن تنسحب من المعركة أو تدخل صلحاً دون استشارة بقية الحلفاء .

٧ ــ يعِدُ الأوروبيين إذا ما اتحدوا معه ضد العثمانيين أن يسمح لهم بحرية نشر النصرانية في كل إيران ، وبتشييد الكنائس والمنازل ومزاولة طقوسهم الدينية !!..

فالعداوة إذن تعدت المعقول ، وصار النصراني أقرب إلى نفوس الصفويين من العثمانيين ، ولابأس أن يغيَّر الناس عقيدتهم في إيران إذا كان الثمن زوال الدولة العثمانية !! ولذلك لم يكن أمام الدولة العثمانية إزاء هذا العداء السافر والحقد الأسود إلا أن تكيل للصفويين الضربة تلو الأخرى ، وهذا ما كان.

هذا من الناحية التاريخية ، أما من الناحية الأدبية فقد سبق أن ذكرنا أن القصائد التي أرَّخت لهذه الحروب كانت قليلة ، إلا أنها كانت كافية لتوضيح العلاقة بين الدولة العثمانية والدولة الصفوية .

فحين أعاد السلطان سليمان القانوني بن السلطان سليم الأول [١] فتحها من جديد وهزم الشيعة ، مدحه ابن الحنبلي [٢] عندما وصل إلى حلب راجعاً من خراسان ، وأرخ فتحه تلك البلاد وقضاءه على (قزل باش ، أي الرؤوس الحمراء) أصحاب الصوفية الجديدة :

مُلكُ سليمان عزَّ ناصره ... مُيِّزَ بالمجد فضل تمييز [٣]

ثم بعون المليك نال عُلا ... إذ قهر الضدَّ قهر تعجيز

مشتهراً أن حدَّ صارمه ... قد ملك الفرس ملك تنجيز

ينشد من رام أن يؤرخه ... " زد لسليمان ملك تبريز" [٤]

وحين توفي الشاه الصفوي طهماسب / سنة ٩٨٤ هـ / وخلفه ابنه حيدر فقتل بعد ساعات ودفن مع أبيه ، وتولى أخوه محمد خدابنده ، واختلف الناس عليه ، استغل العثمانيون هذه الفرصة وأرسلوا جيشاً احتل الكرج ، ودخل عاصمتها تفليس سنة / ٩٨٥ هـ / ثم دخلوا بعد سنة شروان (أذربيجان الشمالية) ..

وفي سنة / ٩٩١ هـ / استولى العثمانيون بقيادة عثمان باشا [١] على بلاد داغستان ، وحين عُيِّن عثمان باشا صدراً أعظم سار إلى الصفويين ثانية والتقى بقائدهم حمزة ميرزا وانتصر عليه ودخل عاصمتهم تبريز ،

---

[١] السلطان سليمان القانوني بن السلطان سليم الأول / ٩٠٠ ــ ٩٧٤ هـ / بلغت الدولة العثمانية في عهده أوج قوتها ، حكم ثمانية وأربعين سنة وفتح الكثير من دول شرق أوروبا وضمها إليه ، وفتح العراق وخراسان ، ومات على فرسه مجاهداً على أبواب النمسا وكان شاعراً يرمز لنفسه باسم (محبي) ، له ديوان مطبوع التاريخ الإسلامي ص/ ١٠٤ ــ١١٠ / .

[٢] ابن الحنبلي : رضي الدين محمد بن إبراهيم بن يوسف الحلبي / ٩٠٨ ــ ٩٧١ هـ / ، مؤرخ من علماء حلب ، مولده ووفاته فيها ، له نيف وخمسون مصنفاً منها : (درر الحبب في تاريخ أعيان حلب) وديوان شعر مخطوط . الأعلام ج٥ ص ٣٠٢ .

[٣] در الحبب ، الجزء الأول ، القسم الأول ص ١٠٨ .

[٤] هذه العبارة " زد لسليمان ملك تبريز " توافق في حساب الجُمَّل سنة ٩٤١ هـ ، وهي فعلاً السنة التي فتحت فيها تبريز . وسوف نعرض لشعر التأريخ (حساب الجمل) في أغراض الشعر ــ إن شاء الله تعالى ــ .

ثم جرى الصلح بين الطرفين وتنازل الصفويون للعثمانيين عن بلاد الكرج وشروان ولورستان الواقعة جنوب أذربيجان سنة / ٩٩٣ هـ / ، كان الشاعر المعروف فيض الله بن أحمد والمشهور بابن القاف [٢] نزيل القسطنطينية إذ ذاك فمدح السلطان مراد بن سليم بهذه المناسبة وذكر فيها القائد المظفر عثمان باشا، يقول [٣]:

لله درُّ جيوش الروم إذ ظهروا ... على الروافض من ساءت بهم عبر

كم أبدعوا بدَعاً سباً ومظلمة ... لهم قلوب يحاكي لينها الحجر

فالناس تجأر للرحمن من يدهم ... والله يسمع منهم كلما جأروا

أتت إليهم جيوش الروم يقدمها ... من بأسها المنذران الخوف والحذر

وعندما اقترب الجيش العرمرم من ... تبريز ثم بدا من ذاتهم خور

فشجعوا أنفساً منهم قد امتلأت ... جبناً وقد طاشت الأحلام والفكر

ظنوا بأن الليالي نحوهم نظرت ... فأخطأ الظن لمَّا أخطأ النظر

وأمَّلوا سَحَراً من ليل كربتهم ... فلم يكن لدجى أوصابهم سَحَر

لمَّا رأى بأسنا حمر الروؤس إذاً ... فرُّوا كما فرَّ من أسد الشربالحُمُر

قلوبهم خشيت ، أبصارهم عميت ... شاهت وجوههم خوفاً وقد خسروا

سطَوْا بهم ، فتراهم : ذا يفرُّ وذا ... عان أسير وذا في الترب منعفر

والنقع ليل بهيم لا نجوم به ... تلوح للعين ، إلا البيض والسُمُر

فالبيض في يدهم صارت صوالجة ... والأرؤس الحُمُر فيما بينهم أُكُر

كأنما السمر مغناطيس أنفسهم ... فحيث مالت ترى الأرواح تنتثر

ذوت رياض أمانيهم فلا ثمر ... يلوح فيها ولا في دوحها ثمر

وللفرار إلى الأقطار قد نفروا ... ومالهم معشر فيها ولا نفر

فأصبحوا لا ترى إلا مساكنهم ... وقد خلت ما بها عين ولا أثر

وتخت تبريز نادى وهو مبتهج ... هذا الزمان الذي قد كنت أنتظر

---

[١] عثمان باشا : سماه المستشرق زامباور في معجم الأنساب ص / ٢٤٢ / أوغلو عثمان أوزد مور ، وكان رابع الصدور العظام على عهد السلطان مراد بن سليم ، أما المعلومات التي استقيناها للمقدمة فمن كتاب العهد العثماني ص / ١٢٧ ـ ١٢٨ / ، ولم نلقى لعثمان باشا ترجمة شافية .

[٢] فيض الله بن أحمد (ابن القاف الرومي) ٩٥٠ ـ ١٠٢٠ هـ فاضل من القضاة ، أصله من الترك ، كان فصيحاً عارفاً باللغة العربية وآدابها ، ولي قضاء حلب ثم قضاء الشام ثم قضاء غلطة (في استانبول حالياً) . نفحة الريحان ج ٣ ، ص ٩٣ . والأعلام ج ٥ ص ١٦٨. والمقصود بالروم : التركُ. حين دخل حلب أنشد لنفسه قصيدة طويلة في مدحها ، مستهلها :

الحمد لله منجينا من الكرب ... جئنا إلى حلب الشهبا بلا تعب

مصرٌ جليل خليل الله عمَّره ... طوبى لساكن مصر قد بناه نبي

من خلاصة الأثر ج٣ ، ص٢٨٨ .

[٣] القصيدة في خلاصة الأثر ج٣ ص ٢٩٠ ، وفي نفحة الريحانة ج ٣ ص ٩٤ .

فيـــا مليـــكاً لـــه كـــل الملـــوك غـــدت ... تديـــن طوعـــاً وتـــأتي وهـــي تعتـــذر

سِـــرْواملك الأرض والـــدنيا فأنـــت إذن ... اسكندرالعصـــر قـــد وافـــى بـــه الخضـــر

فيالهـــا نعمـــــة آثـــــار مفخـــــرها ... كانـــت لدولتـــــه الغـــــراء تدَّخـــــر

ظـــلُّ الإلـــه مـــراد الله قـــد شـــرفت ... بـــــه المنابـــــر والتيجـــان والسُـــرُر

أجـــلُّ مـــن وطـــئ الغبـــراء مـــن ملـــك ... بأمـــــره ســـــائر الأمـــــلاك تأتمـــــر

لـــو فاخرتـــه ملـــوك الأرض قاطبـــــة ... مـــا نـــالهم مـــن معـــالي فخـــره العُشُـــر

وهل يستوي الشمس والمصباح جنح دجى ... ويســـتوي الجاريـــان البحـــر والنَـــهَـــر

لا زال ملكـــــك دوريُّ الســـــعود فـــــلا ... يُـــرى لـــه آخـــر فـــي الدهـــر يُـنْـــتظَر

بدولـــة تخـــــلق الأيـــــام حدتـهـــــا ... مـــا لاح جـــنحَ الليـــالي الأنجُـــمُ الزُهـــرُ

وعلى عهد السلطان مراد الرابع قام قائد شرطة بغداد فقتل الوالي واتصل بالصفويين عارضاً عليهم تسليم بغداد ، واتصل في الوقت نفسه مع القائد العثماني أحمد حافظ عارضاً عليه تسليم بغداد أيضاً ، على أن يتسلم هو ولايتها لكن كثرة جيوش إسماعيل الصفوي جعلت القائد العثماني ينسحب من بغداد فدخلها إسماعيل سنة / ١٠٣٠هـ / وحين توفي الشاه سنة / ١٠٣٨ هـ / حاول الصدر الأعظم العثماني استعادتها فلم يفلح ، وفي سنة ١٠٤٥ هـ / سار السلطان بنفسه إلى تبريز ودخلها عنوة ، ولما رجع إلى استانبول قويت عزيمة الصفويين وانتصروا على العثمانيين واستردوا بعض القلاع ، ووصلت الأخبار إلى الخليفة فجهز جيشاً وهاجم به بغداد ففتحها سنة / ١٠٤٨ هـ / وإن استشهد الصدر الأعظم محمد الطيار باشا ، فإن بغداد منذ ذلك الحين ظلت بيد العثمانيين ، واغتنم الشاعر القاضي المكي تاج الدين المالكي [١] هذا الفتح المبارك ، ومدح الخليفة قائلاً [٢]

خليـــــفة الله مـــــراد غـــــزا ... قلعـــــة بغـــــداد فأرداهـــــا

وعندمـــــا حاصرهـــــا جيشـــــه ... انـــــدك للأســـــفل أعلاهـــــا

وأصبـــــح الشـــــاه ذبيحـــــاً لمـــــا ... أخبـــــره مـــــن كثـــــرة قتلاهـــــا [٣]

هـــــذا اختصـــــارالقول فيهـــــا فـــــإن ... قيـــــل لقـــــد أجملـــــت ذكراهـــــا

فلتشـــــرحن فعـــــل مـــــراد بهـــــا ... مؤرخـــــاً قـــــد ذَبَـــــحَ الشـــــاها [٤]

---

[١] تاج الدين بن أحمد بن إبراهيم الأنصاري المدني المالكي ، قاض وأديب يقال له ابن يعقوب ، من أهالي مكة ، أصله من المدينة ، كان حسن الإنشاء ، في شعره رقة ، وكان في مكة من صدور الخطباء والمدرسين ، وأكابر العلماء المحققين ، و له من الكتب : ديوان إنشاء و فتاوى فقهية جمعها ولده أحمد ، الأعلام ج٢ ص٨٢ ، وخلاصة الأثر ج ١ ص / ٤٠٦ وما بعدها .

[٢] خلاصة الأثر ج٤ ص٣٣٩ .

[٣] ذكر المحبي في خلاصة الأثر أن بغداد حين فتحت قتل ما لا يقل عن عشرين ألفاً من جنود الشيعة / ص ٣٣٩ .

[٤] في حساب الجُمَّل : قد ذبح الشاها تصادف سنة / ١٠٤٨ هـ / ، وهو الشاه ميرزا بن الشاه عباس الصفوي .

ذكرنا فيما مضى أهم الأعمال التي حدثت في عهد الخلفاء العثمانين والحروب التي خاضوها ضد الشيعة ، لكنَّ أهم هذه الأعمال : المعركة التي أرخ لها الشعراء تأريخاً دقيقاً وأكثروا من الحديث عنها ، تلك المعركة التي حدثت سنة / ١١٥٦هـ / حين حاصر الشيعة الموصل وحاولوا اقتحامها وتدميرها ، كما فعلوا في كركوك وأربيل وغيرهما من المدن العراقية بقيادة ملكهم نادر شاه [١] ، وثبات أهل الموصل بقيادة واليهم الحاج حسين باشا الجليلي [٢] . ومن الشعراء الذين تفاعلوا مع هذه المعركة وجَلَدها ومدح قائدها العثماني الوالي الجليلي الشاعر السيد فتح الله [٣] بأرجوزة طويلة زادت على المئتين من الأبيات ، يصف فيها المعركة والاستعداد لها ، ومجيء جند نادر شاه ، والقتال الذي دار بين الطرفين ، والبطولات التي أبداها المدافعون ، وذلك بأسلوب بسيط ووصف دقيق ومعنى لطيف :

فحين علم الناس بزحف نادر شاه عليهم صاروا حيارى وكأنهم سكارى ، فاستشارهم الوالي حسين باشا ونصحهم قائلاً :

فاستمعوا لنصحي ألا أخبركم ... لعل جبار السما يجبركم

نحفر خندقاً ونبني سورا ... ونحفظ العيال ثم الدورا

فأدركتنا غيرة الغيور ... في حفر خندق وضرب سور

بذلنا جهداً وصرفنا مالا ... لنحفظ الأموال والعيالا

وكان ذا من همة الوزير ... صاحب عزم كامل غفير

ووصف ماكان يفعله جيش نادر شاه وهو في طريقه إلى الموصل :

ومذ أتى شهر جماد الأول ... قد زحف الملعون للمعوّل

من بعدها جاء لشهر زور ... وضرَّ بالدور وبالقصور

وجنده تنهب بالأطراف ... وهذا مشهور بلا خلاف

---

[١] نادر شاه : أحد قادة الصفويين والوالي على خراسان ، لم يرض بما فعله شاه الصفويين طهماسب حين عقد الصلح مع العثمانيين سنة / ١١٤٤ هـ / وتخلى لهم عن تبريز وهمدان واقليم لورستان ، فسار إلى أصفهان وعزل الشاه وولى مكانه ابنه عباساً الذي كان لا يزال طفلاً ، وأخذ الوصاية عليه ، وسار لحرب العثمانيين فانتصر عليهم وحاصر بغداد ، وطلب العثمانيون الصلح وجرى الاتفاق عليه سنة / ١١٩٤ هـ / في مدينة تفليس حيث أعلن نادر خان نفسه ملكاً على الفرس ، وردَّ إليه العثمانيون كل ما أخذوه منهم ، التاريخ الإسلامي ص ١٤٥ ..... يتبع =
= وفي سنة / ١١٥٦ هـ / اقتحم نادر شاه العراق قاصداً الموصل للاستيلاء عليها ، بعد أن استولى على كركوك وأربيل ، على رأس جيش قوامه ثلاثمئة ألف جندي ، وحاصر الموصل وأقام حول البلد بروجاً لضربها بالمدافع ، وبذل جهداً كبيراً للاستيلاء عليها ، فلم يفلح ، واستمر الحصار نحواً من ثلاثة أشهر ، ثم أرسل يفاوض في الصلح ، وعاد من حيث أتى في الرابع من رمضان من السنة نفسها . الروض النضر ج٢ ، ص / ٥٠٦ ـ ٥٠٧ / .

[٢] الحاج حسين باشاالجليلي : هو ثاني من ولي من أهل بيته / ١١٠٧ ـ ١١٧١ هـ / عرف بحسن تدبيره وأصالة رأيه ،وكان أهل الموصل يسمونه أبانا وباشانا لشدة تعلقهم به ، تولى الموصل ثماني مرات ، كانت الأولى سنة / ١١٤٣ هـ / ، وقد دافع عن الموصل دفاعاً مجيداً حين أرسل طهماسب قائده نركز خان للاستيلاء عليها سنة / ١١٤٥ هـ / فرد عسكره مدحوراً وقتله ، وحين هاجمها الشاه نادر سنة / ١١٥٦ هـ / أمر بحفر خندق حولها ورمم سورها وثبت وجنوده واستماتوا في الدفاع عنها ، وحين أعيد إلى الموصل والياً للمرة الثامنة مرض فيها ولبث شهرين قبل أن يتوفى ويدفن في الجامع الذي بناه ابنه محمد أمين ، كان ميالاً إلى الإصلاح والعمران ، محباً للعلم وأهله .

[٣] السيد فتح الله الشريف المتولي على وقف النبي يوسف بن متى ـ عليه السلام ـ في الموصل ، عاش فوق التسعين ، رحل إلى القسطنطينية عدة مرات ، له اليد الطولى في سرعة الكتابة وجودة الخط ، وله شعر حسن ومدائح جيدة منها القصيدة المذكورة ، نشرت هذه القصيدة بمجلة المجمع العراقي العلمي عام / ١٩٦٤ م / ، الروض النضر ج٢ ص٢٧٩ .

ومـــذ أتـــى شـــهر جمـــاد الآخـــر أتانـــا خـــوف مالـــه مـــن آخـــر

لـــكونه جـــاء إلـــى كـــركوك أحـــاط بالمـــالك والمملـــوك

ويصف ما حلَّ بأهل كركوك ، والفزع الذي خلفه ذلك في نفوس أهل الموصل :

فاختـل عقـل النـاس مـن هـذا الخبـر وشـاع هـذا القـول فينـا واشـتهر

مـن بعـد أن مـرَّ قليـل الـوقت كعشـرة أو سـبعة أو سـت

إلا وجـاء القـول مـن أربيـل بأنهـا طاعـت لـه بالقيـل

ثم يصف ما فعله الوالي الشريف من شدِّ الهمم والاستعداد للمعركة ، وكان ولداه مراد والأمين يساعدانه على ذلك ، ويصف ما حل بالناس يوماً بيوم :

وهـو ينـادي دونكـم والجنـة قـد فتحـت لأجـل أهـل السـنة

فـدافعوا عـن دينكـم والمـال كـذاك والطفـل مـع العيـال

فنـادت النـاس أيـا الله هـو الـذي ليـونس أنجـاه

وأعلـن النـساء بالبـكاء وابتهـل الأطفـال بالـدعاء

لله قـد أخلـصت العبـاد تفطـرت لأجلهـا الأكبـاد

حينئـذ قـد لطـف الرحيـم سـامحنا فـي ذنبنـا الكريـم

وتدور الدائرة على الأعداء ، ويفتك بهم الأبطال :

ومـن عـلا السـور مـن الفجـار مضـى سـريعاً عاجـلاً للنـار

ومـن أتـى مـنهم لتحـت السـور لـم يقـدر الفـرار للعبـور

فولـوا الأعقـاب للفـرار وانقلبـوا صـرعى علـى الأدبـار

فـامتلأ الخنـدق مـن أشـباحهم إلـى الجحـيم سـاروا فـي أرواحهـم

مـن سـورنا شـجعاننا قـد نزلـوا كـم فاجـر وكافـر قـد قتلـوا

وأحـرزوا التِفَنـك والسـيوفا وقطَّـعوا الـرؤوس والكفوفـا [1]

فانكسـرت شـوكة طهمـاز وقـد عـاد وربـع جنـده لقـد فُقِـد [2]

---

[1] التفنك : كلمة تركية : جمع تفنكة وهي البارودة التي ترمي النار على الأعداء .

[2] طهماز : قائد جيش نادر شاه .

ثم يبدأ بعدِّ ما غنمه أهل الموصل من غنائم كثيرة ، ويصور سرعة انسحاب جيش الفرس وفك الحصار عن هذه المدينة :

فجـــــاؤوا ســـــرعى نقـــــلوا الآلات ... وصـــاح فيهـــم صايـــح الشـــتات

فـــي خـــامس مـــن رمضـــان قـــاموا ... فـــي بحـــر شـــتى كلهـــم قـــد عامـــوا

مـــن بعـــد ذا أصـــبحنا فـــي أمـــان ... مـــن فـــيض فضـــل الواحـــد المنَّـــان [1]

وممن خلد هذه المعركة من الشعراء : السيد خليل البصير [2] الذي وصف ملك العجم نادر شاه بالظلم ونقض العهود في إشارة إلى معاهدة تفليس التي سبق ذكرها ، ويتطرق إلى ما فعله بالقرى والمدن التي حلَّ بها إلى أن أنقذ الله الموصل وما حولها من شره ، يقول الشاعر [3]:

كفـى الله أهـل الموصـل الشـر إذ أتـى ... عـدو لهـم مـن جانـب الشـرق نـاهض

أجـلُّ ملـوك العجـم نـادرٌ اسـمه ... ظلـوم غشـوم للمواثيـق نـاقـض

سـبى نسـوة السـكان فـي البيـد والقـرى ... بظلـم وكـل بالمـهالك خـائض

فحاصـرنا سـتين يومـاً مُهيَّجـاً ... حروبـاً وفـي الجُمُعـات ماتـت فـرائض

فحـاربه الدسـتور والـي ديارنـا ... حسـين ــ بعـون الله ــ وهـو يناهض

فـألقى الرعـب فـي قلـوب جنـوده ... فبـانوا وكـل نحـو مثـواه راكـض

فلمـا أزال الله عنـا شعوبهـم ... بتوفيقـه أرَّخـت : زال الـروافض [4]

وممن خلد هذه المعركة أيضاً ومدح الوزير حسين الجليلي : الشاعر خليل بن خداده الكاتب [5] ، قال :

وذاك مـن يُمْـن الـوزير الـذي ... خصَّـه الله بلـطف أعـمّ

حسـينٌ اسـمٌ حسـنٌ فعلـه ... مستحسـن الـرأي بـأمر أهـمّ

قـام لنـا بحسـن تدبيـره ... فأرهـب الخصـم بـأعلى الهمـم

ومن الملاحظ أن أسلوبه سقيم ومعناه ثقيل على النفس ، ألا ترى معي ضآلة المعنى والابتذال في قوله :

---

[1] الروض النضير ج٢ ص / ٢١٥ ـ ٢٢٣ / .

[2] السيد خليل البصير : شاعر من الموصل / ١١١٢ ـ ١١٧٦ هـ / ضرير ، نادرة من النوادر مع علم وعمل وتجويد وتبريز بكل صناعة ، وكان في الحفظ آية باهرة يحفظ الشعر مالو كتب كان أسفاراً ، وكان له في النحو والصرف والعلوم العقلية اليد الطولى ، نظم بالعربية والفارسية والتركية ، سلك الدرر ج٢ ص١٠٢ .

[3] سلك الدرر ج /٢ ص ١١٢ .

[4] زال الروافض في حساب الجُمَّل : تصادف سنة / ١١٥٦ هـ / . وللشاعر في تأريخ هذه الموقعة أرجوزة جيدة في الروض النضر ج ٢ ص / ٥٣٣ ـ ٥٣٦ / .

[5] ترجم له أمين العمري في منهل الأولياء ج ١ ص ٣٠١ فقال : ياقوتة زمانه وابن مقلة أوانه ، آتاه الله من حسن الخط وجودة الكتابة وتصوير الحروف مالم يدرك . وترجم له خليل المرادي في سلك الدرر ج ١ ص ١٩٤ فقال : الخطاط الشاعر ، ومدحه بحسن خطه . وترجم له محمد الغلامي في شمامة العنبر ص ٢٧٢ ـ ٢٧٣ فمدحه بحسن الخط . ويقول صاحب الروض النضر ـ على تحفظ مني ـ : شاعر إذا غردت بلابل طبيعته على أغصان حسبتها ترصف زهرا وتنمق غديرا ، ج٢ ص ٣٥١ . وقد توفي في الهند .

ومـــن يقـــل إنـــي وزيـــر ســـوى جنابـــه الســـامي علـــيَّ يُتَّهـــم

أعـــز ديـــن الله عـــزاً وقـــد أذل ديـــن الـــرفض ذل الخـــدم

ثم ينهي قصيدته كعادة الشعراء بتأريخ الواقعة ، وكأن التاريخ ضربة لازب لابد منها وإلا كانت القصيدة ناقصة !!.. :

ومن العجيب أن صاحب (الروض النضر) جعل الشاعر ممن " وصل من النظم إلى منتهاه ، وتصرف في القريض بين سماكه وسهاه " [1] .

وممن خلد هذه الموقعة أيضاً الشاعر صالح بن المعمار الخطيب [2] وهو ذو أسلوب جميل يختلف عن سابقه ، فمما قاله :

بلـــد متـــى مـــحنت تـــدرع قومـــها فـــي أنفـــس للحتـــف غيـــر شـــمَّاح

أمســـى الحســـين أبـــو الأمـــين خفيرَهـــا حـــامي الثغـــور بحزبـــه النفَّـــاح

هتَّـــاك رايـــات البغـــاة بعزمـــه بصفائـــح بـــيض وســـمر رمـــاح [3]

ومنهم الشاعر عبد الله الأصم الأربلي [4] الذي يرثي أربيل وأهلها حين دمرها ملك الفرس نادر شاه ، وقد دخلها الشاعر بعد ذلك فرآها قاعاً صفصفاً ، فبدأ يسأل عنهم [5] :

دمـــن عفـــت مـــن بعـــد ماأنســـوا بهـــا دخلـــت علـــيهم شهرهـــم ودهورهـــم

فغـــدوت أســـأل عـــن معاهـــد أهلهـــا صـــماً خوالـــد كيـــف كـــان أمورهـــم

رحلـــوا وقـــد عهـــدوا تلافـــي حـــبهم وأنـــا علـــى تلـــك العهـــود أسيرهـــم

هيهـــات إن صبـــابتي لســـجية لـــم يمحـــها لعهودهـــم تغييرهـــم

حاشـــاي أن أســـلو فـــإني أكتفـــي مـــن وصـــلهم بـــالطيف حـــين أزورهـــم

ثم يسائل الدهر : من الذي يستطيع دفع الغائلة عنهم :

فأجـــابني الدهـــر الخبيـــر بأنـــه المـــولى الحســـين كـــريمهم وظهيـــرهم

وضـــع العدالـــة فـــي مـــوازن حكمـــه فلديـــه قـــد حـــاذى الصغيـــر كبيـــرهم

---

[1] الروض النضر ج٢ ، ص ٣٥١ . والسها : كوكب صغير خفي الضوء في مجموعة بنات نعش الكبرى والصغرى ، وفي المثل أُريها السها وتريني القمر . والسماك : أحد نجمين نيِّرين أحدهما في الشمال وهو السماك الرامح ، والثاني في الجنوب وهو السماك الأعزل .

[2] توفي سنة ١١٦٠ هـ ولم يذكر أحد مولده ، كان يعلم صبيان الأكابروالأعيان ، شعره مقبول ، الروض النضر ج ٢ ، ص ٤٠٣

[3] الروض النضر ج٢ ، ص ٤٠٦ .

[4] لم أجد له ترجمة ، إلا أن صاحب الروض النضر كال له من المديح الكثير كعادته ، الروض النضر ج٢ ص ٣٣ ــ ٣٤ .

[5] الروض النضر ج ٢ ، ص ٤٣٤ ــ ٤٣٥ .

ويصف مجيء نادر شاه مع جيوشه الجرارة لأخذ الموصل ، وطردهم عنها ، إذ إن الوزير الجليلي كان لهم بالمرصاد :

لله درُّه إذ أتتـــــــــــــه كتيـــــــــــــبة ... شرقيـــــة للشـــــر كـــان نصيرهـــــم ١

مـــن أهـــل هنـــــد والبلـــوج فحتفهـــــم ... قـــد عـــدَّ مـــن أعـــدادها وثبـــورهم ٢

فيقودهـــــا ملـــك الأران ونـــــادر السلـــــ ... طـــان شـــــدد أســـرهم تســـخيرهم ٣

ولأخذهـــــا بـــذلوا الجهـــود فمـــا بقـــي ... مـــن حيلـــة ومكيـــدة تقصـــيرهم ٤

نكصـــوا علـــى أعقابهـــم مـــن بعـــد مـــا ... جنحـــوا لســـلم والبـــواتر بـــورهم ٥

ولأهـــــل حدباكـــــم أقـــــول مؤرخـــــاً ... "هـــل خـــاب جنـــد والحســـين أميـــرهم"

ومنهم الشاعر حسين الغلامي [٦] ، وهو بحق شاعرٌ مُجَلٌّ ، إذ إن قصيدته في مدح أمين باشا بن الوالي حسين الجليلي [٧] ـ وكان لأمين دور بارز في الدفاع عن الموصل ، ثم صار والياً عليها عدة مرات ـ تدل على باع طويل وأدب وافر وقدرة على التعبير فائقة ، فالمكارم ترنو إليه وتزف له بعد أن دفع مهرها سؤدداً ومجداً وحازها بالجهد والجهاد والمثابرة وورثها كابراً عن كابر:

هـــذا المـــرام وهـــذا غايـــة الطلـــب ... وهـــذه ســـاحة العليـــاء والطـــرب

وذي المكـــارم قـــد وافـــى الزمـــان لهـــا ... وقـــد ســـعت خببـــاً تهـــدى بـــلا طلـــب ٨

زُفَّـــتْ إليـــك ـ أمـــين الله ـ مكرمـــة ... إذ كنـــت كفـــواً لهـــا يـــا كامـــل الأدب

أمهرتهـــا ســـؤدداً زادت بـــه شـــرفاً ... لأن مجـــدك مجـــد غيـــر مكتســـب ٩

أبـــا ســـليمان مـــا غـــادرت مكرمـــة ... إلا وقـــد حزتهـــا بالســـمر والقضـــب

---

١ الشطر الأول مكسور ففيه حركة زائدة ، وحبذا لو قال : لله لما أن أتته كتيبة ..

٢ البلوج : البلوش ، وهم من يسكن شرق إيران ، والمقصود أن جيشه كان كبيراً خليطاً من أقوام كثر .

٣ إنهم جاؤوا دون أن يستشاروا أو يكون لهم رأي ، فهم عبيد يفعلون ما يؤمرون .

٤ بذل جند الفرس كل ما يستطيعون من مكر فما قصروا في ذلك .

٤ البواتر : السيوف ، البور : الهلاك والموت ، والمعنى : سيوف أهل الموصل أهلكتهم .

٦ ترجم له صاحب منهل الأولياء فقال عنه : الأديب الكامل أديب ماهر وناظم ثائر وعالم شاعر ، ل باع طويل في الفنون الأدبية وترجم له أبوه في (شمامة العنبر فأثنى عليه كثيراً ، توفي سنة / ١٢٠١ هـ / .

٧ هو الولد الثاني لحسين الجليلي سنة / ١١٣٢ هـ / شارك أباه في الدفاع عن الموصل ، وأرسله إلى الآستانة ليزف بشرى النصر ، فأنعم السلطان عليه برتبة الميرميرانية ثم ولي الموصل وكان والده والياً على الأناضول ، فأنعم عليه السلطان برتبة الوزارة سنة / ١١٨١ هـ / وأسر في مدينة الدنيستر على يد الروس وعاد من الأسر بعد خمس سنوات إثر صلح بين السلطان والإفرنج سنة / ١١٨٩ هـ / .

٨ الخبب : نوع من العَدْوِ ، فالمكارم تسرع إلى الممدوح .

٩ كان الأولى أن يجعله مجداً مكتسباً فلا خير في مجد موروث إذا لم يصاحبه مجد يصنعه الإنسان لنفسه .

أنقـذتنا يـا أميـن الأمـن فـي زمـن ... قـد بـات فيـه ذوو الألبـاب فـي رعـب

غـذيت صـارم عـدل بـات مختضـباً ... مـن هـام كـل لبيـب بالضـلال رُبـي

شـددت أزرالعـلا بـالحكم فانـدحرت ... جـلُّ الطغـاة بمـا لاقَـوْا مـن العطـب ١

أما خاتمة الشعراء الذين أرخوا لهذه الموقعة الشهيرة فهو حسن بن عبد الباقي [٢] الذي بدأ قصيدته بذكر الخمر كعادة الشعراء في المديح ، ثم انتقل إلى وصف نادر شاه بالعظمة والقوة ليصل إلى ممدوحه الذي طرد ذلك الملك الظالم ، فيكون المدح أقوى والوصف أروع

مليـك يهـاب الـنجم سـطوة بأسـه ... متـى لاح بـدرُ الـتمِّ فـي الأفـق يسـجدِ

إذا جـاد مجـرى الفلـك كانـت سباسـباً ... وإن لاح فالأبـحار أقفـر فـدفـد ٣

ورهـط مـن الأعـجام بـين مـدرَّع ... علـى لاحـق وافـى وبيـن مـزرَّدِ ٤

وحين يضيق الأمر بالناس يفزعون إلى الوالي حسين الجليلي الذي يصبِّرهم وكأنه في مثار النقع بدر والجنود من حوله نجوم :

فقـال : اصـبروا بـالله لاتهلكـوا أسـى ... ودونـكم فتـك القنـا والمهنَّـد

سـرى فـي مثـار النقـع بـدراً تحفـه ... نجـوم وفـي يمنـاه شـعلة فرقـد

ثم مدحه بأنه في السلم يجرد الحلم ، أما في المعركة فلا حلم ، بل قهر للأعداء :

فأغمـد حلمـاً لـم يكـن قـط مغمـداً ... وجـرد قهـراً كـان غيـر مجـرد

ونـادى مـرادٌ إن هـذا مرادنـا ... وقـال أمـين يومنـا يـوم سـؤدد ٥

فلـم يـنج مـنهم غيـر أمـرد نـاعم ... يقـاد أسـيراً كـالغزال المقيـد ٦

---

١ الروض النضر ج ٢ ، ص / ٤٩٧ ـ ٤٩٨ / .

٢ ذكر صاحب الأعلام في ترجمته ما يلي : / ... ـ ١٧٤٤ هـ / شاعر من الموصل ، له ديوان شعر مطبوع . ج٢ ص ١٩٤ .

٣ الفدفد : الأرض الواسعة المستوية لاشيء فيها ، والسباسب : مفرده سبسب ، والمفازة إذا قيس شيء ما بكرمه كان قليلاً ، أو بقوته فلا يعدك أحد .. والشطر الثاني لايتوافق مع صفة المدح لأن الصول يستتبع القوة ، وهنا يصف البحار بالفراغ لا بالقوة .

٤ الأعاجم كانوا مدججين بالسلاح بين دروع وزرد على خيولهم .

٥ مراد وأمين : ولدان للوالي شاركاه في المعركة .

٦ يقصد أن الأبطال قتلوا فلم يبق سوى الصغار الذين لا يحسنون الكر والفر فأُسِروا.

الفصل الثالث

شــعر الحــرب في البـلاد العربيـــة

تكبر الدول وتنمو وتتسع ، فيكون اتساعها مع ضعف سلاطينها وحكامها سبباً في طمع الولاة وحكام الأقاليم في استقلالهم عنها وإنشاء كيان خاص بهم .

والدولة العثمانية واحدة من هذه الدول التي ينطبق عليها ناموس الحياة ، فحين اشتد عودها واكتسحت الدول أمامها سطع نورها وبزغ نجم سعودها فاستكان الجميع وسارعوا إلى الإعلان عن فروض الطاعة والولاء للسادة الجدد ، وحين تسنح لهم بادرة ضعف ينقلبون وقد يثورون ويهاجمون ، هذه سُنَّة الكون .

وقد مرَّ معنا في التمهيد التاريخي ثورات كثيرة ضدهم في غير البلاد العربية لم يلق لها الشعراء العرب بالاً ، وكأنها لاتخصهم ، لم تطل أكثرمن أشهر كما وجدنا في ثورة القاطرجي وحسن دالي وأكرم آغا .

ولعل المدة القصيرة التي ثاروا فيها وانطفأت سريعاً مع كونها في تركيا بعيداً عن المسرح العربي كان سبباً في إهمال الشعراء لها حتى من الأتراك أنفسهم ، أما في البلاد العربية فلم يكن هناك ثورات بالمعنى الواسع للثورة ، بل كان هناك تمرد سرعان ما يقضي عليه جيش الخليفة العثماني أمثال حركة جان بردي الغزالي [١] وبعض الوزراء الذين ساءهم أن يعزلوا عن ولاياتهم، لكننا سنقف عند حركتين حصلتا في العهد العثماني جدير بنا أن نقف أمامهما لآن **الأولى** كانت حركة ضد الإسلام والمسلمين هي حركة الدروز على عهد السلطان محمد الرابع سنة / ١٠٤٠ ـ ١٠٤٣ هـ / .

والثانية تهديد والي مصر بجيشه القوي الدولة العثمانية في بلاد الشام وفي الأناضول ــ عقر دارها ــ عشر سنوات كاملة .

ولابأس أن نتبعهما بمثل واضح للتذمر الناجم عن احتكار غير المسلمين مناصب في الدولة استغلوها لصالحهم أساءوا بها إلى أهل الديار المسلمين .

أولاً : حركة الدروز :

<u>الدروز في التاريخ :</u> تفيد بعض الروايات أن جعفر الصادق رابع الأئمة الاثني عشرية لم يكن راضياً عن تصرفات ابنه إسماعيل لأنه كان مدمناً على الخمر ولوعاً بالنساء، فعزله عن الإمامة [٢] لكن الإسماعيليين أنكروا على جعفر الصادق هذا التصرف وقالوا : إن إسماعيل معصوم وإنه لا يفسد الخمر ولا النساء عصمته [٣] ، وذكر بعض المؤرخين أن إسماعيل هذا كان من أصدقاء الفاسق الملحد أبي الخطاب الذي يزعم أن الأئمة أنبياء ثم آلهة ، وقال بألوهية جعفر وأبنائه ، وذكر أن الجنة هي ما يصيب الناس من خير ونعمة وعافية في الدنيا ،

---

[١] جان بردي : معناها عطاء الروح ، وهي كلمة سلافية ، كان صاحبها ممن أسره العثمانيون في قتالهم في (يوغسلافيا) الآن في عهد بايزيد الثاني والد السلطان سليم فارسل ضمن مجموعة من الأسرى الأقوياء هدية إلى السلطان المملوكي في القاهرة . كان طموحاً فأعتقه قايتباي سلطان المماليك وتدرج في المناصب إلى درجة الإجازة في عهد قانصوة الغوري وطومان باي إلا أنه كان وصولياً اتصل بإسماعيل شاه الصفوي وعرض عليه ولاءه وهو أمير الشام إذ ذاك ،ولما كانت الكفة في الحرب تميل لصالح العثمانيين أعلن انضمامه إليهم وولاءه لهم فاستعمله السلطان سليم على الشام أيضاً وحين مات السلطان وعهد إلى سليمان بالخلافة ظنه جان بردي ضعيفاً فثار عليه ، لكن السلطان الجديد لم يمهله فقضى عليه في ثلاثة أشهر، فقد أعلن استقلاله في الشام رمضان ٩٢٦ هـ وقضي عليه في صفر ٩٢٧ ولم يترحم عليه أحد .

[٢] عقيدة الدروز : للدكتور محمد أحمد الخطيب ص ١٥ .

[٣] طائفة الإسماعيلية : محمد كامل حسين ص ١٢ .

وأن النار هي ما يصيب الناس من شر وبلية ، واستحل الخمر والزنا وسائر المحرمات [1] فلما مات جعفر تحولت فرقة الخطابية إلى إسماعيل .

وعن الإسماعيلية تفرع الفاطميون والقدَّاحيون والقرامطة ، ومن الفاطميين تفرع الدروز. فحين توفي العزيز بالله الفاطمي سنة / ٣٨٦ هـ / خلفه ولي عهده أبو علي منصور ، ولقب بالحاكم بأمر الله الذي بدأ حكمه بقتل عدد من كبار رجالات الدولة وإصدار أوامر شاذة يحرم فيها أشياء كثيرة ثم يعود بعد ذلك إلى إباحتها بشكل متناقض ،كل ذلك لإعلان ما يعتلج في نفسه من ادعاء الربوبية [2] ، والحاكم بأمر الله محور عقيدة الدروز وقد أعلن ألوهيته سنة / ٤٠٠ هـ / وكان من أبرز دعاته : حمزة بن علي الزوزني [3] الذي أصبحت له حظوة عند الحاكم بأمره ، بل كان الداعية الأول إلى تأليهه وكان هذا قد أمر دعاته بأن لا يظهروا مذهبهم إلا بعد تلقي الأوامر منه لكن (نشتكين) الدرزي باح بالمذهب فألب الناس عليه فهرب إلى بلاد الشام ودعا إلى تأليه الحاكم فقتل على يد حمزة ، يقول صاحب كتاب خلاصة الأثر :

(والدرزية طائفة كبيرة ينتسبون إلى رجل من مولدي الأتراك يعرف بالدرزي ، وقد ظهر في زمن الحاكم بأمرالله العبيدي وهو رجل أعمى يقال له حمزة وكان الحاكم ــ لعنه الله ــ يدعي الألوهية ويصرح بالحلول والتناسخ ، ويحمل الناس على القول بذلك ، وكان حمزة الدرزي ممن وافقوه وأظهروا الدعوة إلى عبادته ، والقول بأن الله حلَّ فيه واجتمع عليهما جماعة كثيرة من غلاة الإسماعيلية فثار عليهم عوام المصريين فقتلوا أكثرهم وفرقوا جمعهم ، وذكر صاحب مرآة الزمان أن الدرزي المذكور كان من الباطنية مصراً على ادعاء الربوبية للحاكم لعنهما الله ــ تعالى ــ وصنف له كتاباً ذكر فيه أن الإله حل في علي ابن أبي طالب وأن روح علي انتقلت إلى أولاده واحداً بعد واحد حتى انتقلت إلى الحاكم وتقدم بذلك عند الحاكم وفوض إليه الأمور ليطيعه الناس في الدعوة وأنه أظهر الكتاب فثار عليه المسلمون وقتلوا جماعته وأرادوا قتله فهرب منهم واختفى عند الحاكم فأعطاه مالاً عظيماً وقال له اخرج إلى الشام وانشر الدعوة هناك وفرق المال على مَن أجاب الدعوة فخرج إلى الشام ونزل بوادي تيم الله بن ثعلبة غربي دمشق من أعمال بانياس ، فقرأ الكتاب على أهله واستمالهم إلى الحاكم وأعطاهم المال وقرر في نفوسهم التناسخ ، وأباح لهم الخمر والزنا وأخذ يبيح لهم المحرمات إلى أن هلك ــ لعنه الله تعالى ــ .

وأما القول فيهم من جهة الاعتقاد فهم والنصيرية والإسماعيلية على حد سواء والجميع زنادقة وملاحدة صرح بذلك جمع من العلماء على رأسهم سلطان العلماء العز بن عبد السلام وشيخ الإسلام أحمد بن تيمية ــ رحمهم الله ــ وأن من شك في كفرهم كافر مثلهم وأنهم أكفر من اليهود والنصارى لأنهم لاتحل مناكحتهم ولا تؤكل ذبائحهم بخلاف أهل الكتاب وأنه لايجوز قرارهم في ديار الإسلام بجزية ولا بغير جزية ولا في حصون المسلمين [4] ..)

---

[1] الملل والنحل : للشهرستاني ج ٢ ، ص ١٢ .
[2] أخبار الدول وآثار الأول : للقرماني ص ١٩١ .
[3] المؤسس الرئيسي لمذهب الدروز ، توفي سنة / ٤٣٣ هـ / . الأعلام ج٢ ص٣١٠.
[4] خلاصة الأثر ص / ٢٦٨ ــ ٢٦٩ / .

ويقول المحبي في خلاصة الأثر : (.. ولما تحقق للسلطان مراد الرابع مخالفة فخر الدين المعني الدرزي [1] وتعديه بعث لمقاتلته الوزير المعروف أحمد كوجك [2] ، وعين معه أمراء وعساكر كثيرة فركب عليه وقتل ابنه علياً أولاً ثم قبض عليه وعلى ولدين له وأرسلهم إلى استانبول ، فقال الشاعر منجك بن محمد يمدح الوزير ويصف فرحته بنصره على الدروز وفرحة المسلمين بأسر أميرهم فخر الدين المعني [3] :

إن الوزيـــــــر ـــــ أدام الله دولتـــــــه ... أخبـــــاره سِـــــيَرٌ فـــي النـــاس تنتقـــل

إذ طهـــر الأرض مـــن كفـــر الـــدروز ومـــــن ... شـــــر البغـــاة الـــذي مـــن دونـــه الأجـــل

وجاءنـــــا بـــابن معـــــن بعدمـــــا قطعـــت ... صـــــم الصـــخور عليـــه وهـــو معتـــزل

لـــم تغـــن عنـــه الحصـــون البـــيض إذ طلعـــت ... ســـــود الرزايـــا عليـــه اليـــوم والقلـــل [4]

ولا مـــــن العـــــرب مـــن كانـــت جوائـــــزه ... تـــــأتي إليهـــــم ولا الكتَّـــــاب والرســـــل

وللـــــدروز شـــــتات فـــــي بـــلادهـــــــم ... كأنهـــــم قُتِلـــوا مـــن قبـــــل مـــا قُتِلـــوا

مـــــن راح يطلبـــــه التقديـــــر لـــــيس لـــه ... بحـــــرٌ يقيـــــه ولا ســـــــهل ولا جبـــــل

هـــذي عواقـــــب مـــــن يطغـــــى وحرفتـــــه ... فـــي قومـــــــه وبنيـــــه المكـــــر والحيـــل

فهو يدعو للوزير أحمد باشا ذي الذكر العطر فيمن حوله لأنه قضى على فساد الدروز إذ أسر أميرهم ومن شايعه ، لم تنفعه حصونه ولم ترد عنه قلاعه ذلك المصير الأليم ، وتخلى عنه كل الناس حتى الذين كانوا على صلة حميمة به خوف أن ينالهم ما ناله أما الدروز فقد هربوا يجوبون الفيافي والقفار وخضدت شوكتهم ، وهذه نهاية كل ظالم طاغية .

= وورد في الموسوعة الميسرة ص ٢٢٣ : الدروز فرقة باطنية تؤله الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله ، اتخذت جل عقائدها من الاسماعيلية ، تنتمي إلى نشتكين الدرزي ، نشأت في مصر ولكنها لم تلبث أن هاجرت إلى الشام ، عقائدها خليط من أديان وأفكار ، وتؤمن بسرية أفكارها ، ولا تعلمها حتى لأبنائها إلا إذا بلغوا سن الأربعين ، ويعتقدون أن داعيتهم حمزة هو المسيح ، وينكرون الصيام والصلاة والحج والزكاة ، لهم مصحف خاص يسمونه (المنفرد بذاته) .

[1] فخر الدين المعني / ٩٨٠ ـ ١٠٤٤ هـ / ابن قرقماس الأميرالمشهور ، ومسكنهم بلاد الشوف ولهم عراقة قديمة ، ويزعمون أنهم ينتمون إلى معن بن زائدة ، تولى الإمارة بعد موت أبيه وخلع عليه السلطان لقب (سلطان البر) ، استولى على بلاد كثيرة منها صيدا وصفد وبيروت وما في تلك الدائرة من أقطاع كالشقيف وكسروان والمتن والغرب ، وخرج عن طاعة السلطنة ، ولما وصل خبره إلى مسامع الدولة العثمانية بعثوا لمحاربته أحمد باشا الحافظ نائب الشام ، وكثيراً من أمراء هذه النواحي ، فهرب إلى إيطاليا وأقام بها سبع سنين إلى أن عزل الوالي أحمد حافظ عن ولاية الشام فعاد سنة / ١٠٢٧ هـ / في شوال ، وزاد في الطغيان والاستيلاء على البلاد ، وبلغ أتباعه مئة ألف من الدروز والبدو ، واستولى على عجلون والجولان وحوران وتدمر ، ووصل حكمه إلى أنطاكية وطمع بحلب .. إلى أن انتهى أمره أسيراً على يد أحمد باشا كوجك ، وقتل في استانبول مع ولديه . خلاصة الأثر ج٣ / ٢٦٦ ـ ٢٦٧ / والأعلام ج ٥ ص ١٣٨ .

[2] أحمد كوجك : أحد الوزراء المشهورين بالشجاعة وشدة البأس وحسن التدبير ، كان عارفاً بأحوال الحروب وله طالع سعيد ورأي سديد ، كان حاكماً لسيواس ثم ورد إلى دمشق حاكماً سنة / ١٠٣٩ هـ / ، ثم ولي حكومة (كوتاهية) في تركيا وحارب المتمرد إلياس باشا وفتك به فعاد برتبة وزير إلى دمشق سنة / ١٠٤٢ هـ / ، وكلف بقتال فخر الدين المعني فشد عليه وقتل ولده علياً ثم أسره وولديه وأرسلهما إلى الآستانة وأضيفت إليه الموصل ، وأراد مقاومة الشاه عباس الذي دخل بغداد فما ساعده القدر فقتل وأسر غالب من معه ، وكان قتله في ربيع الثاني سنة / ١٠٤٦ هـ / . خلاصة الأثر ج١ ص ٣٨٥ـ ٣٨٨ / .

[3] ديوان منجك ص ٥٦ .

[4] القلل : بكسر القاف جمع قلة : أي لم يغنه الكثير ولا القليل من مصيره الأسود .

ثانياً : محمد علي باشا والي مصر والدولة العثمانية

كان محمد علي باشا [١] يطمع في توسعة أملاكه ، ويرغب في ضم بلاد الشام إليه ، فاغتنم رفض والي عكا عبد الله الجزار [٢] إعادة من هربوا من مصر إليه فجهز جيشاً بقيادة ابنه إبراهيم باشا [٣] وسيَّره إلى بلاد الشام عام / ١٢٤٧ هـ / ودعمه بحملة بحرية فالتقاها في يافا ، ثم انتصر على أربع حملات سيرها الخليفة إليه في حلب والأناضول ، واحتل أضنة ، وخافت الدول الأوروبية على مصالحها فضغطت على محمد علي باشا ، فكانت معاهدة (كوتاهية) سنة / ١٢٤٨ هـ / التي اعترف فيها السلطان بولاية محمد علي لمصر مدة حياته ، وتكون بلاد الشام تبعاً له . لكن القتال تجدد بين إبراهيم باشا بن محمد علي ، وحافظ باشا القائد التركي في بلدة (أنزيب) الواقعة جنوب تركيا اليوم ، انهزم فيها العثمانيون تاركون سلاحهم وعتادهم ، وكان ذلك سنة / ١٢٥٥ هـ / . وزاد الطين بلة أن الخليفة الجديد عبد المجيد بن محمود الثاني ــ وكان صغيراً ــ لم يملأ عيني قائده البحري أحمد باشا فلجأ هذا القائد إلى الاسكندرية ، ووضع نفسه تحت تصرف محمد علي فخافت الدول الأوروبية واتفقت فيما بينها في لندن على وضع حد لنفوذ محمدعلي سنة/ ١٢٥٦ هـ وفرضت وصايتها على الخلافة المتهالكة ، وأنزلت بريطانيا قواتها في بيروت والسواحل الشامية وأغرت القبائل بالثورة ، فاضطر إبراهيم باشا إلى الانسحاب إلى مصر بعد أن فقد ثلاثة أرباع جيشه [٤] .

وحين انسحب إبراهيم باشا إلى مصر وعادت بلاد الشام إلى حوزة الخلافة العثمانية هنأ الشاعر أمين الجندي [٥] الخليفة عبد المجيد بقصيدة طويلة فقال [٦] :

هجم السرور على الأنام مبسملا ... والنصر جاء مكبراً ومهللا

غارت ينابيع الفجور وفجرت ... أنهار عدل ورد مشربها حلا

واللَّه أيَّد دينه بخليفة ... نشر المراحم في البسيط على الملا

ملك به افتخر السرير وأخمدت ... بجلوسه فتن بها الكون امتلا

وعدَّ الشاعر الأرض ميراثاً خالصاً للعثمانيين !! والأنكى من ذلك أنه جعلهم عرباً هاشميين على الولاء فقال :

---

[١] محمد علي باشا / ١١٨٤ ــ ١٢٦٥ هـ / مؤسس آخر دولة ملكية في مصر ، ولد في اليونان واحترف تجارة الدخان فأثرى ، كان أمياً فتعلم القراءة في الخامسة والأربعين من عمره ، جاء إلى مصر ضمن قوة لطرد الفرنسيين ، فشهد معركة أبي قير ، ولي مصر سنة / ١٢٢٠ هـ / فاعتنى بها ، ثم قاتل المماليك وضم السودان إليه وساعد العثمانيين فاستولى جيشه بقيادة ابنه إبراهيم على بلاد الشام عشر سنوات ، وتوفي في قصر التين بالاسكندرية . الأعلام ج٦ ص٢٩٩ .

[٢] عبد الله الجزار بن محمد ، لم أجد له ترجمة .

[٣] إبراهيم باشا بن محمد علي / ١٢٠٤ ــ ١٢٦٤ هـ / ، قدم مع أخيه طوسون حين ولي أبوهما محمد علي باشا مصر سنة ١٢٢٠/ هـ ، قاد حملة المصريين إلى الحجاز ونجد سنة / ١٢٣١ هـ / ، وقاد حملة المصريين في المورة سنة / ١٢٣٩ هـ / ، وقاد حملة مصر ضد العثمانيين في بلاد الشام سنة / ١٢٤٧ هـ / وانقادت له بلاد الشام عشر سنوات عاد بعدها إلى مصر ، تنازل له أبوه عن ولاية مصر فحكمها سبعة أشهر ومات .

[٤] التاريخ الإسلامي محمود شاكر ص / ١٧٢ ــ ١٧٥ / .

[٥] أمين الجندي بن محمد عبد الوهاب المعري : مفتي دمشق / ١٢٢٩ ــ ١٢٩٥ هـ / ، ولي عدة مناصب ، له ديوان مخطوط . الأعلام ج٢ ص٢٠ . وله ترجمة واسعة في كتاب حلية البشر ج١ ص٣٤٣ .

[٦] حلية البشر في تاريخ القرن الثاني عشر ص ٣٥٥ .

والأرض ميـــــراث لهـــم مـــن ربهـــا ... نـــصٌّ عليهـــم فـــي الكتـــاب تـــأوَّلا ١

لاغـــرو إذ هـــم مـــن ســـلالة هاشـــم ... نســـباً وأفعـــالاً فـــدع مـــن ســـوَّلا ٢

فـــولاؤهم حفـــظ لأهـــل الأرض مـــن ... خلـــفٍ كمـــا جـــاء الحـــديث مسلســـلا ٣

فالحمـــــد لله الـــذي قـــــد خصَّـــــنا ... بخليفـــة منهـــم بـــه الكـــرب انجلـــى ٤

عبـــد المجيـــد بحمـــده شـــهدت لنـــا ... أفعالُـــــه ، لا زال بـــــدرأ أكمـــــلا

وقد يكون هناك أكثر من شاعر تناول الحروب بين العثمانيين ووالي مصر محمد علي باشا ، لكنني لم أعثر فيما بين يديَّ على شعر يؤرخ لها ، وقد يكون هناك من مدح الخليفة عبد المجيد ولكنه لم يتطرق إلى الحديث عن هذه المصادمات التي قاربت العقد من الزمان .

التذمر من استلام غير المسلمين لبعض المناصب :

اعتاد بعض السلاطين إسناد بعض المناصب الهامة إلى غير المسلمين ، دون الانتباه إلى ما قد يسببه هذا من مخاطر في حق الدولة ، والذي ظهرت بعض آثاره في أيام الخلفاء الضعفاء.

وقد تذمرت بعض فئات الشعب الواعية ، فأمين الجندي بن خالد / ١١٨٠-١٢٥٧ هـ / [٥] وهو غير أمين أمين الجندي بن محمد بن عبد الوهاب الذي مرت ترجمته ، يشتكي إلى السلطان محمود الثاني تسلط اليهود في الدواوين السلطانية [٦] فيقول :

وافتـــك بالعـــز خـــود زانـــــها الطـــول ... بديعـــــة لحظـــها بالســـحر مكحـــول

تشـــكو لعليـــاه مـــا قاســـت رعيتـــه ... مـــع اليهـــود وعقـــد الصـــبر محـــلول

مـــدُّوا مـــن المكـــر أشـــراكاً وطبعهـــم ... علـــى الخـــداع وقـــول الـــزور مجبـــول

وعظمتهـــم موالينـــا ومـــا علمـــوا ... بـــأن تعظيمهـــم فســـق وتضليـــل

هـــم فـــي التقـــلب كالأفعـــاء ثـــم وفـــي ... تلوينهـــم فهـــمُ الحربـــاء والغـــول

---

[١] أ ــ في الشطر الثاني إشارة إلى الآية القرآنية / ٥٥ / من سورة النور { وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم كما استخلف الذين من قبلهم .. } .

ب ــ نجد الطي (عروضياً) وهو حذف الرابع الساكن من الحشو (نصَّ) وهذا من جوازات بحر الرجز .

[٢] يقول الرسول ﷺ " سلمان منا آل البيت " وذلك لأنه صحابي جليل مؤمن تقي عمل بما يرضي الله تعالى فنسبه الرسول الكريم إلى آل البيت عملاً ولم ينسبه سلالة ، وبهذا أخطأ الشاعر في قوله (نسباً) وأصاب في قوله (فعلاً) ، ولم يكن به حاجة إلى قوله فدع من سوَّلا ، إلا إذا أراد المبالغة في المديح والإغراق في التزلف .

[٣] عن معاوية أن رسول الله ﷺ قال : إن هذا الأمر في قريش لا يعاديهم أحد إلا كبه الله على وجهه ما أقاموا الدين . رواه البخاري في كتاب الأحكام ، باب الأمراء من قريش .

[٤] المقصود بالكرب : احتلال المصريين بلاد الشام وتمردهم على الخليفة .

[٥] أمين الجندي بن خالد من أعيان حمص ، مولده ووفاته فيها ، ولما كانت سنة / ١٢٤٦ هـ / قدم عامل حمص من قبل السلطان محمود الثاني فوشى إليه إليه أحد أعوانه أن الشاعر أمين الجندي هجاه ، فأمر بنفيه ففر إلى حماة فأدركه أعوان العامل وسجنوه في اسطبل للدواب فأقام أربعة أيام لا ينال إلا ما يقيم أوده ، فأغار بعض أنصاره بقيادة سليم الدنادشة فقتلوا الوالي وأطلقوا سراحه ، وكانت للشاعر علاقة طيبة بإبراهيم باشا بن محمد علي والي مصر . الأعلام ج٢ ص١٦ . والعصر العثماني د. عمر موسى باشا ص ٥٦٩ــ٦٧١ .

[٦] العصر العثماني ص ٥٧٠ ، وديوان الشاعر ص ٢٤ ــ ١٥ .

قـــدكان مـــن ســـحرهم أن الـــوزيرمتى أصـغى لهـم قـال : مهمـا شـئتُمُ قولـوا

كـــم مـــرة مكـــروا بالمســـلمين وكـــم خانـــوا وزيـــراً لـــه بالعـــدل تجميـــل

فلايجوز أن يسمح لهؤلاء اليهود أن يسجلوا بالعبرانية ويعبثوا بمقدرات المسلمين ، فيلتبس الأمر على الأتراك والعرب ، ويتساءل عن أموال عكا ، ويصفهم بالتخريب والتدمير

حيـــث الدفاتـــر عبرانيـــة رصـــفت خـــلاف ألســـننا والحـــال مجهـــول

وليـــس تعلـــم أتـــراك ولا عـــرب مـــا خُـــطَّ فيهـــا ولا المنقـــول معقـــول

أمـــوال عكّـــَة مـــاذا يصنعـــون بهـــا مـــا آن أخـــذ لهـــا ، مـــا آن تحصـــيل

فكيـــف ترجـــون صـــدقاً بـــاليهود وهـــم قـــوم لئـــام ملاعيـــن مناكيـــل

كـــم بالربـــا ســـحبوا ذيـــل الخـــراب علـــى تلـــك الـــبلاد، وكـــم قـــالوا لهـــم زولـــوا

فالســـيف فـــي الغمـــد يُخْشـــوهومنجدل فكيـــف وهـــو بكـــف الليـــث مســـلول؟

وسمع له الخليفة فطرد اليهود من عملهم وأتى بمسلمين، إنها صيحة مسلم رأى حقاً ينهب فدعا إلى صونه ، وهكذا يكون الشعراء الناصحون لا كما ظن صاحب كتاب : تاريخ الأدب العربي (العصر العثماني) من أنها صيحة ودفاع عن نزعته العربية [١] .

إن قلة النتاج الشعري الذي يؤرخ للحروب التي حدثت بين العثمانيين ومن ناوأهم في البلاد العربية يؤكد حالة الركود الشعري الملتزم بمثل هذه القضايا في هذه الحقبة الزمنية التي كادت الحوادث الجسام تعصف فيها بالخلافة العثمانية لولا أن جاء السلطان عبد الحميد الثاني فجاهد ليثبت هذه الدولة ، ولكن انحدارها كان أقوى من أن يوقفه أحد ولو كان خليفة قوياً ، فالصخرة حين يشتد انحدارها لا يستطيع أحد إيقافها ، بل تعصف به إن تعرض لها .. وهذا ما حدث فعلاً للخليفة العثماني عبد الحميد إذ تكالبت عليه قوى الشر فاقتلعته من عرينه ، لكن يكفيه فخراً أنه أخَّر سقوطها أكثر من ثلاثة عقود من الزمان .

[١] العصر العثماني ص ٥٧٠ .

الباب الثاني

شعر الفتوحات العثمانية { أغراضاً }

أولاً : المديح :

لعل المديح في شعرنا العربي عامة له المجال الأرحب بين أغراض الشعر ، ونراه يملأ حيزاً واسعاً في دواوين كثير من الشعراء الكبار ، فنصف ديوان المتنبي أو أكثر من ذلك مديح ، وما تبقى للأغراض الشعرية الأخرى ، ونظرة إلى ديوان أمير الشعراء أحمد شوقي تؤيد ذلك .

وفي شعر الفتوحات هذه نلقى المديح يتقدم الأغراض الشعرية الأخرى وينال القسط الأوفر .. لكن ما سبب ذلك ؟

١ ـ قد يكون للتنبيه إلى مكانة الممدوح وبيان فضله وتخليد أعماله .
٢ ـ وقد يكون تشجيعاً له ودافعاً إلى أن يسير على ما هو عليه من المكارم بأنواعها
٣ ـ وقد يكون اعترافاً بفضل أسداه ورداً لجميل صنعه .
٤ ـ وقد يكون تملقاً وزلفى ، أو خوفاً ورهبة .
٥ ـ وقد يكون طلباً للنوال ورغبة في المال .
٦ ـ وقد يكون مزيجاً من هذا وذاك ..

فالنفس الإنسانية تتعاورها كل تلك المشاعر والأحاسيس التي ذكرنا ، والشعراء أكثر الناس إحساساً ورهفاً .

فهلمَّ معي إلى مديح الخلفاء أولاً ، والوزراء وكبار القوم ثانياً ، وعامة الناس ثالثاً فلكل مقام مقال.

١ ـ مديح الخلفاء :

للخلفاء حصة الأسد في المديح لأنهم رأس الدولة وتاج الخلافة ، وصلاحهم صلاح الأمة ، فهم الذين يسيِّرون الجيوش ويعينون قادته ، ويتابعون أخباره ، ويحركونه إلى ميدان المعركة ، وقد يقودون الجيوش بأنفسهم ، وهم أصحاب الأثر الإيجابي الأكبر فيما يكون من نصر وعزة .

وقد مدحهم الشعراء فأسبغوا عليهم الصفات ضافيةً مادية ومعنوية ، فهذا الشيخ قطب الدين المكي [١] في مؤلفه (البرق اليماني) يتجه إلى السلطان سليم الثاني بن سليمان حين انتصر جيشه في (كوكبان) الواقعة في

[١] محمد بن أحمد بن محمد المتوفى سنة / ٩٨٨ هـ / الملقب بقطب الدين الحنفي من أهل مكة ، له عدة مؤلفات أهمها " البرق اليماني في الفتح العثماني " و "الإعلام بأعلام بلد الله الحرام " وهما مطبوعان ، البدر الطالع ج٢ ص ٥٧ ، كشف الظنون ج١ ص١٢٦ ، والكواكب السائرة ج٣ ص٤٤ ـ ٤٨ . والأعلام ج٦ ، ص ٢٣٤ .

الشمال الغربي من صنعاء [1] بقيادة سنان باشا [2] والي مصر ، ففتح اليمن سنة / ٩٧٦ هـ / فيحمد الله تعالى في السر والجهر على نصره الخليفة وجيشَه ، ويصف الخليفة بأنه خليفة البر والبحر حامي الدين، ينافح في سبيله ويجاهد ، وأنه ورث الملك عن آبائه العظام أولي العزم ، وأصحاب الأمر والنهي ، وهم شموس الدين وأقمار الهداية ، والملك سليم الثاني عماد الدين يلجأ إليه المسلمون وبه يلوذون فهو سد منيع يحميهم من الكفر وآثاره السيئة ، فيقول [3] :

لـك الحمـد يـا مـولاي فـي السـر والجهـر ... علـى عـزة الإسـلام والفـتح والنصـر

عسـاكر سـلطان الزمـان مليـكنا ... خليفـة هـذا العصـر فـي البـر والبحـر

حَمَـى حَـوْزَةَ الديـن الحنيفـيِّ بالقنـا ... وبيـضِ المعـالي والمثقَّـفة السـمر

لـه فـي سـبيل الملـك أصـل مؤثَّـل ... تلقَّـاه عـن أسـلافه السـادة الغُـرِّ

ملـوك تسـامَوْا للعـلا وخـلائف ... أولـو العـزم فـي أزمـانهم وأولـو الأمـر

شـموس بفـيض النـور تمحـو غياهبـاً ... مـن الكفـر ، مـنهم مسـتمدُّ ضـيا البـدر

عمـاد يلـوذ المسـلمون بظِلِّـه ... وسـدٌّ منيـعٌ للأنـام مـن الكـفر

وهذا الشيخ يوسف بن أبي الفتح الدمشقي يزور السلطان عثمان الثاني بن أحمد الأول فيمدحه مغالياً ويصفه بما ليس فيه ، والمغالاة في المدح ذم ، انظر معي إلى ماقاله في مدح السلطان عثمان [4] ، يقول :

وكيـف أخـاف الـدهر يومـاً وقـد غـدا ... نصـيريَ مـولايَ الأمـامَ السَّـميدَعاه

مليـكَ الـورى ركـنَ العـلا كعبـةَ التقـى ... حليـفَ العـلا نجـمَ الهـدى المتورعـا

خليفـةَ رب العالمـين وظلَّـه ... علـى خلقـه والمعقـلَ المتمنِّـعا

فهو على صغر سنه ظلُّ رب العالمين وخليفة الله لا خليفة رسول الله ، وهو نجم الهدى ، ومن يطَّلع على ترجمته في (التاريخ العثماني) لمحمود محمد شاكر ولغيره يجد أنه كان يتصرف تصرف غير الناضج ، ولا غرو ، فهو مايزال غلاماً .

ولم يكتف الشاعر بهذا ، بل جعله حكيماً بصيراً بالأمور ، يخدمه فلك القدرة ، وينجذب إليه، مكانته تفوق الشمس والقمر ، وتعتلي السماء ، وكل الملوك العظماء الذين سبقوه وكان لهم شأو جليل تبع له :

---

[1] تقع على مسيرة ساعة من صنعاء زرتها عام / ١٩٩٣ م / بلدة صغيرة في أعلى الجبل كأنها معلقة في السماء ، لها باب يدخل منه الناس ، وسور يحيط بها من جميع الجهات ، ليس وراءه سوى الهاوية ، يرقى عهدها إلى زمن الحميريين .

[2] سنان باشا : ولي مصر في عهد السلطان سليم الثاني أنشأ في الحجاز حاشية المطاف ، وسبيل التنعيم ، وحفر آباراً قرب المدينة المنورة ، تولى الصدارة العظمى أربع مرات ، وفتح تونس ، توفي سنة / ١٠٠٤ هـ / ، انظر ترجمته في لطف السمر ج٢ ص / ٧١٤ ـ ٧١٦ / ، خلاصة الأثر ج٢ ص/ ٢١٤ ـ ٢١٧/ ، معجم الأنساب ج ٢ ص/٢٤٢ . المنح الرحمانية ص ١٩٤ .

[3] المنح الرحمانية ج٣ ص / ١٩٥ ـ ١٩٦ / .

[4] سبقت ترجمته ص / ٣٧ / .

[5] خلاصة الأثر ج٣ ص ١٠٦ . السميدعا : السيد الكريم الشجاع الشريف .

متـــى فلـــك التقـــدير دار لحكـــمة ... بشـــيءٍ ، تجـده نحـوه ســـار مســـرعا

بنـــى فـــوق هـــام النيِّـــرين مكانـــة ... لهـا النسـر أغضـى والسـماك تضعضـعا

مليـــك لـــه كـــل الملـــوك توابـــع!! ... فـــدعْ ذكـــرهم : إســـكندراً ثـــمَّ تُبَّـــعا

وينقضي عجبنا من هذه المغالاة في المدح حين يذكر الشاعر أنه جاءه فنال منه المال الوفير والخير الكثير :

لقـــد جئـــت قســـطنطينيةً طـــوع أمـــره ... ووافيـــت بحـــــراً بالمكـــارم مترعـــا

وقد تقدم في الباب السابق مدح الأمير الشاعر منجك بن محمد المنجكي للسلطان إبراهيم بن أحمد فوصفه بالملك المؤمن الذي جرد سيف الإيمان فقطَّ به رؤوس الكفر فسلم له أموره حتى إن إبليس الذي لم يسجد لآدم عليه السلام لو علم أن الخليفة السلطان إبراهيم ، سيكون من ذرية آدم لطأطأ رأسه وسجد له خوفاً على نفسه [1] :

ملـــك مـــن الإيمـــان جـــرَّد صـــارما ... بـــالحق حتـــى الكفـــر أصـــبح مســـلما

لـــو شـــاهد المطـــرود ســـطوة بأســـه ... فـــي صـــلب آدم للســـجود تقـــدَّما

ويشتط الشاعر في مدحه فيرفع الممدوح على أنقاض أسلافه ، ، فالعدل على عهدهم كان أخرس ، وانحلت عقدة لسانه حين جاء ممدوحه فأقام العدل في العباد :

العـــدل أخـــرس كـــان قبـــل زمانـــه ... أذنـــت لـــه الأيـــام أن يتكلمـــا

وهذا فيض الله بن أحمد المعروف بابن الفاف الرومي قاضي العسكر يمدح السلطان مراد بن سليم الثاني الذي فتح جنده تبريز سنة / ٩٩٣ هـ / ، ونراه يجعله فوق ملوك الأرض جميعاً تدين له ذليلة ، ويجعله اسكندر العصر (ذا القرنين) ، وظل الله في الأرض ، خطيباً مفوهاً ، تفخر به العروش وأعظم الملوك تأتمر بأمره فجاهه عظيم والقدر يسير في ركابه :

فيـا مليـــكاً لـــه كـــل الملـــوك غـــدت ... تديـــن طـــوعاً وتـــأتي وهـــي تعتـــذر

ســـر واملـــك الأرض والـــدنيا فأنـــت إذاً ... إســـكندر العصـــر قـــد وافـــى بـــه الخضـــر

ظـــلُّ الإلـــه مـــراد الله قـــد شـــرُفت ... بـــه المنابـــر والتيجـــان والسُّـــرُر

أجـــلُّ مَـــنْ وطِـــئ الغبـــراء مِـــنْ ملـــك ... بأمـــره سائـــر الأمـــلاك تأتمـــر

وأصـــبح الملـــك محـــروس الجنـــاب وقـــد ... وافـــى بـــه المســـعدان القـــدْر والقَـــدَر

---

[1] خلاصة الأثر ج٣ ص/ ٢٨٩ ـ ٢٩١ / .

أما الشاعر الفقيه عبد العزيز بن زين العابدين أحد قضاة حلب [1]، فإنه يصرح في مدحه للسلطان سليم الثاني بأنه سبب الحياة الرغيدة لمن لازم بابه ، فقد أغنى السائلين بعطاياه الكثيرة لأنه البحر سخاء وكرماً ، ومعدنه الأصيل ومكانته السامية كانت دافعاً قوياً في إكرامه الناس [2]:

وجـــودك للعـــيش الرضـــي وســـائل ... وجـــودك سلســـال ســـليس وســـائل

فبـــذلك أغنـــى الســـائلين بفيضـــه ... ولـــم يبـــق منـــها غيـــر دمعـــي ســـائل

لـــدى بابـــك العـــالي منـــازل عـــزَّة ... فطـــوبى لمـــن مـــأواه تلـــك المنـــازل

ألا وهـــو ســـلطانٌ ســـليمٌ بطبعـــه ... عطايـــاه بحـــر زاخـــر متكامـــل

وأنـــت الـــذي أعـــلاك ربـــك منـــزلاً ... وغطريـــف أهـــل العصـــردونك ســـافل

وحين يمدح أمين بن محمد بن عبد الوهاب الجندي الخليفة عبد المجيد بعد عودة إبراهيم بن محمد علي والي مصر مهزوماً من بلاد الشام ، يصفه بالمجاهد الذي حارب البغي وأهله وأجرى الله على يديه النصر ، وبأن خلافته كانت على الناس رحمة وفضلاً [3] فيقول :

وجاهـــد أهـــل البغـــي بالســـيف عنـــدما ... تعـــدَّوْا إلـــى نقـــض الشـــريعة بالكِـــبْر

فـــأجرى لـــه البـــاري عوائـــد فضـــله ... وأيَّـــده بالنصـــر والفتـــك والأســـر

خلافتـــه كانـــت علـــى النـــاس رحمـــة ... وأحكامـــه أحلـــى مـــن الشـــهد والقطـــر

وله في قصيدة أخرى مدح للأتراك ، ونراه فيها يغالي فيجعلهم من سلالة النبي وخلفائه نسباً وفعلاً ، ويشنع على من يستنكر ذلك ، ويقرر أن الله قد جعل لهم الأرض ميراثاً لأنهم أقاموا شرع وحكمه فيها [4] يقول :

قـــاموا بأعبـــاء الخلافـــة حســـبما ... يرضـــى المهـــيمن مجمـــلاً ومفصَّـــلا

لا غـــرو إذ هـــم مـــن ســـلالة هاشـــم ... نســـباً وأفعـــالاً فـــدع مـــن ســـوَّلا

والأرض ميـــراث لهـــم مـــن ربهـــا ... نـــصَّ علـــيهم فـــي الكتـــاب تـــأوَّلا

والشاعر في مدحه الخليفة ليس مدعياً ما ليس حقيقة ليصل إلى مآرب مادية إنما كان مدحه حسبة لله يبتغي الأجر منه تعالى :

أنـــا قـــد خـــدمتك بالمديـــح مقدمـــاً ... فـــي مـــدة يخشـــى بهـــا أن يُقْـــوَلا

---

[1] المشهور بابن أم ولد ، كان فصيحاً فاضلاً لطيف الشعر بالعربية ، وهو رومي تركي ، بديع المحاضرة جميل المذاكرة ، ومن بديع ما ذكر المترجم له أنه كان يصبغ لحيته فلما مات ولده درويش ترك صبغها ، توفي سنة / ٩٥١ هـ / . درر الحبب ص ٨٠٧ ـ ٨٠٨ .

[2] الأبيات من درر الحبب في تاريخ أعيان حلب ص ٨١٠ .

[3] فتن السلطان عبد المجيد والد السلطان عبد الحميد الثاني ، بالحضارة الأوروبية ، ولم يكن له الفضل في إخراج جيش محمد علي من بلاد الشام إنما الإنجليز والأوروبيين عامة هم الذين هاجموا جيش إبراهيم باشا بن محمد علي ، وأجبروه عاى الانكفاء إلى مصر ، وقد كانت خزينة الدولة العثمانية إذ ذاك خالية ، ومع ذلك طلى قصره في إستانبول " دولمه باغجة" رأربعة عشر طناً من الذهب ، وهذا يدل على مدى إسرافه وسفهه ، فقد كانت الدولة إلى زوال وهو يبذخ يمنة ويسرة .

[4] حلية البشر ج١ ص/ ٣٥٦ ـ ٣٥٧ . وقد سبقت الإشارة إلى الأبيات ص / ١١٢ / من هذا البحث .

وأبحـــت نفســـي فـــي ســـبيلك حســـبة ... لله لا أبـــــــغي بـــــذلك معـــــــدلا

ولربما قصد في البيت الأول من هذين البيتين أنه كان يخشى حين دخل المصريون بلاد الشام ـ أن يمدح الخليفة ، وحين خرجوا آن له أن ينظم عقود لآلئ في مدحه :

والآن قـــــــد آن المديـــــــح وإننـــــي ... ســـأجيد مـــدحاً فيـــك لـــن يتمثـــلا

فاقبـــل لعبـــدك مدحـــة جـــاءت علـــى ... عجـــل ولا تقطـــع رجـــا مـــن أمَّـــلا

ويدعو له بطول العمر والبقاء ، وأن يلهمه الله تعالى الرحمة بالعباد ، وأن يسلك سبيل التقوى ، وينصر الإسلام على يديه نصراً مؤزراً وأن يلطف بالمسلمين فيجبر بالخليفة كسرهم ، ولا يترك بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليٍّ وابنيه والصحابة والتابعين والأولياء والمقربين والأقطاب والصالحين ، أحداً إلا توسلبه أن يحفظ الخليفة .

يـــا رب بالـــذات العليـــة ثـــم بالـــ ... مختـــار أفضـــل مـــن دعـــا وتوســـلا

وبآلـــه والصـــحب طـــراً ســـيَّما ... مـــن قـــام منهـــم بالخلافـــة أولا

ثم يقول :

أيِّـــدْ أمـــير المؤمنيـــن وحـــزبه ... وأدم لـــه منـــك الســـعادة والعـــلا

فأطـــل بقـــاه مـــدى الزمـــان وعمـــره ... لنـــرى منـــار الـــدين مرتفعـــاً علـــى..

ألهمـــه فـــي حـــق العبـــاد مراحمـــاً ... واســـلك بـــه ســـبل التقـــى كـــي يعـــدلا

واقمـــع بســـيف القهـــر كـــل معانـــد ... واهـــدم بنـــاء المشـــركين وعجِّـــلا

واجبـــر بأنظـــار الخليفـــة كســـرنا ... والطـــف بنـــا لطفـــاً عميقـــاً مســـبلا

وحين كان الشاعر عبد الجليل بن عبد السلام المدني المشهور ببرَّادة نزيل القسطنطينية سنة / ١٣١٣ هـ / وانتصر العثمانيون على اليونانيين ، مدح الخليفة عبد الحميد الثاني فشيهه بالليث القوي والعظيم الذي بنى أركان الخلافة وأحيا الجهاد ، وجعله ملاذ المسلمين والظل الذي يأوون إليه ، وأنه ذو رأي سديد وحزم شديد ، أيده الله وسُرَّ بنصره رسول الله صلى الله عليه وسلم [١] :

فبادرهـــم منـــه هصـــور غضـــنفر ... كـذا الليـث يخشـى مـن بـوادره الهصـر

مشـــيِّد أركـــان الخلافـــة فخرهـــا ... عظيـــم بنـــي عثمـــان أيـا حبَّـذا الفخـر

فأحيـــا مواتـــاً للجهـــاد تقادمـــت ... عليـــه دُهـــور لايشـــاد لـــه ذكـــر

ليهنِـــك يـــا كهـــف الأنـــام وظلَّهـــم ... فتـــوح بـــه سُـــرَّ المحصَّـــب والحِجْـــر

[١] حلية البشر ج٢ ص / ٧٨٢ .

وقبـــر لخيـــر الخلـــق ســـرَّ بطيبـــة وحـقَّ لهـذا النصـــر أن يفـــرح القبـــر

لـــك الـــرأي بـــالحزم الســـديد مؤيـــد تعاملهـــم بالمكـــر إن لـــزم المكـــر

ويقول الشاعر نعمان بن محمود الألوسي [١] في الموقعة نفسها مادحاً الخليفة عبد الحميد بقصيدة ذات جرس موسيقي موفق (من البحر الوافر) وكلمات منسقة راقصة، فيجعله مليكاً ليس يشبهه مليك آخر ، وملاذاً للخلق وإماماً للمسلمين في وقته ، يقول [٢] :

بمولانـــــا أميـــــر المؤمنينـــــا لقـــد سُـــرَّت قلـــوب العالمينـــا

مليـــك ليـــس يشـــبهه مليـــك فـــلا تطلـــب لـــه ملـــكاً قرينـــا

مـــلاذ الخلـــق فـــي الـــدنيا جميعـــا وســـيدنا إمـــام المســـلمينا

عيـــاذ النـــاس ســـلطان البرايـــا وخاقـــان الخلائـــق أجمعينـــا

ولم يعجب هذا المديح محقق حلية البشر فقال في حا شيتها (في هذه الأبيات .. من الغلو والمبالغة في مدح السلطان ما لايخفى .. وليته استغنى عنها [٣]) .

ونسي أن الشاعر لم يخرج عن المألوف الذي التزمه الشعراء في المديح .

أما الشاعر أمين بن خالد الجندي فقد مدح السلطان المعظم محموداً الأول فجعله أتقى السلاطين (محمود الفعال، شمله ربه بالنصر ، له غزوات كثيرة أباد فيها الروم ، لايستطيع الشعراء ـ لفضلها ـ أن يوفوها حقها [٤]:

أتقـــى الســـلاطين محمـــود الفعـــال ومـــن بـــالعز والنصـــر محفـــوف ومشـــمول

فكـــم لـــه غـــزوة فـــي الـــروم محكمـــة بالنصـــر يعجـــز عنهـــا القـــال والقيـــل

أما أمير الشعراء أحمد شوقي فلنا عند مديحه الخليفة وقفة متأنية ، فهو حين يمدح الخليفة عبد الحميد الثالني يرسل الحكمة تلو الحكمة ، ومن خلال هذه الحكم يوضح سمات الخليفة وأعماله العظيمة ، فهو ناصر الدين بسيف الحق ، يؤدب المتمردين الطغاة بالقوة ويداويهم بها كذلك ، يسهر على مصالح المسلمين ، حتى هابه الأعداء واطمأن المسلمون على عهده وناموا [٥] :

بســـيفك يعـــلو الحـــق والحـــق أغلـــب ويُـــنْصَرُ ديـــن الله أيـــان تضـــرب

ومـــا الســـيف إلا آيـــة الملـــك فـــي الـــورى ولا الأمـــــر إلا للـــــذي يتغـــــلب

---

[١] الشاعرنعمان الألوسي : / ١٢٥٢ ـ ١٣١٧ هـ / من بغداد وهو ابن صاحب تفسير (روح المعاني) ، تولى القضاء في (الحلة) في العراق ، زار القسطنطينية وأنعم عليه السلطان بمراتب عالية ، واجتمع هناك بالعلماء ، كان عالماً عفَّ اللسان شديد التحري للحق ، لطيف المحاضرة ، حسن اللقاء ، من مؤلفاته (جلاء العينين في محاكمة الأحمدين) ، و(غاية المواعظ) .

[٢] حلية البشر ج٣ ص / ١٥٧٤ .

[٣] حاشية القصيدة في حلية البشر ج٣ ص / ١٥٧٤ .

[٤] ديوان أمين خالد الجندي ص / ٧٣ ـ ٧٤ .

[٥] من مطولة صدى الحرب ، ديوانه ج١ ص / ٤٢ ـ ٥٨ .

فـأدِّبْ بـــه القـــوم الطغـــاة فإنـــه ... لنعـــم المربـــي للطغـــاة المـــؤدب

وداوِ بـــه الـــدُّولات مـــن كـــل دائـــها ... فـــنعم الحســـام الطـــب والمتطبـــب

تنـــام خطـــوب الملـــك إن بـــات ســـاهراً ... وإن هـــو نـــام اســـتيقظت تتألـــب

وهـــاب العـــدا فيـــه خـــلافتك التـــي ... لهـــم مـــأرب فيهـــا ولله مـــأرب

ويجعله سليل آباء عظام هم ثلاثون خليفة ، منهم من كان قيصراً عظيماً في ملكه ، وبعضهم كانوا ملوكاً للترك فقط ، ومنهم من صار خليفة للمسلمين :

ســـما بـــك يـــا عبـــد الحميـــد أبـــوة ... ثلاثـــون حضَّـــار الجلالـــة غُيَّـــب

قياصـــر أحيانـــاً خـــلائف تـــارة ... خـــواقين طـــوراً والفخـــار المقلَّـــب

ثم يمدح شجاعته وحكمته ، فسيف الخليفة أصوب من سقراط في حكمته ، وهو صلب في اتخاذ قراره ، سريع البديهة بليغ العبارة ، عذب البيان ، فتوحه عظيمة كفتوح الإسكندر ، وملكه يدل على رقي وحضارة :

حســامك مــن ســقراط فــي الخطــب أخطــب ... وعـــودك مـــن عـــود المنـــابر أصـــلب

وعزمـــك مـــن (هـــومير) أمضـــى بديهـــة ... وأحلـــى بيـــاناً فـــي القلـــوب وأعـــذب [1]

وإن يذكـــروا إســـكندراً وفتـــوحه ... فعهـــدك بالفتـــح المحجَّـــل أقـــرب

وملـــكك أرقـــى بالدليـــل حكومـــة ... وأنفـــذ ســـهماً فـــي الأمـــور وأصـــوب

والشاعر لا يمدح الخليفة من فراغ ، إنما يسطر شعراً ما يقوله الناس والدنيا جميعا في حقه ، فإن كان شعر أمير الشعراء لايليق بمدح الخليفة !!.. فالعذر موجود إلا أن الشاعر الطير المغرد على ضفاف النيل لا يجاريه أحد في ذلك ، والنيل روضة من رياض الخليفة ، فحق على الشاعر أن يمدح ولي نعمته ، فإذا نطق بشعره وأذاعه بين الناس ،وهو قادر على ذلك دائماً ، استمع الناس في كل مكان من بلاد العرب وطربوا له ، وليس الشاعر بحاجة إلى المال ، فهو يعيش في مصر في بحبوحة ورغد ، فمدحه للخليفة من رغبة في التقرب إليه لأنه كهف الدين ورمزه في هذه الدنيا ، وحبه تقرب إلى الله تعالى :

مدحتـــك والدنيـــا لســـانٌ وأهلهـــا ... جميعـــاً لســـان يمليـــان وأكتـــب

فـــإن لـــم يلـــق شـــعري لبابـــك مدحـــةً ... فمُـــرْ ينفـــتح بـــاب مـــن العـــذر أرحـــب

وإنـــي لطيـــر النيـــل لا طيـــر غيـــره ... ومـــا النيـــل إلا مـــن رياضـــك يُحْسَـــب

ولـــم أعـــدم الظـــلَّ الخصـــيب وإنمـــا ... أجاذبـــك الظـــل الـــذي هـــو أخصـــب

فـــلا زلـــتَ كهـــف الـــدين والهـــادي الـــذي ... إلـــى الله بالزلفـــى لـــه نتقـــرَّب

[1] هومير : أشعر شعراء اليونان الأقدمين .

*** *** ***

٢ ـ مديح الوزراء وكبار القوم :

الوزراء وقادة البلاد والجيش هم اليد الطولى للخليفة ، وبطانته التي تأمره بالخير إن كانت خيرة ، أثرها إن كانوا صالحين مخلصين إيجابية ، يقودون الناس إلى العلياء والمجد .. وتاريخ العثمانيين مليء بهؤلاء الصفوة الأخيار منهم سنان باشا والي مصر الذي ترجمنا له في الفصل السابق حين قاد الجيش العثماني في فتح اليمن ، فهو كما يصفه قطب الدين المكي [١] أسد مدجج بالسلاح ، عرينه مبني من السيوف والرماح عظيم الشأن ذو فكر سديد قادر على تجهيز الجيوش بسرعة ، مخاص في عمله ، أمن الناس في عهده على أنفسهم ودينهم :

لهـــم أســـد شـــاكي الســـلاح عرينـــه ... طـــوال الرمـــاح الســـمهرية والبتـــر [٢]

وزيـــر عظـــيم الشـــأن ثاقـــب رأيـــه ... يجهِّـــز فـــي آن جيوشـــاً مـــن الكفـــر [٣]

يقـــوم بأعبـــاء الـــوزارة قومـــة ... يشـــدُّ جيـــوش الـــدين بالأيـــدِ والأزر

بـــه أمَّـــن الله البـــلاد وطمَّـــن الـــ ... ـــعباد وأضـــحى الـــدين منشـــرح الصـــدر

وله من اسمه نصيب ، فهو سيف عزيز الجانب جرت خيرات مصر في عهده كما جرت على عهد يوسف عليه السلام ، وفتح اليمن فمهدها بالخير بعد أن كادت الفتن تعصف بأهلها :

ســـنان عزيـــز القـــدر يوســـف عصـــره ... ألـــم تـــره مـــن مصـــر أحكامـــه تجـــري؟

تدلَّـــى إلـــى أقصـــى البـــلاد بجيشـــه ... ومهَّـــد مـــلكاً قـــد تمـــزَّق ، بالبشـــر [٤]

أما مصطفى البابي الحلبي في العقود الدرية فإنه يمدح الوزير الخطير أحمد الكوبريلي بصفتين تتفتق عنهما الصفات الأخرى [٥] ، فهو أولاً عالم دقيق المعاني كثيرها ، كتاباته تعلِّم وتثقف [٦]، وهو ثانياً قائد مجاهد وصدر أعظم ، يقود الجيوش بنفسه ، فجنوده غاصت في زرد الحديد على خيول مطهمة يرفرف علم النصر عالياً فوق جيشه العظيم ، ويمدُّ هذا الجيش العظيم جيش الرأي السديد والفهم الصائب :

---

١ المنح الرحمانية ص / ١٩٦ ـ ١٩٧ .

٢ الرمح السمهري : الرمح الصلب .

٣ الكفر هنا : الجنود الذين يغطون أجسامحم بالدروع ، أو من المسلمين ، وكل من غطى شيئاً وحجبه سمي كافراً ، والكافر الذي ستر الحقيقة وأخفاها وادعى غيرها .

٤ تدلى : بمعنى ذهب ونزل ، والمقصود بأقصى البلاد من أرض الجزيرة العربية اليمن ، كما أن سناناً أدخل تونس إلى حوزة الدولة العثمانية وانتزعها من الإسبان .

٥ العقود الدرية ص ٣٨ .

٦ عرف الوزير العظم بمكتبته الضخمة في إستانبول قبل أن يعرف بالقيادة والحنكة .

بـــه درَّ ضـــــرع المكرمـــات وثُـقِفَـــتْ	قنـا الفضـل وانهلَّـت عواديـه للصَّـدِي ١
يســـــاقط منثـــــور المعـــاني كأنـــــها	فرائـــد در فـــي ترائـــب خُـــــرَّدِ٢
ومـــن كـــلِّ ســـطر فـــوق طـــرس كأنـــه	عِـــذار تدلَّـــى فـي عـوارض أمـــــرد٣
إلـــى منـــزع العليـــا، ومبـــزغ شمســـها	وموردهـــا الصـــافي ومرتعهـــا النـــدي
إلـــى أســـــد الـــدين الـــذي دون غابـــه	كواعـب أطـــراف الوشـــيج الممـــدَّد ٤
هـــو القائـــدُ الضمرَالشـــواذبَ فوقهـــا	ســراحين غاصـت فـي الحديـد المسـرَّد٥
خمـــيس يقـــل النصـــــر عـــالي لوائـــه	متـــى ســـار يقفـــو جـــيش رأي مســـدد ٦

والممدوح أيضاً سليل قوم بلغوا أعلى المراتب وتسنموا أرفع المناصب ، وكان ذكرهم على كل لسان ، وما يزال ، فهم وإن رحلوا عن هذه الدنيا فمآثرهم ظاهرة وأعمالهم نبهت الناس إلى فضلهم ، فآل الكوبريلي أصحاب مجد أصيل أوصلهم إلى قمة الفخر والمجد بل إن المجد إليهم ينتمي وإلى ربوعهم يأرز :

ســـليل رجـــالات قـــد اســـتوطنوا العـــلا	وذكـــر عـــلاهم بـــين نســـر وفـــرقد ٧
فســـاروا ومـــا غـــابوا ونـــاموا وأيقظـــوا	مآثـــــر مـــا يفنـــى الزمـــــان تجـــددِ
فـــلا غـــــرو ، أنـــتم آل مجـــد مؤثـــــل	يُخَلِّـــي لهـــم عـــن كـــل فخـــرٍ وســـؤدد٨
ترقـــرق أمـــواه العـــــلا فـــي وجـــوههم	أجـــلْ ويـــروح المجـــد فـــيهم ويغتـــدي

(وقد مرَّ معنا أن أباه محمداً أوقف الدولة على قدميها وأعاد هيبتها ، فلما مات أتم الممدوح مابناه أبوه ، فكان قمة في العطاء وآية في القيادة والتضحية والإخلاص ، وفعل أخوه مصطفى ما فعلاه، واستشهد في ميدان المعركة .)

---

١ درَّ الضرع : خرج لبنه ، والمقصود أنه كثير المكرمات متتابعها . العوادي : جمع عادية وهي السحابة الممطرة ، والصدي : العطشان ، فكأن سحائب فضله تروي المتعطشين لخيراته .

٢ الترائب : عظام الصدر مما يلي الترقوتين ، والخُرَّد : جمع خرود وهي العذراء الحيية ، والفريدة : الجوهرة النفيسة ، والمعنى أن معانيه التي يلقيها على مسامع الناس كأنها جواهر نفيسة تزداد قيمة إذا تعلق على صدور العذارى .

٣ العوارض : جمع عارضة ، صفحة الخد ، العِذار : جانب لحية الغلام ، فالمعاني التي يسطرها في صحائف كتبه جميلة جمال لحية الغلام في صفحة خده .

٤ أخطأ الشاعر حين استعمل كواعب جمعاً لكعب ، فالكواعب جمع لكاعب وهي الجارية نهد ثديها ، أما الكعب : عقدة القصب بين الأنبوبين فجمعها كعاب وكعوب وأكعب . الوشيج الممدد : الأغصان المتشابكة الممتدة ، فالوزير لا يصل إليه أحد فهو في عرينه داخل غابة من الجيش الكثيف .

٥ الضمر : الفرس الهضيم البطن ، الشواذب : جمع شوذهب ، النجيب من كل شيء ، سراحين : جمع سرحان وهو الأسد ، السرد : الدرع المنسوجة ، فالممدوح أسد يقود أسوداً على خيول ضامرة أسيلة قد تدرعوا وتجهزوا للقتال .

٦ الخميس : الجيش العظيم المؤلف من خمسة أقسام (القلب والجناحين والمقدمة والمؤخرة) ، فآراء الممدوح وأفكاره الصائبة يحققها على الواقع جيش منصور لواؤه مرتفع دائماً .

٧ الفرقد : نجم قريب من القطب الشمالي يُهتدى به ، وبجانبه آخر أخفى منه ، وقد اشتهر بين الأدباء هذا البيت في ضرب المثل للفراق بعد طول اجتماع اجتماع :

وكل أخٍ مفارقه أخوه لعمر أبيك إلا الفرقدان وفيه شاهد نحوي في انتصاب المثنى بالألف بدل الياء .

٨ المؤثل : الأصيل ، فلا غرو : فلا شكَّ .

ونجد الشاعر في آخر أبياته يستجدي الممدوح بعض المال فيجعله ملجأه بعد الله تعالى في الملمات ، ومحققاً لأمانيه ، ويدعو له بدوام الفلاح والنجاح :

أبـــا المكرمـــات الغـــر دعـــوة ضـــارع ... إليـــك انتمـــى يرجـــو إجابـــة مســـعد

فهـل لـك فـي إنعـاش مـن وطئـت علـى ... معيشـــته الأيـــام وطء المقيَّـــدِ

فمـا ثَـمَّ بعـد الله غيرَكَ ملجـأٌ ... ولا للأمـاني بعـد ذي اليـوم مـن غـدِ

ودُم مُنْجِـــحَ الإقبـــال مـــا ذرَّ شـــارقٌ ... وحـنَّ غريـب نحـــو إلـفٍ ومعهـد [١]

ونرى للشاعر في قصيدة أخرى للممدوح نفسه وصفاً أوضح ، فالوزير ذو قوة لا يضعضعها الخوف ، ولا توهيها الخطوب ، ولا يهنأ له عيش حتى يقضي على التمرد ويعيد الأمر إلى نصابه ، نصوح للخلافة حافظ لها ، رافع من شأنها ، له أثر واضح في غرة الدهر ، بطاش بالعدو ، يجمع النجدة إلى العلم والتقى ، شهد للطائعين علقم للمشاغبين :

وذي مِـــرَّةٍ لا ينكـــث الـــروع شـــزرها ... إذا الخـــطب أبـدى ناجـــزيه تبســـما [٢]

إذا عرضـــت فـــي جانـــب الملـــك زيغـــة ... رآهـــا قـــذى الأجفـــان أو تتقوَّمـــا [٣]

وقـــام بأعبـــاء الـــوزارة ناصحـــاً ... ووطَّـــأ فاســـتقصى ، وشـــاد فأحكمـــا

مـــن النفـــر الغـــرِّ الأُلـــى تركـــت لهـــم ... عزائمهـــم فـــي غـرة الدهـــر مِيْسـما [٤]

إذا ظمـــئت بـــين الظُّبـــا فـــي أكفهـــم ... تحاشَـوْا لهـا وِرداً سـوى مصـدر الـدِّما [٥]

لقـــد قرنـــوا بالنجـــدة العلـــم والتقـــى ... وقـد نظمـوا طعْـمَين : شـــهداً وعلقمـا [٦]

وفي قصيدة العُرْضي الحلبي مدح لشيخ الإسلام مصطفى الشهير بـ" بالي زادة " في فتح قلعة " ينوة " على مضيق الدردنيل ، يصفه فيها بالوصول إلى قمة المجد دون أن يتعب نفسه بذلك ، وقد جعله الله غماً وهماً للأعداء لكنه خير وبركة للمسلمين [٧] :

وإقبـــــال شـــــيخ لإســـــلامنا ... تخطـــى المعـــالي وحاشـــاه كـــدح

تصـــــدِّر غمـــــاً لأنـــــف العـــــدا ... ولكـــن بـــه قـــر طـــرف وكشـــح

---

[١] ذرَّ : طلع وبزغ ، شارق : كل مايُشْرِق ، العهد : المكان المعهود المعروف الذي لايزال القوم يرجعون إليه .

[٢] المرة : القوة الشديدة ، الروع : الفزع والحرب ، الشزر : إحكام الفتل وشدة الضبط .

[٣] زيغة : ميل وانحراف ، والمقصود : الثورة و التمرد . قذى الأجفان : ما يقع في العين من تبنة ونحوها ، ورآها قذى الأجفان : أقلقته فاجتهد في إزالتها ، ومنه الحديث المشهور : يرى أحدكم القذى في عين أخيه ولا يرى الجذع في عين نفسه ، أي يتغاضى أحدنا عن عيوبه مهما عظمت ، وينتبه إلى خطأ أخيه ولو كان بسيطاً .

[٤] غرة الشيء : مقدمة شعره اللامع من شدة سواده ، الميسم : بكسر الميم : الحديدة التي يوسم بها ويُعَلَّم .

[٥] الورد : المنهل ، الظُّبا : حد السيوف ، البيت كناية عن كثرة القتل في الأعداء .

[٦] البيات من خلاصة الأثر ج١ ص ٣٥٥ .

[٧] خلاصة الأثر ج٤ ص / ٩٣ ـ ٩٤ .

فالقصيدة سقيمة العبارة ركيكة الألفاظ سمجة التصوير ، تشعر وأنت تقرؤها بالغثيان لما فيها من تكلف وبرود .

وهذا الشاعر محمد الشهير بالتقوى الحلبي يمدح الصدر الأعظم نصوحاً [١]، فيجعل القدر يسير في ركابه وطوع يمينه ، فهو أساس الملك ، وخوفه ملأ القلوب فهرب الأعداء منه وشردوا ، ثم ينتقل سريعاً إلى صفات أخرى للممدوح ، فهو لطيف وديع يلقاك بالبشر ذو أخلاق عظيمة ، ومرتبة الوزارة التي وصل إليها لا يقدر أحد على الوصول إليها [٢] :

تجـــري الأمـــور بوفـــق مـــا يختـــاره ... ويطيعـــــه العاصـــي بكـــل مـــــرام

فكأنمـــــا الأقـــــدار طـــوع يمينـــــه ... بعـــد المهـــيمن فـــي قضـــا الأحكـــام٣

قطـــب تـــدور عليـــه دولـــة أحمـــد ... مـــلك الـــدنى بالحَـــلّ والإبـــرام

هابتـــه أنفـــاس النفـــوس بأســـرها ... فـــي النـــاس بعـــد العـــالم العـــلام ٤

ولبـــأس شـــدته الأســـود تشـــردت ... وتســـترت فـــي الغـــاب والآجـــام

يلقـــاك بالبشـــر الـــذي مـــن نشـــره ... ريـــح المنـــى يســـري بطيـــب بشـــام ٥

أُلْـــبِست مـــن حلـــل الـــوزارة خلعـــة ... قنـــع الألـــى منهـــا بطيـــف منـــام٦

وحين هاجم نادر شاه مدينة الموصل وقف أهلها أمامه سداً منيعاً ، وكان للوزير حسين الجليلي القيادة العظيمة ذات الأثر الكبير فمدحه خليل الكاتب بصفات مكررة ، فله من اسمه نصيب لذا كان حسن التدبير أرهب الخصم ، وهو جبل شامخ ، وأسد حمى غابته ، وبطل خواض وباسل في المعركة والتقى لله وكاسب المجد وصانع المعروف ، مؤيد بالغيب يحكم بالشرع ، وهو شمس الوزراء إذا طلع غابوا جميعاً [٧] :

حســـينٌ اســـمٌ حســـنٌ فعلُـــه ... مستحســـن الـــرأي بأمـــر أهـــم

قـــام لنـــا فـــي حســـن تـــدبيره ... فأرهـــب الخصـــم بـــأعلى الهمـــم

حيـــث رآه جبـــلاً شـــامخاً ... ومرتقـــاه أبـــداً لـــم يُـــرَم٨

فيالـــه مـــن أســـد قـــد حمـــى ... غابتـــه مـــن كـــل خصـــم صـــدم

---

١ وزير لأحمد الأول الذي قتله إثر خلاف بينهما سنة / ١٠٢٣ هـ / حين سحب أسطول العثمانيين من البحر الأسود إلى بحر إيجة فاستغل أمراء القازاق هذا التصرف وأغاروا على ميناء سينوب ونهبوه . العهد العثماني محمود شاكر ص ١٣١ ، وخلاصة الأثر ج٤ ص ٣٠٤ .

٢ خلاصة الأثر ج٤ ص / ٣٠٤ ـ ٣٠٥ .

٣ جانب الشاعر الصواب إذ قرن الممدوح إلى الله في تطويع القدر وهيبته للبشر ، وفي هذا من التملق السمج ما يغني عن التبسط في الشرح .

٤ نفس الملاحظة السابقة / ٣ / .

٥ النشر : الرائحة الطيبة التي تملأ المكان ، والبشام : واحدته بشامة ، شجر طيب الرائحة ، ورقه يُسَـوِّد الشعر ، وتتخذ عيدانه لتخلية الأسنان .

٦ كان الصدور العظام في أكثر العهد العثماني يعزلون بسرعة ، ولم تكن الوزارة إذ ذاك يهنأ الإنسان بها طويلاً .

٧ الروض النضر ج٢ ص / ٣٥٢ ـ ٣٥٣ .

٨ الفاعل في رآه : الملك نادر شاه ملك العجم .

والبطـــل الخـــواض نقـــع الـــوغى ... والبـــاذل الفيَّـــاض يـــوم الكـــرم

والباســـل الضـــحَّاك فـــي حربـــه ... والخـــائف البكَّـــاء خـــوف الظلـــم

والكاســـب المجـــد بإقدامـــه ... والســـاكب الجـــد كســـكب الديَـــم

مؤيـــد بالغيـــب مـــن ربـــه ... موقَّـــر الشـــيب جليـــل الحشـــم

ومـــن يقـــل إنـــي وزيـــر ســـوى ... جنابـــه الســـامي علـــي يـــتهم؟!!

ومدحه صالح بن المعمار الخطيب ، فجعله مفني اللئام حامي الثغور ، بطلاً ، وقد استخدم أسلوب المدح بما يشبه الذم ، وهو أسلوب بديعي جميل ، يقول [1] :

أمســـى الحســـين أبـــو الأمـــين خفيرهـــا ... حـــامي الثغـــور بحزبـــه النفَّـــاح[2]

مفنـــي اللئـــام بحـــب ديـــن محمَّـــد ... ماضـــي حســـام الدولـــة الســـفاح

يلقـــى الكتيبـــة حاســـراً مبتســـماً ... فكأنـــه جيـــشٌ بيـــوم كفـــاح

لا عيـــب فيـــه ســـوى ثـــلاث تُرتَـــجى ... حلـــمٌ وصـــفح وازديـــاد صـــلاح

ويبعث الشاعر إسماعيل صبري [3] إلى الأمير عمر طوسون بقصيدة يمدحه فيها ويشكره على ما بذله من مال وجهد لإعانة جرحى الأتراك في الحرب البلقانية عام / ١٩١٣ م / ويصفه بعلو المنزلة وأهليته للإمارة ، وأنه مقصد الملهوفين [4] :

لـــك الإمـــارة والأقـــوام مـــا بـــرحت ... بكـــل عـــالي الـــذرا فـــي الكـــون تـــأتمر

لـــو لـــم ترثهـــا لمـــا ألقـــت أعنتهـــا ... إلا إليـــك ، خـــلال كلُّـــها غُـــرَر

يـــاابن الألـــى لوأطلـــوا مـــن مضـــاجعهم ... يومـــاً عليـــك لقـــالوا " إيـــه يـــا عمـــر "

ويهتز الشاعر أمين ناصر الدين اللبناني لمساعدة المصريين وعلى رأسهم عمر طوسون وولي عهد الخديوي محمد علي ، ويصور ما فعله الشعب المصري والأميران ويصف أعطياتهم الكثيرة الوافرة التي توازي عطايا نهر النيل العظيم ، بل تفوقه كرماً ، وكان للأميرين فضل جمع الأموال والحض على الهبات ، وإيصال المال اللازم إلى إخوانهم الليبيين ، فحبذا المصريون وأمراؤهم [5]:

ومـــا أثـــل مصـــر بالـــذي هـــاج خـــاطري ... لـــنظم القـــوافي بـــل ســـجايا بنـــي مصـــر

---

[1] الروض النضر ج٢ ص / ٤٠٦ ـ ٤٠٧ .

[2] لم يفلح الشاعر باستعمال كلمة خفير ، والنفَّاح : كثير النفحات و العطايا وما اظن الشاعر قصد هذا المعنى لكنه أراد بالنفح : الدفاع عن البلاد واعتراض العدو .

[3] الشاعر إسماعيل صبري : من شعراء الطبقة الأولى في عصره / ١٢٧٠ ـ ١٣٤٧ هـ / الموافق / ١٨٥٤ ـ ١٩٢٣ م / ، امتاز بجمال مقطوعاته وعذوبة أسلوبه ، وهو من شيوخ الإدارة والقضاء ، كان محافظاً للإسكندرية فوكيلاً لوزارة العدل ، بارع النكتة سريع الخاطر ، رفض مقابلة اللورد كرومر ، توفي في القاهرة ، له ديوان مطبوع . الأعلام ج ١ ص ٣١٥ .

[4] ديوان إسماعيل صبري ص ٧٨ .

[5] ديوان صدى الخاطر ص ١٥ من قصيدة (فم الدهر) .

كـــأن لهـــاهم مغدقـــاتُ ســـــحائبٍ ... فواحـــدة تغـــدو ، وواحـــدة تســـري [1]

إذا غـــاض مـــاء النيـــل يوشـــك ينثنـــي ... لمـــرآه نيـــلاً مـــن أكفهـــم يجـــري

وهـــل يســـتوي النيـــلان ذاك بمائـــه ... يجـــود ، وذا يســـخو بعســـجده الحـــر

ولـــم أر نـــداً للأمـــير محمـــد ... ســوى صـنوه فـي المجـد طوسـن ذي القـدر

همـــا كفيـــا الجـــيش المجاهـــد فاقـــة ... فباتـــا لـــه ذخـــراً وكـــان بـــلا ذخـــر

يطـــوفان بيـــن النـــاس يســـتجديانهم ... فـــأكرم بمـــن يمـــري النـــوال ويســـتمري

٣ــ مديح عامة الناس :

قد رأينا فيما سبق مدح أهل مصر في معرض مديح الأميرين عمر بن طوسون وولي عهد الخديوي حين جمعوا الأموال والرجال لنصرة إخوانهم المجاهدين ، ونرى الشاعر نفسه يمدح أهل طرابلس إذ صمدوا لنيران الإيطاليين وهزموهم [2]، فيقول :

مـــا أثـــرت فـــي صياصيـــه قنابلكـــم ... إلا كمـــا هـــزَّ متـــن الشـــامخ النســـم [3]

وارتـــدَّ أســـطولكم مـــن بعـــد هجمتـــه ... وكـــلُّ أعلامـــه بالخـــزي متَّســـم

منـــا الســـلام علـــى أهـــل الجهـــاد علـــى ... أُســـد العـــرين علـــى القـــوم الألـــى عظُمـــوا

هـــم فـــي الـــوغى شـــهب تـــنقضُّ محرقـــة ... مـــن يعتـــدي ، وهُـــمُ يـــوم النـــدى ديَـــمُ [4]

قـــد أقســـموا ليجيـــدُنَّ الدفـــاع كمـــا ... تبغـــي المعـــالي فلـــم يحنـــث لهـــم قســـم

ونرى الشاعر في قصيدته (إلى الجندي العثماني) [5] يمدح الجندي المقاتل الذي يجيب الداعي سريعاً ، حيث اعتاد مقابلة المعضلات ، فأحب الحياة تحت ظلال السيوف ، عزمه أشد من حد السيف وقوته مشهود لها :

عهدتـــك يـــابن عثمـــان همامـــاً ... فلـــم تبـــرح إلـــى الـــداعي ســـريعا

شـــببت علـــى التمـــرس بالرزايـــا ... وكنـــت إلـــى الـــوغى تصـــبو رضـــيعا

لـــك العـــزم الـــذي إن ينـــبُ ســـيف ... بيـــوم وقيعـــة هتـــك الدروعـــا

لـــك البـــأس الـــذي فـــي الـــروع أضـــحى ... يغـــادر كـــلَّ ذي بـــأس صريعـــا

ويصور الشاعرأحمد شوقي جيش المسلمين في معركة اليونان بقيادة الخليفة عبد الحميد الثاني تصويراً حياً ، فهم ثمانون ألفاً من الأسود الأقوياء ذوي المخالب القوية ، تنشر الأمان في وقت السلم ، وتزرع الشر في العدو

---

[1] لهاهم : جمع لهوة وهي العطية الجزلة . مغدقات : غزيرات عذبات .
[2] صدى الخاطر ص ٦٨ .
[3] الصياصي : جمع مفرده صيصية : الحصن المنيع .
[4] الديم : جمع مفرده : ديمة وهي الغيمة الماطرة .
[5] صدى الخاطر ص٨٧ .

زمن الحرب ، تلقاهم صباحاً وتصدهم مساء لايسعها مكان ، تعرف الكر والفر وتتحكم في مصير المعركة ، وتفعل المستحيل وتدك المعاقل وفيالق الجيش كالبحر تلقاها في كل أرض تنفذ أمر الخليفة قادة وجنداً وهل يكون ملك بغير جيش قوي مطيع ؟ وهل يكون جيش بغير ملك قوي محنك [١]

ثمـــانون ألفـــاً أســـد غـــاب ضراغـــم ... لهـــا مخلـــب فـــيهم وللمـــوت مخلـــب

إذا حلمـــت فالشـــر وســـنان حالـــم ... وإن غضـــبت فالشـــر يقظـــان مغضـــب

وتصـــبح تلقـــاهم وتمســـي تصدهـــم ... وتظهـــر فـــي جـــد القتـــال وتلعـــب ٢

تلـــوح لهـــم فـــي كـــل أفـــق وتعتلـــي ... وتطلـــع فيهـــم مـــن مكـــان وتغـــرب ٣

وتقـــدم إقـــدام الليـــوث وتنثنـــي ... و تدبـــر علمـــاً بـــالوغى وتعقّـــِب ٤

وتملـــك أطـــراف الشـــعاب وتلتقـــي ... وتأخـــذ عفـــواً كـــل عـــالٍ ، وتغـــصب ٥

يقـــود ســـراياها ويحمـــي لواءهـــا ... ســـديد المرائـــي فـــي الحـــروب مجـــرب

فظلـــت عيـــون الحـــرب حيـــرى لمـــا تـــرى ... نـــواظر مـــا تـــأتي الليـــوث وتغـــرب ٦

تبـــالغ بـــالرامي ، وتزهـــو بمـــا رمـــى ... وتعجـــب بالقـــواد ، والجنـــد أعجـــب

ومـــا الملـــك إلا الجـــيش شـــأناً ومظهـــراً ... ولا الجـــيش إلا ربـــه حيـــن ينســـب

ونقف أمام صورتين رائعتين لأمير الشعراء أحمد شوقي يصف في الأولى إقدام النساء في الحرب ومشاركتهن في وصف إحداهن وهي (زينب) ، وفي الثانية مشاركة الكبار في السن في وصف أحدهم وهو (الحاج عبد الأزل) ، فاللواء المخضب بالدم تحميه فتاة مخضبة البنان صالت كالليث الهزبر ، فلما تعجب الشاعر من جهادها أنكرت تعجبه وذكرت أن المرأة تقرب رجُلَها إلى القتال فإن لم يكن ، بذلت نفسها [٧] :

ومـــا راعنـــي إلا لـــواء مخضـــب ... هنالـــك يحميـــه بنـــان مخضـــب ٨

فقلـــت مـــن الحـــامي أليـــث غضـــنفر ؟ ... مـــن التـــرك ضـــار أم غـــزال مربَّـــب ٩

أم الملـــك الغـــازي المجاهـــد قـــد بـــدا ... أم الـــنجم فـــي الآرام أم أنـــت زينـــب؟ ١٠

---

١ ديوان شوقي ج١ من قصيدة (معجزات على الحدود ص ٤٤ ـ ٤٥ .

٢ الجيش في قتال دائم جده جد ، ولعبه جد ، مدرب على فنون القتال .

٣ جيش المسلمين سريع الحركة سريع المداورة ، يحيط بالعدو من كل جانب .

٤ يهجم الجيش على العدو هجوم الأسود ، ولايدبر هرباً بل ضمن خطة محكمة ، ثم سرعان ما يعيد الكرة على العدو ويعود مهاجماً .

٥ الشعاب : جمع شعب وهو الطريق إلى الجبل ، فالجيش المسلم متمكن من العدو يصل إلى هدفه بدون عناء مهما كان الأمر صعباً .

٦ أغرب الرجل : أتى بشيء غريب ، فالحرب نفسها تنظر متعجبة من فعال جنود المسلمين .

٧ ديوان شوقي ج١ القصيدة بعنوان : (زينب المتطوعة) ص ٤٨ .

٨ اللواء المخضب : الراية العثمانية الحمراء ، والبنان المخضب : أطراف الأصابع المصبوغة بالحناء ، وفيها كناية عن المرأة ، أي أن النساء شاركن بالقتال .

٩ المربب : الذي ربي حتى أدرك .

١٠ يعلي الشاعر من شأن المرأة المجاهدة بأسلوب إنشائي استفهامي غرضه المدح والتعجب .

إذا ماالدياراستصـــــرخت بـــــدرت لهـــــا كرائـــــم منـــــا بالقنـــــا تتنقـــــب

تقـــــرب ربـــــات البعـــــول بعولهـــــا فـــإن لـــم يكـــن بعـــــل فنفســـاً تقـــــرب

ويصور الشاعر كتيبة معادية هجمت فتصدت لها زينب في كتيبة ، فما هي إلا ساعة حتى انتصر المسلمون وكانت زينب في قلب المعركة ، فلم يجد الشاعر تعبيراً عن تقديره لها إلا أن يقبل السيف واليد التي حملته :

فجئـــت فتـــاة التـــرك أجـــزي دفاعهـــا عـــن الملـــك والأوطـــان مـــا الحـــق يوجـــب

فقبلـــت كفـــاً كـــان بالســـيف ضـــارباً وقبلـــت ســـيفاً كـــان بالكـــف يضـــرب

أما قصة الحاج عبد الأزل : فهو عجوز خالط الشيب رأسه ، ركب فرسه الأشهب الذي رافقه في حياته سنوات طوال ، فلما أطلق عليه الأعداء النار أصيب الفرس ، فنصحه رفاقه بالترجل عنه ، لكنه أبى إلا أن يحامي عنه ويموت معه ، وطلب منهم أن يدفنا معاً إن وافته المنية ، وكان له ما أراد [1] :

وأشـــمط سواســـي الفـــوارس أشـــيب يســـير بـــه فـــي الشـــعب أشـــمط أشـــيب [2]

رفيقـــا ذهـــاب فـــي الحـــروب وجيئـــة قـــد اصـــطحبا والحـــر للحـــر يصـــحب

تـــوالى رصـــاص المطلقـــين عليهمـــا يخضِّـــل مـــن شـــيبيهما ويخضِّـــب

فقيـــل : أنـــلْ أقـــدامك الأرض إنهـــا أبرُّجـــواداً ـــ إن فعلـــت ـــ وأنجـــب

فقـــال أيرضـــى واهـــب النصـــر أننـــا نمـــوت كمـــوت الغانيـــات ونعطـــب

إذا نحـــن متنـــا فادفنـــونا ببقعـــة يظـــلُّ بذكرانـــا ثراهـــا يُطيَّـــب

فماتـــا أمـــام الله مـــوت بســـالة كأنهمـــا فيـــه مثـــال منصَّـــب

ويعيد الشاعر قصة الشهيد (عبد الأزل) في قصيدة أخرى باسم : تحية للترك [3] لما فيها من شحذ للهمم ودفع إلى الجهاد فيقول :

ورب مجـــاهد شـــيخ مبجَّـــل ترجَّـــلت الجبـــال ومـــا ترجَّـــل

أراد ليركـــب المـــوت المحجَّـــل إلـــى أجـــداده المستشـــهدينا

وفـــى لجـــواده وحنـــا عليـــه وقـــد شـــخصت بنـــادقهم إليـــه

وصـــاب رصاصـــها يـــدمي يديـــه وأوشـــكت الســـواعد أن تخونـــا

تعـــوَّد أن يصيـــب وأن يصـــابا فخوطـــب فـــي النـــزول فمـــا أجابـــا

---

[1] ديوان شوقي ج١ ص ٥٠ .

[2] الأشمط : الذي خالط بياض رأسه سواد ، والمراد بالأول : الفارس وبالثاني : الفرس .

[3] ديوان شوقي ج٣ ص ٢٨١ .

وقـــال وقـــد قضـــى قـــولاً صـــوابا هنـــا فليطـــلب المـــرء المنونـــا

ويمدح الشاعر ابن القاف جيش الساطان مراد بن سليم حين فتح عثمان باشا مدينة تبريز ، فذكر الجنود ذوي البأس الشديد الذي دحروا به الأعداء وحولوا جنده إلى قتيل أو أسير أو فار أسلم ساقيه للريح ، فلقد كانت سيوف المسلمين تقطع الرؤوس وتدحرجها كما يفعل اللاعب بالكرات حين يضربها بعصاه ، أما سيوف الفرسان فكأنها مغناطيس يجذب إليه الأعداء ليجندلهم [١] :

ســـطوا بهـــم فتراهـــم ذا يفـــرُّ وذا عـــانٍ أســـيرٌ وذا فـــي التـــرب منعفـــر

والنقـــع ليـــل بهيـــم لا نجـــوم لـــه تلـــوح للعـــين إلا البـــيض والســـمر

فـــالبيض فـــي يـــدهم صـــارت صـــوالجة والأرؤس الحمـــر فيمـــا بيـــنهم أكُـــرُ

كأنمـــا الســـمر مغنـــاطيس أنفســـهم فحيـــث مالـــت تـــرى الأرواح تنتثـــر

ثانياً : الفخر :

لعل الفخر صنو المديح ، بل هو المدح عينه ، إلا أن المدح للآخرين والفخر مدح للذات الفردية أو الجماعية ، لذلك حفل الشعر العربي ـ قديمه وحديثه ـ بالفخر ، وهو أنواع

١ـ فقد يكون الفخر لإظهار المكانة العلية المتجاوزة قدر الآخرين .

٢ـ وقد يكون للتحدي وإثبات الذات .

٣ـ وقد يكون وسيلة للوصول إلى هدف معين .

٤ـ وقد يكون خليطاً من هذا وذاك .

وقد يفخر الإنسان بشجاعته أو بشعره أو بنفسه وماله ، وقد يفخر بمن يعيش بينهم وينتمي إليهم ، نسباً ومبدأ ، فهذا إبراهيم الخياري يفخر بشعره حين مدح الوزير أحمد الكوبريلي في زيارة له إلى استانبول [٢] :

وخـــذها عروســـاً زفَّهـــا نحـــو كفئهـــا أســـير اغتـــراب للزواهـــر [٣] يـــنظم

ورومیـــــة المنشـــا ولكـــن لفظهـــا مـــن العربـــي الأصـــل يســـدي ويلحـــم [٤]

لقـــد نُزِّهـــت فـــي اللفـــظ عـــن متنـــافر وكـــلِّ غريـــب لـــيس معنـــاه يُفْـــهم

فقصيدته التي مدح بها الوزير عروس تزف إلى عروسها صافية اللفظ ، مضيئة الأفكار ، قد صيغت كلاماً عربياً ليس فيه ما يعيبه ، وهو مفهوم لا لبس فيه .

---

[١] خلاصة الأثر ج٣ ص / ٢٨٩ ـ ٢٩١ .

[٢] الشعر الحجازي في القرن الحادي عشر ، القسم الثاني ص / ٥٩٧ ـ ٥٩٨ / .

[٣] الزواهر : جمع زاهرة : وهي كل لون أبيض صاف مشرق مضيء .

[٤] يسدي ويلحم : السدى : خيوط النسيج الطولية ، واللحمة : خيوط النسيج العرضية .

أما عبد الباقي ابن السمان ، فإنه ـ في مدحه لمصطفى الكوبريلي في موقعة كريت ـ جعل قصائده التي أهداه إياها خيولاً أصيلة تتتابع جماعة إثر أخرى مزينة بما يزيدها سطوعاً وإشراقاً ، يقول : [١]

بعثـــت إليـــه بالقوافـــي كأنهـــا مقانـــب شـــكر تهتـــدي بمقانـــب ٢

ولـــولا صـــروف الـــدهر أُهْـــديتَ ضـــعفها مرصـــعة بالنيّـــرات الثواقـــب ٣

وهذا أمير الشعراء في مدحه السلطان عبد الحميد يجعل نفسه حسان بن ثابت مرة ، والمتنبي مرة أخرى ، ولئن وقف شاعر الرسول ﷺ حسان بن ثابت يمدحه بشعره ، فإن أحمد شوقي شاعر السلطان عبد الحميد الذي يعده خليفة رسول الله ﷺ ، إنما يمدحه لصفته هذه ، وعلى الرغم من أن الخليفة كان يعطيه المال الجزيل على مدحه فإن الشاعر يصبو إلى الأجر العظيم في رضا الله عزَّ وجلَّ وجوائزه السنية .

ويعدُّ أحمد شوقي نفسه متنبي عصره وعليه واجب كبير هو مدح الخليفة وإظهار مناقبه ، وهذا واجب فرضه عليه إسلامه ، لا الرغبة في العطايا والهبات ، وإذا كان للمتنبي ـ في رأي الشاعر ـ الجيد والرديء من الشعر فإن لشوقي الشعر الجيد دائماً [٤] :

ومـا زلـت حسَّـان المقـام ولـم تـزل تلينـي، وتسـري منـك لـي النفحـاتُ

زهـدت الـذي فـي راحتيـك وشـاقني جوائـز عنـد الله مبتغيـات

ومـن كـان مثلـي أحمـد الوقـت لـم تجـز عليـه ولـو مـن مثلـك الصدقـات

ولـي درر الأخـلاق فـي المـدح والهـوى وللمتنبـي درَّةٌ ، وحصـاة

ولا أرى شوقياً مبالغاً فيما قال ، فشعره في مدحه وفخره ووصفه وإخوانياته ... شعر راق جيد الأسلوب قوي العبارة ، لاهنة فيه ، أما شعر المتنبي ففيه الغثُّ والسمين ، وعودة إلى يتيمة الدهر للثعالبي تضع الإصبع على الجرح ، فقد أفرد لسقطاته عشرات الصفحات ، وهذا لا يضيره فهو مالئ الدنيا وشاغل الناس وجبل عظيم آخذ في السمو والارتفاع ضاربة جذوره في أعماق الرصانة والجودة ـ في رأي الكثير من الأدباء والنقاد ومتذوقي الأدب ـ لكنني أرتاح لشعر شوقي وأزعم أنه أشعر منه .

وقد مرَّ معنا في مديحه السلطان عبد الحميد فخره بشعره [٥] :

أمـولاي عنَّتْـك السـيوف فأطربـت فهـل ليَـراعي أن يغنـي فيطـرب

فعنـدي كمـا عنـد الظَّبـا لـك نغمـة ومختلـف الأنغـام للأنـس أجـلب

---

١ نغمة الريحانة ج١ ص ٢٤٠ .

٢ المقانب : مفرده مقنب : الجماعة من الخيل تجتمع للإغارة ، وفي رواية اخرى : مناقب شكر تهتدي بمناقب .

٣ النيِّرات : مفردها نيِّرة وهي الشمس ، الثواقب : مفردها : ثاقبة وتعني : اللامعة .

٤ ديوان شوقي ج١ ص ٩٧ .

٥ ديوان شوقي ج١ ص ٥٨ .

أعـــرِّب مـــا تنشـــي عـــــلاك وإنـــه لفـــي لطفـــه مـــالا ينـــال المعـــرب

أنـــاول مـــن شعرالخلافـــــة ربهـــا وأكســـو القـــوافي مـــا يـــدوم فيقشـــب

ونرى الفخر بالنفس واضحاً عند كثير من الشعراء ، ومنهم ابن السمان في مدحه للوزير الفاضل أحمد الكوبريلي [١] : فحفظ الوداد طبع أصيل في نفسه ، والالتزام بالوعد سجية قديمة في نفسه وقومه ، وهم يعفون عن الذنب ويغفرون للمسيء إساءته ، فإذا ما عيره الناس بقومه تعجب من ذلك لأنهم ذوو حسب وفعال ، وهو منهم بمثابة الجزء من الكل ، ولكن الحسد يعمي صاحبه فلا يرى فضل الناس ، ويعزي نفسه حين يرى الكرام قبله لم يخطئهم الحاسدون :

خلقتـــا وحفـــظ الـــود منـــا ســـجية وحســـن الوفـــا طبـــع ونعـــم الشـــمائل

ونغفـــر عـــوراء الحســـود وإن جنـــى ونعلـــم أن الخصـــم مـــا شـــاء قـــائل

يعيِّـــرني قـــوم بقومـــي ومحتِـــدي كمـــا عيـــب بالعضـــب الصقيـــل الحمائـــل[٢]

أجـــل حســـدوني حـــين فُضِّـــلت دونهـــم وكـــم حُسِـــدت فـــي النـــاس قبلـــي الأفاضـــل

فإذا فخر الناس بمالهم وجمالهم نبههم إلى أن الفخر يكون بالبعد عن الدنايا والتزام الأخلاق الفاضلة ، وينعى على عميان القلوب ممن لايفرقون بين الغث والسمين والنور والظلام ، وينهي فخره بنفسه بحكمة تدل على خبرته بالحياة إذ لافائدة من تقويم المعوج ، وأن أثقل شيء على النفس مخالطة الجاهل الذي يدعي العلم :

ومـــا الفخـــر بالأجســـام والمـــال والغنـــى ولكـــــن بـــــأنواع الكمـــــال التفاضـــــل

ومـــا يصـــنع الإنســـان يومـــاً بنـــوره إذا عادلـــت فيـــه النجـــومَ الجنـــادلُ[٣]

وأصـــعب مـــا حاولـــت تثقيـــف أعـــوج وأثقـــــل شـــــيء : جاهـــــل متعاقـــــل

ومنهم البارودي شاعر السيف والقلم : حيث يفخر بما نال من مجد فيقول [٤]:

أثريـــت مجـــداً فـــلم أعبـــأ بمـــا ســـلبت أيـــدي الحـــوادث منـــي فهـــو مكتســـب[٥]

لا يخفـــض البـــؤس نفســـاً وهـــي عاليـــة ولا يشـــــيد بـــــذكر الخامـــــل النســـــب[٦]

---

[١] نفحة الريحان ج١ ص ٢٤٥ .

[٢] العضب : السيف القاطع ، الصقيل : المجلو اللامع .

[٣] أحسن الشاعر التعبير في هذا البيت عن غفلة الإنسان الذي لايفرق بين الحق والباطل ، والنور والديجور ، وإن كان أخذ المعنى من قول المتنبي في خطاب سيف الدولة :

أعيـــذها نظرات منك صادقة أن تحسب الشحم فيمن شحمه ورم
وما انتفاع أخي الدنيا بناظره إذا استوت عنده الأنـــوار والظلـــم من ديوان المتنبي : شرح اليازجي ج٢ ، ص١٢٠ .

[٤] ديوانه ص ٧٤ ـ ٧٥ .

[٥] يقول إنه أضاف إلى أصله ومحتده مجداً من صنع يديه فإن سلبت منه حوادث الزمان بعض ما شاده فليس من خسارة لأنه قادر على أن يبني مجده من من جديد .

[٦] لا يمنع الفقر النفس العظيمة أن تسمو ، ولا يعلي المال ـ مهما كثر ـ من مكانة الدنيء .وهذه الفكرة يكررها الشاعر كثيراً في قصائده لأنه متأثر بغدر بغدر الزمان

إنــي امــرؤ لا يــردُّ الخـــوف بــادرتي ... ولا يحيـــف علـــى أخلاقـــي الغضـــب[1]

ملكـــت حلـــمي فلـــم أنطـــق بمنديـــة ... وصـــنت عرضـــي فلـــم تعلـــق بـــه الريـــب

ويقول في قصيدة أخرى مفتخراً بشجاعته :

ولمـــا تـــداعى القـــوم واشـــتبك القنـــا ... ودارت كمـــا تهـــوى علـــى قطبهـــا الحـــرب

وزيـــن للنـــاس الفـــرار مـــن الـــردى ... وماجـــت صـــدور الخيـــل والتهـــب الضـــرب

ودارت بنـــا الأرض الفضـــاء كأننـــا ... ســـقينا بكـــأس لا يفيـــق لهـــا شـــرب

صـــبرت لهـــا حتـــى تجلَّـــت ســـماؤها ... وإنـــي صبـــور إن ألـــمَّ بـــيَ الخـــطب[2]

وفي وصفه لحرب الروس يفخر بنفسه وجنده فيقول [3] :

ترانـــا بهـــا كالأســـد نرصـــد غـــارة ... يطـــير بهـــا فتـــق مـــن الصـــبح لامـــح [4]

مدافعنـــا نصـــب العـــدا ومشاتنـــا ... قيـــام تليهـــا الصافنـــات القـــوارح [5]

فلســـت تـــرى إلا كمـــاة بواســـلاً ... وجـــرداً تخـــوض المـــوت وهـــي ضـــوابح [6]

فقـــد يهلـــك الرعديـــد فـــي عقـــر داره ... وينجـــو مـــن الحتـــف الكمـــي المشـــايح [7]

فـــإن عشـــت صـــافحت الثريـــا وإن أمـــت ... فـــإن كـــريماً مـــن تضـــم الصـــفائح [8]

وهذا معروف الرصافي يفخر بالمسلمين المجاهدين الذين يطربون لصليل السيوف وسفك دماء الأعداء ، والضراب والنزال ، والطعن بالرماح وجلاد الأعداء [9] :

نحـــن للحـــرب العـــوان ... ولإدراك الأمـــــــــــاني

لا نُعِـــــدَّ العـــــرس إلا ... يـــوم ضـــرب وطعـــان

يـــوم نحســـو مـــن دم الـــ ... أعـــداء لا بنـــت الـــدنان

مـــا صـــليل الســـيف إلا ... عنـــدنا صـــوت المثـــاني

---

[1] لا يحيف : لايجور ولا يطغى ، أي لايخرجه الغضب عن طوره .

[2] إن الشاعر صبور على شدائد الحرب لا يلين لها حتى تنكشف غمتها .

[3] ديوانه ص / ١٠٦ ـ ١٠٨ .

[4] شبه لمعان القذيفة بانشقاق الفجر ، ولامح : لامع .

[5] الصافنات : جمع صافن وهو من الخيل ما يقف على ثلاث قوائم ، وأقام الرابعة على طرف الحافر ، وهي من الصفات المحمودة في الخيل ، القوارح : جمع قارح ، وهو الفرس البالغ من العمر خمس سنوات .

[6] الكماة : جمع كمي : الشجاع أو لابس السلاح ، الجرد : جمع أجرد وهو الفرس السباق . الضوابح : جمع ضابح ، وضبح الخيل : صوت أنفاسها عند العدو والجري .

[7] المشايح : المقاتل ، الرعديد : الجبان .

[8] الصفائح : حجارة رقاق ، والمراد القبر ، أي إن عاش عاش حميداً ، وإن مات مات كريماً .

[9] ديوان الرصافي من قصيدة (أنشودة الحرب) ص ٤٩٤ .

شـــفنا الحـــب لبـــيض الـــ هنـــــد لا بـــــيض الحســـــان

نحـــــــــن لا نفخـــــــــر إلا بلســـــــان مـــــن ســـــــنان

شـــــيم ينظـــــر مـــن تحـــ تُ إليـــــــها الفرقـــــــدان

ســـل بنـــــا كـــل زمـــان ســـل بنـــــا كـــل مـــكان

هـــل بنينـــــا المجـــد إلا بالحســـــــام الهنـــــدواني

ويفخر بالانتصار عام / ١٩١١ م / على الإيطاليين في طرابلس فيقول [١] :

هـــو النصـــر معقـــود برايتنـــا الحمـــرا علـــى أنـــه فـــي الحـــرب رايتنـــا الكبـــرى

حليفـــان مـــن نصـــــر مبيـــن ورايـــة بـــه وبهـــا نعلـــو علـــى غيرنـــا قـــدرا

لـــئن أدبـــر (الطليـــان) عنـــد كفاحنـــا فـــإن لهـــم مـــن بطـــش شـــجعاننا عـــذرا

يعـــز علـــى أســـــيافنا اليـــوم أنـــــها تقـــارع قومـــاً قـــرعهم بالعصـــا أحـــرى

فالنصر تبع للعثمانيين يسير في ركابهم وينضوي تحت لوائهم ، ولهم حليفان دائمان : نصر الله سبحانه وتعالى ، والراية الحمراء علم الدولة الدال على كثرة الحروب والدماء التي روت البلاد وثبتت فيها الخلافة ، ولئن هرب الإيطاليون في طرابلس ـ أول الأمر ـ حين جابههم المسلمون فإنهم معذورون بسبب بطش المدافعين وشجاعتهم مما جعل أولئك يؤثرون السلامة ويهربون بسفنهم إلى بلادهم .

وهذا الكاشف الشاعر المصري الذي يرى نفسه مسلماً قبل كل شيء ، يهتز طرباً حين يسترد الأتراك إزمير من اليونان الذين احتلوها سنة / ١٩١٩ م / فيفخر بإخوانه الأتراك منطلقاً من أخوة الإيمان التي تجمع المسلمين جميعاً [٢]:

يـــا أمـــــة الإيمـــــان والعقبـــى لكـــم فـــي كـــل مضـــطرب وكـــل قـــرار

ظلمتكـــــم الأيـــــام فانتصـــــفوا إذن لكيانكـــــم بحديدكـــــم والنـــــار ٣

واقضـــوا لأنفسكـــم فأنتـــم فـــي غنـــى عـــن ســـائر الأشـــهاد والأقـــدار

هـــل فـــي الوجـــود اليـــوم شـــأن غيـــر مـــا طيَّرتـــــمُ مـــــن رائـــــع الأخبـــــار

مـــــلأ المـــدائن والثغـــور نذيركـــــم مـــــلء المســـــامع قبـــــل والأنصـــــار

عالجتموهـــــم بالجـــــدال فأمعنـــــوا وعلاجهـــــم فـــــي بطشـــــة الجبـــــار ٤

---

١ ديوانه قصيدة (في طرابلس) ص ٤٨٢ .

٢ ديوان الكاشف ، ص ٢٩٤

٣ الأيام لا تظلم بل الإنسان يظلم نفسه حين يبتعد عن شرع الله { وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون .. } .

٤ إن المحادثات والمباحثات السلمية لا تعيد حقاً ، إنما يعيده القتال { قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم وينصركم عليهم ..}

وختمتـــــم كبـــــرى الحـــروب بفتكـــة أدركتـــــــم فيهـــــا قديـــــم الثـــــار

عودتمـــــــوني أن أتيـــــه بنصركـــــم واعتـــــدتم أن تســـــمعوا أشـــــعاري

إنـــي أُمُـــــتُ إليكـــــم بعقيـــــدة وخليقـــــة وقرابـــــة وجِـــــوار

وهذا شوقي في قصيدته المشهورة (تحية للترك) يرى جمع الأعادي لا يساوي جنيناً في بطن أمته المسلمة [1] :

ولا والله والرســـــــــل الكـــــــرام وبيتـــك خيـــر بيـــت فـــي الأنـــام

لمـــا كـــانوا وســـيفك ذو انتقـــام يعـــادل جمعهـــم منـــا جنينـــا

وحين تجرأ اليونان على الدولة العثمانية جاء جنود المسلمين كالقدر النازل على الأعداء .. تعال معي إلى هذا الوصف المتحرك الذي يملأ العين والأذن :

رأيـــت الحلـــم لمـــا زاد غُـــرَّاً وجـــرَّأ ملكهـــم حتـــى تجـــرَّا

فجـــاءتك الدعـــاوى منـــه تتـــرى وجـــاءته جنـــودك مبطلينـــا

بخيـــل فـــي الهضـــاب وفـــي الروابـــي ونـــار فـــي القـــلاع وفـــي الطـــوابي

وســـيف لايليـــن ولايحـــابي إذ الآجـــال رجَّـــت منـــه لينـــا

وجيـــش مـــن غـــزاة عـــن غـــزاة هـــم الأبطـــال مـــن مـــاض وآت

ومـــن كـــرم أذلـــوا كـــل عـــات وذلـــوا فـــي قتـــال المســـلمينا

أبعـــد بلائهـــم فـــي كـــل حـــرب وضـــرب فـــي الممالـــك أيَّ ضـــرب

تحـــاول صبيـــة فـــي زي شـــعب وتطمـــع أن تـــدوس لهـــم عرينـــا

ثالثاً : الرثـــاء :

بكاء وتفجع على الفقيد وتعداد لمناقبه وذكر لفضائله ، هذا إن كان الفقيد واحداً ، أما إن كان شعباً وأمة فحزن على أمل لم يتحقق ، وألم لاستقلال فُقِد أو حياة انتقصت ، وإن كانت مدناً اقتطعت أو دُمِّرت فهذا رثاء المدن ، ويدخل فيه تغير المعالم وتهجير الشعب أو إبادته أو استعباده .

رثاء الأشخاص :

فهذا الخليفة سليمان القانوني يوافيه الأجل بعد أن حكم زهاء سبع وأربعين سنة فكان قمة خلفاء آل عثمان في قوته ، ففي عهده وصلت الدولة العثمانية إلى أوج قوتها وعليائها ، فبكاه الشعراء وعلى رأسهم : الملا أبو السعود الذي يصوروقع نبأ الموت عليه وعلى الناس جميعاً تصويراً يدل على عظيم المصاب وفداحة الخطب ، فكأن القيامة قامت ونفخ إسرافيل في الصور أو كأن الناس صعقوا كما صعق موسى ـ عليه السلام ـ إذ انهد جبل الطور ، وهذه الدنيا مهدمة ، والديار منهدة ، ومعالم الأرض تغيرت ، والجبال تصدعت ، والناس مرعوبون مذعورون ، أصابهم الضياع وتاهوا حين سمعوا بموت الخليفة ، وانسكبت من عيونهم الدماء بدل

[1] ديوان شوقي ج٣ ، ص ٢٨١ .

الدموع ، وحق لهم ذلك فقد كان الخليفة ملء العين والقلب ، ملأ الدنيا بهيبته فخافه كل جبار عات ، وبه قامت الخلافة فأعز دين الله تعالى بسعي مشكور وعزم صادق ، وهو آية العدل والإحسان وغاية البر والتقوى ، أثره في الجهاد معروف ، قد أيده الله ورفع مقامه ، وكان جيشه سيفاً على الأعداء مشهوراً [١] :

أصـــوت صـــاعقة أم نفخـــة الصـــور ... فـــالأرض قـــد ملئـــت مـــن نقـــر نـــاقور[٢]

أصـــاب منهـــا الـــورى دهيـــاء مظلمـــة ... وذاق منهـــا البرايـــا صـــعقة الطـــور

تهدمـــت بقعـــة الدنيـــا لوقعتـــها ... وانهـــد مـــا كـــان مـــن دور ومـــن ســـور

أمســـت معالمـــها تيمـــاء مقفـــرة ... مـــا فـــي المنـــازل مـــن دار وديُّـــور[٣]

تصـــدعت قُـــلل الأطـــواد وارتعـــدت ... كأنهـــا قلـــبُ مرعـــوبٍ ومـــذعور [٤]

تاهـت عقـول الـورى مـن هـول وحشـته ... فأصـــبحوا مثـــل مجنـــون ومســـعور

تقطعـت قطعـــاً منـــه القلـــوب فـــلا ... يكـــاد يوجـــد قلـــب غيـــر مكســـور

أجفانهـــم ســـفن مشـــحونة بـــدم ... تجـــري ببحـــر مـــن العبـــرات مســـجور

أم ذاك نعـــي ســـليمان الزمـــان ومـــن ... مضـــت أوامـــره فـــي كـــل مأمـــور

مـــدار ســـلطنة الدنيـــا ومركزهـــا ... خليفـــة الله فـــي الآفـــاق مـــذكور

معلـــي معالـــم ديـــن الله مظهرهـــا ... فـــي العـــالمين بســـعي منـــه مشـــكور

وحســـن رأي إلـــى الخـــيرات منصـــرف ... وصـــدق عـــزم علـــى الألطـــاف مقصـــور

بآيـــة العـــدل والإحســـان ممتســـك ... بغايـــة القســـط والإنصـــاف موفـــور

مجاهـــد فـــي ســـبيل الله مـــجتهد ... مـــؤيد فـــي جنـــان القـــدس منصـــور

ورايـــة رفعـــت للمـــجد خـــافقة ... تحـــوي علـــى علـــم بالنصـــر منشـــور

وترى الشاعر يتعجب من بقائه حياً والخليفة قد مات ، وكيف يمشي على الأرض وجثمان الفقيد داخلها ، ثمَّ ينتبه إلى أنه لكل أجل كتاب ، وأن الخليفة حي لأنه مات مجاهداً في سبيل الله في أرض المعركة ، حي عند ربه يرزق ، فقد ابتاع بسلطنة الدنيا سلطنة الآخرة ، ثمَّ إن ابنه سليماً الثاني خلفه وهو خير خلف لخير سلف :

يـــانفس مـــالك فـــي الدنيـــا مخلَّفَـــة ... مـــن بعـــد رحلتـــه عـــن هـــذه الـــدور

فكيـــف تمشـــين فـــوق الأرض حافلـــة ... أليـــس جثمانـــه فيهـــا بمقبـــور؟

---

[١] المنح الربانية ص / ١٣٢ ـ ١٣٦ / .

[٢] الناقور : البوق ينفخ فيه .

[٣] تيماء : فلاة واسعة قفرة مهلكة . الديُور : ساكن الدار .

[٤] القلل : جمع قُلَّـة وهي أعلى الرأس والجبل وكل شيء .

وللمنايـــــا مواقـــيت مقـــررة ... تـأتي علـى قـدر فـي اللـوح مسـطور

ولـيس مـن شأنهـا للنـاس مـن أثـر ... ومدخـــل مـا بتقديـــم وتأخـــير

ولا تظنيـه قـد مـات ، بـل هـو ذا ... حـي بـنص مـن القـرآن مزبـور[1]

لـــه نعيـــم وأرزاق مقـــدرة ... تجـري عليـه بوجـه غيـر مشـعور

ابتـاع سـلطنة الدنيـا بسـلطنة الـ ... عقبـى فـأعظم بـربح غيـر محصـور[2]

أمـا تـرى ملكـه المحمـي آل إلـى ... سِـرٍّ سـريٍّ (كـريم النشـر) مشـهور[3]

ولـي سـلطنة الآفـاق مالكهـا ... بـراً وبحـراً بعـين اللطـف منظـور

ويتوفى سليمان الثاني حفيد سليمان القانوني سنة / ١١٠٢ هـ / فيبكيه الشاعر محمد ابن مصطفى ولقب أبيه بستان ، وكان محمد مفتي الدولة العثمانية ورئيس علمائها ، فيخاطب من نعى الخليفة إلى الناس بأنه زرع الألم في قلوب الناس حين نعى إليهم خليفتهم ، وفتح عليهم مواجع الموت فجأة فبلغ الحزن في صدورهم مبلغاً عظيماً، ومزَّق قلوبهم غماً وكآبة فعاد السرور الذي عاشوه في كنف الفقيد سهاماً للمنايا ، ورقَّ النسيم حزناً وشفقة ، حتى الحمائم بكت لهذا المصاب الجلل [4] :

ألا أيهـا النـاعي كأنـك لا تـدري ... بمـا قلـت مـن سـوء المقالـة والشـرِّ

أسـلت سـيول المـوت فـي الـدهر بغتـة ... وقـد بلـغ السـيل الزبـى مـن جـوى الصـدر

وشـقت قلـوب المسـلمين جراحـة ... بصـارم سـيف قـد مضـى ماضـي الأمـر

سـهام المنايـا مـن قسـي صروفهـا ... أصـابت بـدهر فـي ابتسـام مـن الثغـر

نسـيم الصـبا رقَّـت بأشـجان فرقـة ... حمامـة ذات السـدر حنت من الذعر

ثم يوضح الشاعر مكانة الملك سليمان الثاني : فهو ملك همام حكم فنصح للأمة ، قدره عظيم ، جواد كريم ذو عزم مكين ، كانت أيامه مضيئة كالشمس وأعوامه أحلى من البدر .. ولن يستطيع الشاعر أن يفيه حقه ، لكن البكاء عليه يوضح ما أصابه لفقده من ضر وحزن :

همـامٌ علـى هـام الممـالك تاجـه ... أميـن ، رشـيد فـي الخلافـة ذو قـدر

أأعنـي جـواداً فـي جـواد بـذكره ... لقـد سـارت الركبـان فـي البـر والبحـر

عزيمتـه فـي البحـر كانـت عظيمـة ... وهمتـه فاقـت علـى الأنجـم الزهـر

وأيامـه كالشـمس كانـت مضيئـة ... وأعوامـه فـي الحسـن أبهـى مـن البـدر

---

[1] مزبور : مكتوب .

[2] أخطأ الشاعر ، والصواب أن يقول : ابتاع سلطنة الأخرى بسلطنة الدنيا .. لأن الباء تدخل على المتروك .

[3] في الشطر الثاني : سر سري إن في الدهر مشهور وهو مكسور فصوبته ، وما بين القوسين من عندي .

[4] نفحة الريحانة ج٣ ص / ٧٤ ـ ٧٥ .

ومـــا قيـــل إجمـــال لبـــعض صـــفاته ولا يمكـــن التفصـــيل بـــالنظم والنثـــر

علـــى صـــفحة الخـــدين أمليـــت مـــاجرى بأقـــلام أهـــداب مـــن البـــؤس والضـــر

وهذا محمود سامي البارودي يرثي (إسماعيل سليم) ناظر الجهادية والقائد العام للحملة المصرية التي انطلقت إلى جزيرة كريت دعماً للجيش العثماني في قتاله ضد اليونان عام / ١٨٦٥ م [١] :

أي فتـــــى للعظيـــــم ننـــــدبه شـــاط علـــى أنصـــل الرمـــاح دمـــه٢

أســـــلمه صحبـــــه ومـــا علـــموا أن ســـوف يمحـــو وجـــودهم عدمـــه٣

زال الألـــــى حـــــازوا مصـــــارعهم ولـــم تـــزل عـــن مكانهـــا قدمـــه٤

طـــــاح بجثمانـــه الثـــرى ورقـــى إلـــى ســـماوات ربـــه نسَـــمُه٥

نعـــم فتـــى الحـــرب فـــي الهيـــاج إذ شـــبَّ لظـــى البأســـاء واعتلـــى ضـــرمه

قـــد ألفـــت صـــحبة القنـــا يـــده واعتـــاد (لبيـــك) فـــي الســـماح فمـــه٦

ليـــــس بهيَّـــــابة ولا وَكـَــــلٍ بـــل صـــادق فـــي اللقـــاء معتَـــرَفُـــه٧

إن صـــــال فـــــلَّ العـــدا بصـــولته أو قـــــال أروت مشـــاشـــــنا كلمـــه٨

ينكفـــــت الجـــيش حـــين يفجـــؤه ويصـــعق القـــرن حـــين يلتزمـــه ٩

بكـــــى بـــــدمع الفِرنـــــد صـــــارمه وانشـــق مـــن طـــول حزنـــه قلمـــه١٠

فمـــن إلـــى ملجـــأ الضـــعيف إذا أقبـــــل ليـــــل وأطبقـــت ظلمـــه١١

---

١ ديوان محمود سامي البارودي ص / ٥٦١ ــ ٥٦٢ .

٢ شاط دمه : سال وتصبب ، أنصل الرماح : جمع نصل وهو سنان الرمح ، والمعنى : لن نجد فتى عظيماً نندبه للأمر العظيم وندعوه له .

٣ أسلمه : خذله ، والمعنى : خذله أصحابه ونسوا أنهم بخذلانهم له كتبوا على أنفسهم الموت والفناء ، فقد خسروا بمقتله قائداً يعتمدون عليه ويلجؤون إليه .

٤ يؤكد الشاعر في هذا البيت أن الذين جبنوا عن نجدة ذلك القائد حذر الموت كتبوه على أنفسهم ، ولله در المثل المشهور : أُكِلْت يوم أكل الثور الأبيض) .

٥ طاح به : أهلكه . والمعنى : إن يكن سقط شهيداً فقد رقت روحه إلى ربها في جنته .

٦ من محاسن المرثي ومحامده أنه محارب شجاع مقدام ، وجواد كريم معطاء ، وهذه الفضائل متأصلة فيه .

٧ هيَّاب : جبان ، الوكل : الجبان والعاجز الضعيف ، اعترف للأمر : صبر عليه .

٨ صال : وثب مقاتلاً ، فلَّ الجيش : هزمه ، أروت : سقت ، المشاش : النفس . فالمرثي شديد البأس في القتال إن صال صولة كسر أعداءه وقهرهم وشتت شملهم ، وهو إلى شجاعته وقوته وإقدامه في الحروب أديب ورب بيان ساحر القول يقع كلامه في نفوس الناس موقع الماء من ذي الغلة الصادي .

٩ ينكفت : ينهزم ، يصعق : يهلك ، أو يغشى عليه . ، قرن المرء : صنوه : ومثله في الشجاعة . يلتزمه : يعتنقه واعتنقه في الحرب : أخذ بعنقه . والمعنى : إنه يهلك الجيش حين يفاجئه ، ويهلك الشجاع حين يقابله .

١٠ الفرند : جوهر السيف ووشيه ، الصارم : السيف القاطع . جعل رونق السيف وماءه ، وما يلمح في صفحته من أثر تموج الضوء دمعاً وقال : إن سيف المرثي بكاه بهذا الدمع ، وانفلق قلمه من حزنه عليه .

١١ لمن يلجأ الضعفاء إذا أصابتهم مصيبة أو ألمَّ بهم مكروه ؟!..

ومـــن يقـــود الزحـــوف راجعـــة ... واليـــوم بـــالحرب ســـاطع قَتَـــمُه[1]

مـــات وأبقـــى شـــجًى لفرقتـــه ... يكـــاد يفـــري قلوبنـــا ألمـــه[2]

فاذهـــب عليـــك الســـلام مـــن بطـــل ... مـــات وعاشـــت مـــن بعـــده نعمـــه

وقد مرَّ معنا في دراسة المديح لأحمد شوقي في قصيدة تحية للترك قصة الشيخ (عبد الأزل) الذي استشهد وهو على ظهر فرسه وأبى أن يتركه وقد جرح ، وفي القصيدة كثير من صور البطولة لرجال بذلوا أرواحهم في سبيل دينهم وفداء لأمتهم ، فاستحقوا الرثاء يزجيه أهل الأرض والغفران يمنحه رب السماء [3]:

وقـــد زاد البســـالة مـــن وقـــار ... هزبـــر مـــن ليـــوث التـــرك ضـــار

تقـــدم نحـــو نـــار أي نـــار ... ليســـبق نحـــو خالقـــه القرينـــا

جـــرى فـــأذل هاتيـــك الألـــوفا ... وزحـــزح عـــن مواضـــعها الصـــفوفا

فخـــاض إلـــى مكامنهـــا الحتوفـــا ... ومـــا هـــاب الرمـــاة مســـددينا

دعـــا لله فـــي وجـــه الأعـــادي ... كلـــيث زائـــر فـــي بطـــن واد

فلبتـــه الفيـــالق والأرادي ... ودار هـــلال رايتنـــا يمينـــا[4]

صـــلاة الله ربـــي والســـلام ... علـــى قتلـــى بفرســـالو أقامـــوا[5]

هـــم الشـــهداء حـــول الله حـــاموا ... فأدناهـــم ، وكانـــوا الفائزينـــا

أنالـــوا الملـــك فتحـــاً أي فـــتح ... وشـــادوا للخـــلافة أي صـــرح

وجـــاؤوا ربهـــم منهـــم بـــذبح ... تقبلـــه ، وكـــان بـــه ضنينـــا

ســـلاماً ســـفح فرســـالو ســـلاما ... وكـــن خيـــر المقـــام لمـــن أقامـــا

وضـــنَّ بهـــا وإن بليـــت عظامـــا ... تُـــطيف بهـــا المـــلائك حائمينـــا

وحين غادر الطليان طرابلس للمرة الأولى يجرون أذيال الخيبة والهزيمة قتلوا كثيراً من النساء والأطفال والشيوخ والعُزَّل ، فبكاهم الرصافي بكاء مراً وقال [6]:

لـك الله يـا قتـلى طرابلـس التـي ... بهـا حكـم الطليـان أسيافهـم غـدرا

أدامـوا بـها قتـل النفـوس نـكاية ... إلـى أن أصـاروا كـل بيـت بهـا قبـرا

---

١ راجعة ،: متهيئة للقتال والحرب ، ساطع : عال ، القتم : الغبار الأسود ، وفي ذلك كناية عن اشتداد الحرب واحتدامها .

٢ الشجى : الهم ، يفري : يشق ويقطع .

٣ ديوان شوقي ج٣ ص / ٢٨٤ ـ ٢٨٥ .

٤ الأرادي : جمع أردى وهو الجيش .

٥ فرسالو : معركة بين العثمانيين واليونان .

٦ ديوان الرصافي ص / ٤٨٢ ـ ٤٨٤ .

لـئن ــ أيهـا القتلـى ــ أريقـت دماؤكـــم فمـــا ذهبـت عنـــد العـدا بعدكـــم هـدرا

ســـــنثأر حتـى تســـأم الحـرب ثأرنـــا ونقتـل عـــن كـل امـــرئ أنفســاً عشـرا

وإنـــي لتغشـــاني ، إذا مـــا ذكرتكـــم لـواعج حـزن ترتمـي فـي الحشـا جمـــرا

علـى أن قـرص الشـمس عنـد غروبهـا يذكـــرني تـــلك الدمـــاء إذا احمـــرَّا

فأبكـــي تجـاه الغـــرب والبـدر لائـــح مـن الشـرق حتـى أبكـيَ الشـمس والبـدرا

وهذا صادق في مطولته (ذكرى النصر الخالد) [1] يبكي شهداء الأتراك الذين قضوا وهم يطردون اليونانيين من بلادهم :

ســـلام علـــيكم يـــابني الشـــرق كلمـــا تعانقـــت الأغصـــان وهـــي يوافـــع[2]

ســـلام علـــيكم بـــل ســـلام علـــى الألـــى لهـــم بـــين أحنـــاء القلـــوب مضـــاجع[3]

علـــى شـــهداء الشـــرق والحـــق والهـــدى تنـــاءت بهـــم تلـــك القفـــار البلاقـــع[4]

تفانَـــوْا فكانـــوا للمواطـــن ســـلَّماً فقـــامت علـــى أشـــلائهم تترافـــع

إلـــى المـــلأ الأعلـــى ســـلامي كلمـــا وقفـــت أمـــام الله والقلـــب خاشـــع

ســـلام عليهـــم كلمـــا ذرَّ كوكـــب وأومـــض بـــرق واســـتهلَّت مـــدامع

<u>رثاء المدن :</u>

رثاء المدن غرض من الأغراض الشعرية القديمة ، عالجه كثير من الشعراء على مر العصور وتطوروا فيه من الوقوف على الأطلال ووصف ما حلَّ بها بعد هجر أهلها لها إلى وصف الدمار الذي كانت تخلفه فيها الغزوات والحروب ، فهذا أبو البقاء الرندي يرثي الأندلس بقصيدته المشهورة التي مطلعها :

لكـــلِّ شـــيءٍ إذا مـــا تـــمَّ نقصـــان فـــلا يـــغُرَّ بطيـــب العـــيش إنســـان

هـــي الأمـــور كمـــا شـــاهدتها دول مـــن ســـرَّه زمـــن ســـاءته أزمـــان

ويصف ما حلَّ بالمدن الأندلسية من قتل لسكانها وتشريد رجالها وسبي نسائها وأطفالها .

ويصور شاعر آخر ما حلَّ بمدينة بغداد من دمار بعد دخول التتار واستباحتها أربعين يوماً ، فيقول :

إن لـــم تقـــرح أدمعـــي أجفانـــي مـــن بعـــد بعـــدكم فمـــا أجفـــاني

---

[1] ديوان صادق : ج٢ (وادي الدموع) ص ١٦١ .

[2] يوافع : جمع مفرده : يافعة وهي الشامخة المرتفعة .

[3] يبكي على الأتراك الذين بلغ الشهداء فيهم عدداً كبيراً .

[4] البلاقع : مفرده بلقع وهو الخالي من كل شيء .

إنســـان عينـــي مـــذ تنـــاءت داركـــم مـــا راقـــه نظـــر إلـــى إنســـان

ويصور وقوفه على أطلال بغداد وسؤاله عن أهلها فتكلمه بلسان الحال وتحكي له ما جرى عليهم من قتل وذبح لتركهم القتال ورضاهم بالذل والهوان .

وهذا ابن الرومي يرثي البصرة حين أحرقها الزنج ... وغير أولئك كثيرون رثوا مراتع الصبا ومرابع الأهل والأحباب .

وسنقف هنا على قصيدة شوقي يرثي أدرنة حين احتلها البلغار عام / ١٩١٢ م / بعد قتال مرير بينهم وبين العثمانيين [١]، فالقصيدة خمسة أبيات ومئة ، في ثمانية مقاطع ، ففي الأول منها : يتفجع على سقوطها ويقرن مصاب المسلمين فيها بمصابهم فيما حلَّ بالأندلس ، ويتمنى لو قامت الساعة قبل أن تسقط بيد النصارى ، ولكنه أمر الله ، وينبههم إلى أن غفلة المسلمين هي التي تسبب سيطرة أعدائهم عليهم :

يـــا أخـــت أندلـــس عليـــك ســـلام هـــوت الخلافـــة عنـــك والإســـلام

نـــزل الهـــلال عـــن الســـماء ـ فليتهـــا طويـــت ـ وعـــمَّ العـــالمين ظـــلام

أزرى بـــه وأزالـــه عـــن أوجـــه قـــدر يحـــطَّ البـــدر وهـــو تمـــام

والـــدهر لا يـــألو الممـــالك منـــذراً فـــإذا غفـــلن فمـــا عليـــه مـــلام

وفي المقطع الثاني يتحسر الشاعر عليها ، ويعد سقوطها هواناً للمسلمين لأنها كانت فيهم كالناب من الأسد ، فقد كانت عاصمة العثمانيين ، ومنها انطلقت الجيوش لفتح أوروبا ، واليوم هان كل شيء ، ولو أصلح الحكام أنفسهم وصانوا عروشهم ما سقطت (فإنما الأمم الأخلاق مابقيت) :

مقدونيـــا والمســـلمون عشـــيرة كيـــف الخؤولـــة فيـــك والأعمـــام

أترينهـــم هانـــوا ، وكـــان بعزِّهـــم وعلوِّهـــم يتخايـــل الإســـلام

إذا أنـــت نـــاب الليـــث كـــل كتيبـــة طلعـــت عليـــك فريســـة وطعـــام

مـــا زالـــت الأيـــام حتـــى بُـدِّلـــت وتغيـــر الســـاقي وحـــال الجـــام

لـــو آثـــروا الإصـــلاح كنـــت لعرشـــهم ركنـــاً علـــى هـــام النجـــوم يقـــام

ولقـــد يقـــام مـــن الســـيوف ولـــيس مـــن عثـــرات أخـــلاق الشـــعوب قيـــام

وفي المقطع الثالث يصور تدخل الدول الأوروبية إلى جانب اليونان ضد الدولة العثمانية ، وكانوا بالأمس احتلوا من أفريقيا مصر وليبيا وتونس والجزائر .

وفي المقطع الرابع يصف جيوش الكفر يحثهم القساوسة على الكيد للإسلام والمسلمين .

---

[١] ديوان شوقي ج١ ص / ٢٣٠ ـ ٢٣٩ / .

وفي المقطع الخامس يناجي عيسى عليه السلام النبي الذي بُعِث بالسلام والأمان فسار أتباعه على غير هديه ، وقتلوا وذبحوا ، ويورد صوراً لإجرامهم وفسادهم :

عيسى : سبيلك رحمة ومحبة ... في العالمين وعصبة وسلام

يا حامل الآلام عن هذا الورى ... كثرت عليه باسمك الآثام

خلطوا صليبك والخناجر والمدى ... كلٌّ أداة للأذى وحِمام[1]

أوما تراهم ذبحوا جيرانهم ... بين البيوت كأنهم أغنام

ومرضَّعٍ في حجر نعمته غدا ... وله على حدِّ السيوف فطام

وصبية هُتِكت خميلة طهرها ... وتناثرت عن نَوْره الأكمام

وأخي ثمانين استبيح وقاره ... لم يغن عنه الضعف والأعوام

وجريح حرب ظامئ وأدوه لم ... يعطفهم جرحٌ دم وأوام[2]

وفي المقطع السادس يلوم العثمانيين إذ تخاذلوا فضاعت حقوقهم ، وقام كل منهم يحمِّل الآخر سبب الهزيمة .

أما في المقطع السابع فيذكر ضرورة الدفاع عن أدرنة ، وأن ماأخذ بالسيف لا يرد إلا بالسيف ، وقد قضى المسلمون في أدرنة يدافعون عن مدينتهم وكرامتهم .. ويذكرقائد الجيش الذي سقط شهيداً .

وفي المقطع الثامن صورة حية لما جرى في هذه المدينة يستهلها بحكمة توضح أن كل شيء يزول ، كما يصف المساجد التي أقفرت من المصلين رجالاً ونساء :

صبراً أدرنة كل ملك زائل ... يوماً ويبقى المالك العلام

خفت الأذان فما عليك موحد ... يسعى ولا الجمع الحسان تقام

وخبت مساجد كن نوراً جامعاً ... تمشي إليه الأسد والآرام

ثم يصف ما اجتمع على المدينة من أعداء فتكت بها على مدى خمسة أشهر من الجهاد والقتال طويلة ، فقد اجتمعت الأوبئة والأعداء ، والسيول وتراكم الثلوج ، وقلة الطعام ...

في ذمة التاريخ خمسة أشهر ... طالت عليك فكل يوم عام

السيف عار والوباء مسلط ... والسيل خوف والثلوج ركام

والجوع فتَّاك وفيه صحابة ... لولم يجوعوا في الجهاد لصاموا

---

[1] لم يكن النصارى أتباع المسيح ـ عليه السلام ـ كما يزعم الشاعر ، ولو كانوا كذلك لآمنوا بالنبي الذي بشَّر به وهو محمد ﷺ

[2] دم : دام : وهي صفة للجرح ، حذفت ياؤه لتنوين الرفع (الدامي) ، وأوام : حرارة العطش .

وينهي الشاعر قصيدته بفكرة مؤداها : أن أدرنة لم تسقط إلا بعد أن سقط من الأعداء الكثير الكثير، فكان ثمنها باهظاً :

ضـــنوا بعرضـــك أن يبـــاع ويشـــترى عـــرض الحرائـــر لـــيس فيـــه ســـوام

بعـــت العـــدو بكـــل شـــبر مهجـــة وكـــذا يبـــاع الملـــك حيـــن يـــرام

مـــا زال بينـــك فـــي الحصـــار وبينـــه شـــم الحصـــون ومـــثلهن عظـــام[1]

حتـــى حـــواك مقابـــراً وحويتـــه جثثـــاً ، فـــلا غـــبن ولا اســـتذمام[2]

ونلاحظ أن الشاعر كان في قصيدته متشائماً على عكس ما سنجد عند الشاعر معروف الرصافي الذي تفاءل بأن تعود أدرنة إلى تركيا وذلك في البيتين الأولين (اللازمة) من قصيدته التي بناها على نظام الموشح ، فهو يخاطب أدرنة ويبين أن القتال والسيوف سيرعى العهد الذي قطعناه على أنفسنا بإعادتك إلينا ، ولئن كان الوداع قسرياً فلن يكون إلى الأبد ، ولكنه وداع من يعلم أنه عائد إلى عرينه .

أدرنـــــة مهـــــلاً فـــإن الظبـــــا ســـترعى لـــك العهـــد والموثـــقا

وداعـــاً لمغنـــاك زاهـــي الربـــا وداعـــاً ولكـــن إلـــى الملتقـــى

وفي المقطع الأول يتفق مع ما قاله شوقي في المساجد التي أقوت من أهلها والمحراب الذي أقفر واستوحش ، فقد كان سقوطها أليماً فُجِعَ به المسجد الحرام ، واهتز له قبر الرسول ﷺ وقبر صاحبيه الصديق والفاروق ، وفجع شهداء البقيع ومسجد قباء ، وقبور من شهد معركة الخندق وفتح مكة :

عـــــزاء لمســـــجدك الجـــــامع أفـــــارق محـــــرابه المنبـــــرا؟

وهـــل فـــي مصـــلاه مـــن راكـــع يجيـــب المـــؤذن إن كبَّـــرا

فيـــا لســـقوطك مـــن فاجـــع بـــه فجَـــعَ الدهـــرُ أمَّ القـــرى

وقبـــر النبـــوة فـــي يثـــرب ومثـــوى ضـــجيعيه مثـــوى التقـــى

ومـــن فـــي البقيـــع ومـــن فـــي قـــبا ومـــن شـــهدوا الفـــتح والخنـــدقا

ويخفف من مصابها في المقطع الثاني ، فالمسلمون سيعيدونها ، وهي في قلوبهم وعقولهم ، وقد كانت ملاذهم وأريج توحيدهم ، ولن تكون للمشركين ملعباً .

ويحدد في المقاطع الأخرى أسباب الضعف عند المسلمين ، فقد ناموا عن العلم والاستعداد ، وتركوا ميدانه يروده الغرب فيرقون مادياً ، أما أفعالهم وتمدنهم فعلاً فما تزال همجية ، وهذا واضح من أفعالهم في البلاد التي

---

[1] كانت المدينة محصنة بسورها الحجري ، فأضيف إليه سور آخر من جثث الأعداء .

[2] استذمام : فعل ما يقتضي الذم ، والمعنى أن الحصون بقيت ثابتة بينك وبين الأعداء كما كان بينك وبينهم من عظام وجثث القتلى أكوام كالحصن ، فلم يأخذك إلا بعد أن صرت مقابر لرجاله ، وبهذا لم تفعلي ما فيه غبن أو ما يقتضي الذم .

يحتلونها .. ثم يحضُّ المسلمين على ترك الضعف واللهو والجهل ، وضرورة التزود من العلم للوصول إلى تحقيق الأماني ، ولن يكون في العلم خير إلا إذا كان بيد المسلمين لأنهم أصحاب الأخلاق الفاضلة :

لقد آن يا قوم ترك الونى ... وترك الشقاق وترك الدَّدِ[1]

إلى كم نكابد هذا العنا ... ونخبط في جهلنا الأسود

وبالعلم من قبل نلنا المنى ... وفزنا من العيش بالأرغد

ولكنَّما العلم قد غرَّبا ... فلا عيش إلا إذا أشرقا

فهبوا إليه هبوب الصبا ... عسى أن يسحَّ و يغْدَوْدِقا[2]

رابعاً : الوصف :

الوصف في هذا المجال تسجيل حي لما تقع عليه عينا الشاعر في أثناء الحروب وما بعدها من دمار وقتل وإبادة وسلاح وجيوش وفيه تصوير لغدر الأعداء وجرائمهم ... كل ذلك من خلال أحاسيسه ومشاعره .

فهذا أمين ناصر الدين يصف السفن وهي تلقي اللهيب من مدافعها كرات من جهنم فإذا جاء الليل حسبت المقذوفات بدوراً تتعالى في السماء [3] :

سفن للظى بهنَّ لهيب ... متوالٍ وللبخار زفير

نصبت فوقها المدافع يقذفـ ... ـن كرات شرارها مستطير

فإذا ظلَّل الخِضَمَّ ظلامٌ ... خِلْت أن الكرات فيها بدور

ويرى شوقي فلك العثمانيين في البحر متنوعة يراقب بعضها بعضاً ، وتحمي إحداها الأخرى ، كما يراقب العقاب الباز ، حولها المصائب تتوالى والأهوال تتراقص ، تحمل في طياتها الموت الزؤام ، ويكاد ماء البحر يتحول تحتها دماً [4] :

وتبدو عليه الفلك شتى كأنها ... بُوُوزٌ تراعيها على البعد أعقب[5]

تجاري خطاها الحادثات وتقتفي ... وتطفو حواليها الخطوب وترسب

ويوشك يجري الماء من تحتها دماً ... إذا جمعت أثقالها تترقب

---

[1] الدَّدِ : اللهو واللعب .

[2] يغدودق : اغدودق المطر : كثر قطره ، مادتها : أغدق :

[3] صدى الخاطر ص ١٣٩ .

[4] ديوان شوقي ج١ ص ٤٦ ـ ٤٧ .

[5] البؤوز : جمع باز . الأعقب : جمع عقاب .

فإذا نظر إلى منعة السواحل العثمانية رأى بروجاً مبنية على الأرض ، عالية في السماء ، وبروجاً في البحر ضخمة عالية تخرج منها المقذوفات نحو بوارج العدو فلا تخطئها ، كأن القاذف ملك الموت الذي لايخطئ في رميه ، فتحتار بوارج العدو أين تهرب والموت والقضاء المحكم محيطان بها :

فـلاحَ ينـــاغي النـــجم صـــرحٌ مثقـبٌ ... علـى المـــاء قـد حـاذاه صـرح مثـقَّبُ[1]

بـــروج أعارتـــها المنـــون عيونهـــا ... لهـــا فـــي الجـــواري نظـــرة لاتـــُخَيَّبُ[2]

رواس ابتـــــداع فـــي رواســـي طبيعـــة ... تكـــاد ذراهـــا فـــي الســـحاب تُغـــَيَّبُ

تظـــلُّ مَـــهُولات البـــوارج دونـــه ... حوائـــر ، مـــا يـــدرين مـــاذا يُـــخَرِّب[3]

إذا طـاش بـين المـاء والصـخر سـهمها ... أتاهـــا حديـــد مـــا يطيـــش وأســـرُبُ

يســـدده (عزريـــل) فـــي زيٍّ قـــاذفٍ ... وأيـــدي المنايـــا والقضـــاء المـــدرب

أما وصف الأسطول العثماني في شعر حافظ إبراهيم [4] فقد كان دقيقاً واضحاً ، يزداد جمالاً ووضوحاً حين تراه صورة حية نابضة يزجيها الشاعر أمامنا كأنها واقع ملموس .. فالأسطول يتحرك بقوة الله وحمايته ، ويرعى الأمة الإسلامية ويحافظ على أمنها ، ويحمي مدنها التي خصها الله بالجمال :

وابعـــث الأســـطول ترمـــي دونـــه ... قـــــــوة الله وراءً وأمامـــــــا

يكـــلأ الشـــرق ويرعـــى بقعـــة ... رفـــع الله بـــها البيـــت الحرامـــا

وثغـــوراً هـــي أبـــهى منظـــراً ... مـــن ثغـــور الغيـــد يبـــدين ابتســـاما

خصَّـــــها الله بـــأفق مشـــــرق ... ضـــمَّ فـــي الـــلألاء مصـــراً والشـــآما

ويطلب الشاعر من الأمة الإسلامية أن تحيي الأسطول الذي بنى مجدها في البحر بعد أن ثبتته في البر ، ويشبه السفن الجواري بالنساء الجميلات قد هام البحر بهن غراماً ظهر في حركة أمواجه ، ولئن كانت هذه السفن تبهر العين في حالة السلم ، لهي في الحرب موت زؤام يهد الجبال الراسيات :

حـــيِّ يـــا دهـــر أســـطول الألـــى ... ضـــربوا الـــدهر بســـوط فاســـتقاما

ملـــكوا البـــر فلمـــا لـــم يســـع ... مجـــدهم ، نـــالوا مـــن البحـــر المرامـــا

بجـــوارٍ منشـــآت كالدمـــى ... أينمـــا ســـارت ، صـــبا البحـــر وهامـــا

كلمـــا أوفـــت علـــى أمـــواجه ... ســـجد المـــوج خشـــوعاً واحتشـــاما

فهـــي فـــي الســـلم جـــوارٍ تُجْتـــلى ... تبهـــر العيـــن رواء ونظـــاما

---

[1] الصرح : البناء العالي ، المثقب : المضيء .
[2] كناية عن إحكام التصويب وإتقان التسديد .
[3] المهولات : الكبيرة الضخمة . وحوائر : جمع حائرة ، وفيها كناية عن هول المصاب الذي أفقد أصحابها عقولهم .
[4] ديوان حافظ إبراهيم ص / ٢٧٧ ـ ٢٧٨ .

وهـــي فـــي الحـــرب قضـــاء ســـابح يـــدع الحصـــــن تـــــلالاً ورِجـــــاما[1]

ألا ترى معي أن الشهب تنقض على الجنيِّ الذي يصعد إلى السماء ليسترق السمع فلا تخطئه فكذلك مقذوفات هذه البوارج تدمر المواقع تدميراً كاملاً ، فهي براكين إذا هاجمها الأعداء :

مـــا نجـــوم الـــرجم مـــن أبراجهـــا إثـــر عفريـــت مـــن الجـــن ترامـــى

مـــن مراميـــــها بـــأنكى موقعـــاً لا ولا أقـــــوى مراســـــاً وعُرامـــــا[2]

وهـــي بركـــان إذا مـــا هاجهـــا هـــائج الشـــــر عِـــداء وخصـــاما

ثم يصفها بأبراج الحصون بلاء ودماراً ، وبأنها جبال من نار تقذف الحمم ، وتورد الموت الزؤام:

جبـــل النـــار لقـــد رعـــت الـــورى أنـــت فـــي حاليـــك لا تـــرعى ذمـــاما

أنـــت فـــي البـــر بـــلاء ، فـــإذا ركـــب البـــحر غـــدا موتـــاً زؤامـــا [3]

فاتقـــوا الطـــود مكينـــاً راســـياً واتقـــوا الطـــود إذا مـــا الطـــود عامـــا

ولله در أمير الشعراء شوقي في وصفه الهول والرعب اللذين غزوَا قلوب اليونانيين حين سمعوا بمجيء جيش العثمانيين ، فقد كان الوصف دقيقاً بين مقدار الهلع الذي ملأ قلوبهم ، حتى هرب القادة قبل الجند :

و (طرنـــاو) إذ طـــار الـــذهول بجيشـــها وبالشـعب فوضـى فـي المـذاهب يـذهب[4]

عشـــية ضـــاقت أرضـــها وســـماؤها وضـــاق فضـــاء بـــين ذاك مرحَّـــبُ

خلـت مـن بنـي الجـيش الحصـون وأقفـرت مســـاكن أهليـــها ، وعـــمَّ التخـــرُّبُ

ونـــادى منـــاد للهزيمـــة فـــي المـــلا وأنَّ منـــادي التـــرك يدنـــو ويقـــرب

فـــأعرض عـــن قـــواده الجنـــد شـــارداً وعلَّمـــه قـــواده كيـــف يهـــرب

وفر الأهالي هائمين لا يلوون على شيء ناجين بأنفسهم يسب بعضهم بعضاً ، ويسلب بعضهم بعضاً ، يدوس الابن على أشلاء أبيه ، وتنسى الأم رضيعها ، وتظهر الأنانية في أبشع صورها ، الجرائم دون خجل ولا مواربة :

وطـــار الأهـــالي نافـــرين إلـــى الفـــلا مئيـــن وآلافـــاً تهيـــم وتســـرُبُ [5]

نجَـــوْا بـــالنفوس الذاهـــلات ومـــا نجَـــوْا بغيـــر يـــد صـــفرٍ ، وأخـــرى تقلـــب

وطالـــت يـــد للجمـــع فـــي الجمـــع بالخنـــا وبالســـلب ، لـــم يمـــدد بهـــا فيـــه أجنـــب[1]

---

[1] الرجام : الحجارة .

[2] أنكى : اشد ، العُرام : الشراسة والأذى والحدة .

[3] زأم زؤاما : مات موتاً سريعاً .

[4] طرناو : منطقة في اليونان شهدت الحرب عام / ١٩١٢ م / بين العثمانيين واليونانيين .

[5] تسرب : من سرب الرجل في الرض : إذا ذهب على وجهه فيها ومضى .

يســـير علـــى أشـــلاء والـــده الفتـــى ... وينســـى هنـــاك المرضَـــعَ الأمُّ والأبُ

وتمضـــي الســـرايا واطئـــات بخيلهـــا ... أرامـــل تبـــكي أو ثـــواكل تنـــدب

فمـــن راجـــلٍ تهـــوي الســـنون برجلـــه ... ومـــن فـــارسٍ تمشـــي النســـاء ويركـــب

ومـــاضٍ بمـــالٍ قـــد مضـــى عنـــه وألـــه ... ومـــزجٍ أثاثـــاً بيـــن عينيـــه يُنْهَـــبُ [٢]

ويمضي الشاعر في تصوير الخوف الشديد الذي حاق باليونانيين ، فلو استطاعت ديارهم أن تفر لفعلت ، وجبالهم أن تغور لغارت والتراب من تحتهم أن يذوب لذاب ... بل إن خطاهم كانت أسرع من أبصارهم ، لا تكاد تمس الأرض ، ولو وجدوا طريقاً إلى السماء سلكوه [٣] :

يـــكادون مـــن ذعـــر تفـــر ديارهـــم ... وتنـــجو الرواســـي لـــو حـــواهنَّ مشـــعب [٤]

يكـــاد الثـــرى مـــن تحـــتهم يلـــج الثـــرى ... ويقضـــم بعـــض الأرض بعضـــاً ويقضـــب

تكـــاد خطـــاهم تســـبق البـــرق ســـرعة ... وتذهـــب بالأبصـــار أيَّـــان تذهـــب

تكـــاد تمـــس الأرض مســـاً نعالـــهم ... ولـــو وجـــدوا ســـبْلاً إلـــى الجـــو نكَّـــبوا [٥]

ثم يسخر منهم حين ينهزمون دون أن يلاحقهم أحد ، فالمسلمون اكتفوا بالرعب الذي أحدثوه فيهم فأصبح يطاردهم ، والخوف يغزوهم ، لأن من ظفر بعدوه وجهاً لوجه لا يتعقبه ولعل كتائب اليونانيين عودت نفسها على الهرب لا القتال !! فقائدهم يهرب بجيشه مجتمعاً لأنه يحسب أن العثمانيين أحاطوا به من كل جانب ، فيملؤه الخوف !! ياللعار ويالللشنار:

هزيمـــــة مـــن لاهـــازم يســـتحثه ... ولا طـــارد يـــدعو لـــذاك ويوجـــب

قعـــدنا فلـــم يعـــدم فتـــى الـــروم فيلقـــاً ... مـــن الرعـــب يغـــزوه وآخـــر يســـلب

ظفرنـــا بـــه وجـــهاً ، فظـــنَّ تعقُّبـــاً ... ومـــاذا يـــزيد الظـــافرين التعقـــب [٦]

فـــولى ، ومـــا ولـــى نظـــام جنـــوده ... ويـــا شـــؤم جيـــش للفـــرار يرتـــب

يســـوق ويحـــدو للفـــرار كتائبـــاً ... لـــه موكـــب منـــها ، وللعـــار موكـــب

منظمـــة مـــن حولـــه ، بيـــد أنهـــا ... تـــودُّ لـــو انشـــقَّ الثـــرى فتـــُغيَّب

---

[١] الخنا : الفحش والرذيلة ، والمعنى : تعدى بعضهم على بعض بالسب والسلب والفحش والرذيلة ولم يكن للأجنبي يد في ذلك .

[٢] الوأل : الملجأ ، مزجٍ : المزجي : من أزجاه : ساقه ودفعه برفق ، والمعنى : أخذ بعضهم ينهب بعضهم جهاراً نهاراً .

[٣] ديوان شوقي ج١ ص ٥٣ .

[٤] الشعب : الطريق بين جبلين ، من شدة خوفهم حسبوا الأرض والجبال والديار تشاركهم فزعهم .

[٥] نكبوا : مالوا ، وقد اضطر الشاعر إلى تسكين الباء في (سبلاً) لضرورة الشعر .

[٦] هذا البيت وما بعده يدل على جهل الشاعر بفنون القتال ، فالقائد الذكي لا يترك عدوه يهرب بجيشه وسلاحه ، لأنه إن تركهم عادوا إليه في أقرب فرصة سانحة ، وهذا ما فعله اليونانيون ، إذ رتبوا أنفسهم واحتلوا جزءاً كبيراً من تركيا بعد ذلك .

مـــؤزرة بالرعـــب، ملدوغـــة بـــه ففـــي كـــل ثـــوبٍ عقـــربٌ منـــه تلسِـــبُ[1]

ولعل العدو وهو يهرب كان يرى فوارس تهبط عليهم من قمم الجبال وسفوحها ، جماعات جماعات تتابعهم في فرارهم وتتراءى لهم من الأرض صاعدة ومن السماء نازلة فإن يكن ما يراه الهاربون الكفار حقاً فإنها ملائكة الله التي تحارب مع المسلمين :

تـــرى الخيـــل مـــن كـــل الجهـــات تخـــيلاً فيأخـــذ منـــها وهمـــها والتهيـــب

فمـــن خلفهـــا طـــوراً وطـــوراً أمامـــها وآونـــة مـــن كـــل أوب تألَّـــب[2]

فـــوارس فـــي طـــول الجبـــال وعرضـــها إذا غـــاب مـــنهم مِقْنَـــبٌ لاح مقنـــب[3]

فمهمـــا تـــهم يســـنح لـــها ذو مهنـــد ويخـــرج لهـــا مـــن بـــاطن الأرض محـــرب[4]

وتنـــزل عليهـــا مـــن ســـماء خيالهـــا صـــواعق فـــيهن الـــردى المتصـــبب

رؤى إن تكـــن حقـــاً يكـــن مـــن ورائهـــا ملائكـــة الله الـــذي لـــيس يُغْلَـــبُ

ومن الوصف الجميل : تلك المقارنة بين الجندي العثماني والجندي اليوناني ، فالجندي المسلم منتبه في الليل يقظان ، والجندي اليوناني يتوسد أحلامه وأوهامه ، والمسلم مستعد وسلاحه في يده، واليوناني لاهٍ يلعب ، وهذا ذو تجارب علمته التصرف السليم ، وذاك غرير لا يحسن التصرف [5]:

و (فرســـال) إذ بـــاتوا وبتنـــا أعاديـــاً علـــى الســـهل لُـــدَّاً يرقبـــون ونرقـــب

وقـــام فتانـــا الليـــلَ يحمـــي لواءنـــا وقـــام فتاهـــم ليلـــه يتلـــعَّب

توســـد هـــذا قائـــمَ الســـيف يتقـــي وهـــذا علـــى أحـــلامه يتحســـب[6]

وهـــل يســـتوي القِرنـــان هـــذا مـــنعم غريـــر ، وهـــذا ذو تجـــارب قـــلَّب[7]

وسنعود إلى هذه الأبيات ـ إن شاء الله تعالى ـ في الباب الثالث لنقف على الصورة الشعرية الممتدة ، ذات الظلال المتحركة والخطوط والأبعاد الثلاثة (اللون والصوت والحركة) .

ولو عدنا إلى الباب الثاني ص/ ٩٦ ـ ٩٧ / في حديثنا عن فتح تبريز سنة / ٩٩٣ هـ / على عهد مراد بن سليم ، وقرأنا قصيدة الشاعر فيض الله بن القاف الرومي لوجدناه يصف هروب جيش الصفويين وصفاً حياً ، فهم جبناء

---

١ تلسب : تلسع .

٢ تألب : من التأليب وهو التجمع ، فكأن هؤلاء الفرسان المهاجمون يتجمعون عليهم ويدفعونهم .

٣ المقنب : الجماعة من الخيل بفرسانها تجتمع للغارة .

٤ المحرب : الشجاع الشديد في الحرب .

٥ نفس القصيدة السابقة .

٦ يتحسب : يتوسد .

٧ القرن : النظير . الغرير : عديم الخبرة ، والقلَّب : المحتال للأمور البصير بتقلبها .

امتلأت نفوسهم خوفاً فطاشت أحلامهم وقد كانوا يظنون النصر سهلاً هيناً ، فلما عرفوا الحقيقة هربوا كما تهرب الحمر الوحشية من الأسود الغاضبة ، لايرون ما أمامهم ، خسروا أرواحهم قبل أن يخسروا أجسادهم ، وانقسموا ثلاثة أقسام : أفضلها مر فمنهم من قتِلَ ومنهم من أسر ، والآخرون فروا لايدرون إلى أين .. لقد هربوا إلى الأقطار المجاورة يتقون بأس المسلمين ، ويتساءل من الذي يؤوونهم وليس فيها من يعطف عليهم ويرحمهم، أما مساكنهم فقد حازها العثمانيون خالصة لهم بكل ما فيها ، ونادى عرش الفرس مبتهجاً بخلاصه من المفسدين[١]:

وقد مرَّ في وصف الرصافي احتلال إيطاليا لليبيا وما حلَّ من غدر هؤلاء بالآمنين حين هربوا أمام المقاتلين من أهل طرابلس [٢] :

ولمـــا أحـــاط المســـــلمون بجيشـــهم فعــاد الفضــاء الرحــب فــي عينــه شــبرا

تقهقـــــر يبغـــي فـــي الـــديار تحصُّـــناً فقربهـــا مـــن خشـــية المـــوت واســـتذرى٣

فأصـــبح يُنكـــي أهلـــــها مـــن تغيُّـــظ فيقـــتلهم صـــــبراً ، وتـــرهقهم عســـــرا٤

فأوســـعهم بالســـيف ضـــرباً رقـــابَهم وآنـــافهم جـــدعاً ، وأجـــوافهم بقـــــرا٥

ومـــا ضـــرَّ (كانينـــا) اللعـــين لوأنـــه تقحـــم فـــي الهيجـــاء عســـكرنا المجْـــرا٦

وهـــل حســـبوا قتـــل النســـاء شـــجاعة وقـــد تركـــوا عنـــد الرجـــال لهـــم ثـــأرا

ومن جميل الموافقات أن نرى وصف الرصافي للهاربين الإيطاليين أمام أبطال طرابلس في القرن الرابع عشر الهجري يشبه وصف ابن القاف هروب أهل تبريز أمام العثمانيين في القرن العاشر : يقول الرصافي :

وكيـــف هزمنـــاهم فولـــوا كأننـــا وإيـــاهم أســـد الشـــرى تطـــرد الخمـــرا

ويقول ابن القاف :

لما رأى بأسنا حمر الرؤوس إذاً فروا كما فرَّ من أسد الشرى الحمُرُ

ويصف الرصافي غدر الإيطاليين بأهل ليبيا ، فقد أفاقوا على قذائف المدافع تصب عليها النار صباً وتنسفها نسفاً فتفعل بها فعل الزلازل والبراكين [٧]:

فمـــــا انتبهـــت إلا لصرخـــــة مدفـــع ومـــا نهضـــت إلا إلـــى موقـــف صـــعب

---

١ القصيدة كاملة في خلاصة الأثر ج٣ ص / ٢٨٩ ـ ٢٩١ / ، وفي نفحة الريحانة ج٣ ص / ٩٤ .

٢ ديوانه ص ٤٨٢ ـ ٤٨٣ .

٣ استذرى : استتر واختبأ .

٤ ينكي أهلها : يقهرهم بالقتل والحرج ، يرهقهم عسرا : يكلفهم إياه .

٥ جدع أنفه : قطعه ، بقر جوفه : شقه .

٦ كانينا : قائد جيش إيطاليا الذي هاجم ليبيا ، تقحَّم : هجم ، المجر : الكثير .

٧ ديوان الرصافي ص / ٤٧٩ .

فأمســـــت وأفـــواه المدافـــــع دونهـــا ... تمـــج عليهـــا النـــار كالوابـــل الســـكب

صـــواعق مـــن ســـحب الـــدخان تـــدكها ... وتنســـــفها نســـف الـــزلازل للهضـــب

غـــدت ترتمـــي فيهـــــا عشـــياً وبكـــرة ... فـــلا يابســـاً أبقـــت ولـــم تبـــق مـــن رطـــب

أما عبد الباقي بن مراد العمري في مدح مصطفى الكوبريلي حين فتح بلغراد فإنه جعل القتلى طعاماً طيباً للوحوش ، وصور أثر أقدام الخيل في قلوبهم ، والسهام في عيونهم وآذانهم ، والسيوف في رقابهم ، والرماح في صدورهم ...[١]

مـن فـلَّ جـيش الكـافرين وقـــد غـــدت ... قـــتلاهم للـــوحش خصـــباً ممرَّعـــا[٢]

ختـــــمت قلوبهـــم ســـــنابك خيـــله ... وســـــهامه أبصـــــارهم والمســـــمعا

خطبـت سـيوف النصـر فـوق رؤوسـهم ... فتيممـــوا حـــدثاً وأمُّـــوا مصـــرعا[٣]

صـــلى القنـــا صـــبحاً بمحـــراب الطَّلـــى ... ودعـــا فعُفِّـــرَت الخـــدود تضـــرُّعا[٤]

فكأنمـــا هاماتهـــم قـــد أصبـــحت ... أكـــراً تلاعبـــها الكمـــاة تولعـــا

أما أثر الصدر الأعظم وجيوشه في الأعداء فقد أجاد الشاعر في وصفه ، فجيش العثمانيين سحابة كبيرة طلعت فملأت السماء ، ونزلت على الأرض فاحتوتها وأبادت الأعداء ، ولمعان سيوف المسلمين غطى على كل لمعان ، وقصف المدافع يشبه قصف الرعود ، والسهام المنصبة بكثرة على الأعداء مطر غزير ووابل مستمر:

وكـــأن هاتيـــك الجيـــوش ســـحابة ... طلعـــت ففـــرق غيمـــها وتقشـــعا

وكـــأن هاتيـــك الســـيوف بـــوارق ... تغشـــى بوارقهـــا البـــروق اللَّمَّعـــا

وكـــأن هاتيـــك المـــدافع والـــوغى ... رعـــد تقصـــف بالســـحاب ولعلعـــا[٥]

وكـــأن وقـــع النبـــل فـــوق جســـومهم ... وبـــلٌ يســـح ســـحابه متتبعـــا[٦]

ولعل عبد الباقي أعجبه هذا الأسلوب في وصف العدو الذي نال الضر من المسلمين واعتاد الذل على أيديهم ، وصار الهوان سمة بارزة في حياته ، ويسخر الشاعر منهم في مدحه أحمد الفاضل بن محمد الكوبريلي ، الأخ الأكبر لمصطفى ، ويتساءل : أما آن لهم أن يرموا سلاحهم ويتركوا كفرهم ، ويؤمنوا بالدين القويم على يد الوزير الهمام ، وهو الذي قاتلهم فأباد منهم الكثير ، أم أنهم اعتادوا ذل الأسر وجر القيود ؟ أم أعجبهم أن تكون

---

١ الروض النضر ج ١ ، ص / ٨٠ ـ ٨١ .

٢ ممرعا : مخصباً .

٣ المعنى : لما علت السيوف رؤوسهم كانت القبور مأواهم .

٤ الطُّلى : جمع طُلوة : بياض الصبح . عفرت : اختلطت بالتراب .

٥ لعلع الرعد : صوَّت .

٦ سحَّ : انصبَّ متتابعاً .

لحومهم طعام النسور ؟ أم رغبوا أن يموتوا بطعن الرماح أو ضربة السيوف أو تدمير المدافع بيوتهم ؟ .. إن السهام تخترق بطونهم فتعانق أحشاءهم ، والدماء تتدفق منهم على الأرض كأنها حلل حمراء ، والفرسان بخيولها الأصيلة تكر عليهم فتزحف الأرض من تحتها فرقاً [١] :

ألـــم يـــأن للكفـــار أن يهتـــدوا بـــه ... وفـــي كـــل قفـــر مـــوحش لهُـــمُ قبـــر

فمـــا بـــالهم ، لا أنعـــش الله حـــالهم ... لقـد عميـت أبصـارهم أم وهـى الفكـر؟ ٢

يحبـــون أثقـــال الحديـــد وقتلـــهم ... وقـد نابـــهم ضـعف وحاولـــهم ضـر

أضـــاقت علـــيهم دورهـــم وديـــارهم؟ ... فرامـــوا فضـــاء الأرض فاغتـــالهم أسـر

أم افتخـــروا أن النســـور إذا غـــزا ... لهـــا كـل يـــوم فـي لحومـــهم وكـــر

أم أعجبـــــهم أن العـــوالي كأنـــها ... تمـدُّ لـــهم كفـاً ومـن أخذهـــا العمـر ٣

ألـــم يـــبكهم ضـــحك الســـيوف علـــيهم ... وقـد قهقهـــت حمـر المـدافع والسـمر ٤

وفـــي كـــل يـــوم للســـلاسل أمـــة ... بأعناقـــهم ، هـل كـان بينـــهم شـــرُّ

وفـــي كـــل يـــوم للســـهام تعـــانق ... بأحشائـــهم ، هـل إنـــها للحشـا صـهر ٥

وفـــي كـــل يـــوم للدمـــاء تـــدفق ... علـى الأرض هـل هـذي الـدما حلـل حمـر

وفـــي كـــل يـــوم للعنـــاق تصـــاهلو ... لـــلأرض أرجـــاف وللفـــارس الكـــرُّ ٦

ويصف الشاعر محمود سامي البارودي الحرب التي دارت بين العثمانيين والروس سنة / ١٢٩١ هـ / بأسلحتها ، فجو المعركة مليء بالسيوف والرماح والمحاربين الشجعان والخيول المدربة على القتال ، فيقول [٧] :

فـــلا جـــوَّ إلا ســـمهري وقاضـــب ... ولا أرض إلا شُـــمَّري وســـابح ٨

ولكن كيف كانت المعركة تدور ؟

يقول البارودي في القصيدة نفسها :

مـــدافعنا نصـــب العـــدا ومشـــاتنا ... قيـــام تليهـــا الصافنـــات القـــوارح

---

١ الروض النضر ج ١ ص / ٩٥ ـ ٩٦ .

٢ وهى الفكر : ضعف التفكير .

٣ العوالي : الرماح ، فالرماح تجد لهم وتقصف أعمارهم .

٤ كأن لمعان السيوف وهي تفجر الدماء من أجسادهم ، وقصف المدافع للقذائف ، والرماح تنشب في الأجساد فتخترقها وينبثق الدم ، كل هذا كأنه ضحك ضحك وقهقهة . وقد أحسن الشاعر في الطباق الذي أورده (يبكهم ، ضحك السيوف) ..

٥ ومن عادة الصهر ومعانقة أنسبائه فلربما كان السهم صهراً للأحشاء .

٦ العتاق : الأصيلة من الخيول ، إرجاف : اهتزاز ، الكرّ: الهجوم بعد الهجوم .

٧ ديوان البارودي ص ١٩ .

٨ الشمري : الشجاع المجرب ، الماضي في الأمور .

فمن يقرأ هذا البيت يظن المدافع في الأمام ، وقد تكون كذلك ، ولعل مدى رميها قبل مئة عام كان قصيراً ، فاضطر الجيش لأن يجعلها أمامه تضرب فتربك العدو، ثم يبدأ الجيش بالهجوم فتصبح وراءه ، أو تضرب في حالة الدفاع أرتال العدو المهاجم ، حتى إذا انتهى دورها أعيدت إلى الوراء لتبدأ الحرب بالمشاة مدافعين ، أو الفرسان مهاجمين . وجو المعركة مشحون بالدخان المنعقد فوق رؤوس الجيشين كأنه سحابة ممطرة ، أو كأنه قطعة من القماش ...

ألـــم تـــر معقـــود الدخـــان كأنمـــا علـــى عـــاتق الجـــوزاء منـــه ســـرائح ١

وقـــد نشـــأت للحـــرب مزنـــة قســـطل لهـــا مســـتهل بالمنيـــة راشـــح ٢

أما المدافع عند شوقي فهي أسود حديدية محمولة على عجلات في أعالي الجبل ، تنظر إلى المقاتلين من علٍ تترقب قتالهم ، فإذا جاء دورها زأرت وثارت تصب الموت على الأعداء ، ثم تسكت انتظاراً لمعرفة أثر قذائفها ، وقد يعيدها المقاتلون إلى الوراء ويخبئونها وراء الساتر لتعود بعد ذلك وتفاجئ الأعداء بقصفها الذي يتبعه الدمار والموت يقول [٣] :

حمتـــه ليـــوث مـــن حديـــد تركـــزت علـــى عجـــلٍ ، واســـتجمعت تترقـــب

تثـــور وتســـتأني ، وتنـــأى وتـــدَّني وتغـــذو بمـــا تُغـــذَّى ، وترمـــي وتنشـــب ٤

خامساً : الهجاء : وهو ذكر المثالب وتعداد العيوب ، وقد يصل إلى السب والشتم المقذعين ، ويدخل فيه اللوم والتأنيب والتوبيخ والسخرية والشماتة ، وقد يكون مادياً حسياً ، أو معنوياً خُلقياً ..

وسنذكر في الهجاء : ١ـ هجاء المحتلين الأوروبيين .

٢ـ هجاء الصغويين وغيرهم .

٣ـ الخونة والفاسدين من العرب والأتراك .

هجاء المحتلين الأوروبيين :

يهزأ شوقي في قصيدته (تحية للترك) [٥] من اليونانيين ، ويصفهم بأنهم لا يثبتون في المعركة ، وبأن أسطولهم لعب أطفال ، وبأنهم كثيرو الأحلام قليلو الفعال ، ويسخر منهم حين يبحرون إلى استانبول فيصفهم بالإوز العائم:

أمـــور تضـــحك الصبيـــان منهـــا ولا تـــدري لهـــا العقـــلاء كنهـــا ١

---

١ السرائح : جمع سريحة ، وهي القطعة من الثوب ، والمراد : قطع الدخان .

٢ المزنة : الغيمة . القسطل : الغبار . راشح : سائل وناضح .

٣ ديوان شوقي ج ١ ص / ١٠٦ .

٤ في الديوان : تغدو وتغذى ، والأصح تغذو وتُغذى : أي تطعم الأعداء مما تأكل ، فطعامها القنابل ، وإذا قذفت الأعداء فكأنها تغذوهم بقنابلها (وفي هذا ما فيه من السخرية) .

٥ سبق ذكرها ، وهي في ديوانه ج ص /٢٨٠ـ ٢٨٥ / .

فســـل روتـــرَّ وســـل هافـــاس عنهـــا فـــإن لديهمـــــا الخبـــر اليقينـــا [٢]

كما يسخر منهم حين هزموا في معركة (طرناو) فهم جبناء شديدو الهلع والخوف ، يربون قبل النزال ، ويسلب بعضهم بعضاً ، ولا يرقبون في أنفسهم رحمة ولا أمناً ، تكاد خطاهم تسبق البرق سرعة [٣].

ويوبخهم الشاعر على انسياقهم وراء أحلامهم الزائفة ، فقد ادعوا أن جيشهم قوي ، وأن سفنهم الحربية ذات أثر كبير ، وأن قائدهم جورجي ذو قوة وعزم وفهم ..وأنهم – إن اقتربوا من الحدود ثارالناس على العثمانيين ، وانتصر اليونان دون قتال ، يقول [٤] :

فيـــا قـــوم أيـــن الجـــيش فيمـــا زعمتـــم وأيـــن الجـــواري والـــدفاع المركـــب [٥]

وأيـــن أميـــر النـــاس والعـــزم والحجـــى وأيـــن رجـــــاء فـــي الأميـــر مخيَّـــب

وأيـــن تخـــوم تســـــتبيحون دوســـــها وأيـــن عصابـــــات لكـــــم تتـــــوثب [٦]

والإيطاليون في رأي الغرب ، كما يقول الرصافي، بمنزلة الكلب ، ينقضون العهد :[٧]

فـــإني أرى الطليـــان مـــنهم بمنـــزل يعَـدُّ ـــ وهـم يغرونـه ـــ منـزل الكلـب

فلـــولاهم لـــم يـــنقض العهـــد نـــاقض ولا ضـــاع حـــق فـــي طـــرابلس الغـــرب

ونراه يسبغ عليهم – لشدة انزعاجه منهم – صفات وضيعة ، فهم مخانيث ، ورئيس أساقفتهم قد أغضب الله حين بارك هجومهم على طرابلس وحضهم عليه :

ويـــا معشـــر الطليـــان قبحـــت معشـــراً ولا كنـت يـا شـعب المخانيـث مـن شـعب[٨]

ومـــا دعـــوة "البابـــا" لكـــم مســـتجابة فقـد أغضبـــت طغواكـــم غيـــرة الـــرَّب

ويشتد في توبيخ الغرب ، فهم جميعاً مشتركون في إيذاء أهل ليبيا ، وهم أهل خديعة ومكر، يدعون المدنية والحضارة دعوى كاذبة ، فهم طامعون قتلة ، وما العلم الذي يتشدقون به إلا أداة للغصب والقتل، وقد غلقت قلوبهم وصارت قاسية كالحجر :

ومـــا يؤخـــذ الطليـــان بالـــذنب وحـــدهم ولكـــن جميـــع الغـــرب يؤخـــذ بالـــذنب

---

١ كنه الشيء : حقيقته وجوهره .

٢ روتر : رويتر ، وهافاس : وهما وكالتان عالميتان للأنباء .

٣ ديوانه ج ١ ص / ٥٢ – ٥٣ / . ويمكن العودة إلى الأبيات في الوصف .

٤ ديوانه ج١ ص / ٥٦ – ٥٧ / .

٥ الدفاع المركب : الدفاع براً وبحراً .

٦ الاستفهام في الأبيات للسخرية والاستهزاء .

٧ ديوانه من قصيدة (إلى الحرب) ص / ٤٧٨ – ٤٨١ / .

٨ المخانيث : جمع مخنث وهو المتكسر . وتخنث : أتى بما يشبه كلام النساء ليناً ورخامة .

أيـــا زعمـــاء الغـــرب هـــل مـــن دلالـــة ... لـــديكم علـــى غيـــر الخديعـــة والكـــذب

تقولـــون إن العصـــر عصـــر تمـــدن ... أمـــن ذلكـــم قتـــل النفـــوس بـــلا ذنـــب ؟١

أفـــي الحـــق أم فـــي العلـــم أن لايســـوء ... كمـــويخجلكم شـــن الإغـــارة للســـلب

وهـــل أغلفـــت هـــذي العلـــوم قلـــوبكم ... بأغطيـــة قـــدت مـــن الحـــجر الصـــلب

كـــذبتم فـــإن العصـــر عصـــر مطـــامع ... تُقـــدُّ لهـــا الأوداج بالصـــارم العضـــب٢

وقد مر معنا في الوصف ما فعله (كانيفا) قائد الإيطاليين بالشيوخ والنساء والأطفال حين هرب أمام الرجال [٣].

[٣]. ونراه يكرر بعض الكلمات الفاحشة في هجاء الصرب والبلغار ، فهم أولاد الزواني والمخانيث والتيوس التي التي همها أن تنزو دون تفكير بالمُثُل ، تقودها شهواتها [٤]:

يـــاعلوج الصـــرب والبلغـــار أولاد الزوانـــي

لـــم يكـــن إيـــعادكم بـــالحرب غيـــر الهذيـــان

فـــاتركوا الإيعـــاد ياأبنـــاء حمـــراء العجـــان ٥

وتزيُّـــوا ، يـــا مخانيـــث ، بأزيـــاء الغـــواني

إنمـــا أنتـــم تيـــوس أولعـــت بالنَـــزَوَان

وسنقف ـ إن شاء الله تعالى ـ حين ندرس ظاهرة القصة الشعرية في شعر الحروب على نوع جديد في الهجاء رأيناه في شعر العصر الحديث ، وذلك من قصيدة الشاعر معروف الرصافي (الشيطان والطليان) في ديوانه .

ونرى الشاعر حافظاً في قصيدته (حرب طرابلس) [٦] يشنع على الإيطاليين ما فعلوه بالشوخ والنساء والأطفال من ذبح وتمثيل ، وحرق للدور ، واستحلال لكل المحارم ، نراه يسأل المطران ـ كما سأله الرصافي ـ لماذا باركت وحشية الطليان وإجرامهم ؟ ولم ينتظر الجواب لأنه معروف: إنه العداء للإسلام أينما وجد ومن جميع الجوانب ... يقول حافظ :

بـــارك المطـــران فـــي أعمـــالهم ... فســـلوه : بـــارك القـــوم علامـــا ؟

أبهـــذا جاءهـــم إنجيلـــهم ؟ ... آمـــراً يلقـــي علـــى الأرض ســـلاما

كشـــفوا عـــن نيـــة الغـــرب لنـــا ... وجَلَـــوا عـــن أفـــق الشـــرق الظلامـــا

---

[١] يكرر الشاعر هذا المعنى كثيراً ، ومن ذلك قوله في قصيدته الرائية ج ص / ٤٨٤ / :
يقولون هذا العصر عصر تمدن ... فما باله أمسى عن الحق مزورا .

[٢] الأوداج : جمع ودَج ووِداج : وهو عرق في العنق يقطعه الذابح فلا تبقى معه حياة .

[٣] القصيدة الرائية بعنوان (في طرابلس) ص ٤٨٣ .

[٤] من قصيدة (أنشودة الحرب) للرصافي ديوانه ص ٤٩٥ .

[٥] الإيعاد : التهديد والوعيد . حمراء العجان : كناية عن الأعاجم .

[٦] ديوان حافظ إبراهيم ص ٣٨٠ ـ ٣٨٢ .

فقرأناهـــــا ســـــــطوراً مـــــن دمٍ أقســـمت تلـــتهم الشـــرق التـــــهاما

ويسخر الشاعر من هروبهم السريع أمام المسلمين ، ومن أن كثرة قتلاهم تدل على كرمهم !! بل إنهم في هذا الفرار تركوا للمقاتلين المسلمين الشيء الكثير المفيد ، ويزيد في السخرية حين يدعوهم إلى تكرار مثل هذا الفعل:

خبِّـــــروا(فكتـــور) عنـــا إنـــه أدهـــش العـــالم حـــــرباً ونظامـــا

أدهـــــش العالـــــم لمـــــا أن رأوا جيشـــه يســـبق فـــي الجـــري النعامـــا

لـــم يقـــف فـــي البـــر إلا ريثمـــا يســـلم الأرواح أو يلقـــي الزمـــــاما

حـــــاتم الطليـــان قـــد قلدتنـــا منحـــة نذكـــرها عـــاماً فعـــاما

أنـــت أهـــديت إلينـــا عُـــدَّة ولباســـاً وشـــراباً وطعـــاما

وســـــلاحاً كـــان فـــي أيـــديكم ذا كـــلال فغـــدا يفـــري العظـــاما

أكثـــروا النزهـــة فـــي أحيائنـــا وربانـــا إنهـــا تشـــفي الســـقاما

وأقيمـــوا كـــل يـــوم موســـماً يشـــبع الأيتـــام منـــا والأيـــامى

ويكرر وصفهم بالجبن والغدر والكذب ، وبأنهم كتبوا على أنفسهم العار حين ادعوا القوة والشجاعة والتاريخ الطويل ، وليس لهم من ذلك شيء [١] :

لســـت أدري بـــت ترعـــى أمـــة مـــن بنـــي التليـــان أم ترعـــى ســـواما ٢

تـــلك عقبـــى أمـــة غـــادرة تنكـــث العـــهد ولا ترعـــى الذمـــاما

أعلنـــوا الضـــمَّ ولمـــا يفتحـــوا قيـــد أظفـــور وراء وأمـــاما ٣

دفنـــوا تـــاريخهم فـــي قاعهـــا ورمَـــوْا فـــي إثـــره المجـــد غلامـــا ٤

ويكرر المعنى في منظومة تمثيلية على لسان المحتضر [٥]:

قرصـــان بحـــر تولـــوا مـــن حومـــة الميـــدان

لـــم يخرجـــوا قيـــد شـــبر عـــن مســـبح الصـــبيان

ولـــم يطيقـــوا ثبـــاتاً فـــي أوجـــه الفرســـان

---

[١] ديوانه ص ٣٩٢ .

[٢] سوام : جمع سائمة وهي كل إبل أو ماشابه ترسل إلى المرعى ولا تعلف ، والمخاطب ملكهم (فيكتور) .

[٣] أعلن الطليان ضم طرابلس وبرقة إليهم قبلأن يفتحوها ، وهم يظنون سهولة هذا الأمر ، والأظفور : الظفر .

[٤] أساؤوا إلى تاريخهم القديم العريق حين قاموا بالعدوان والغدر .

[٥] قالها الشاعر عقب ضرب الأسطول الإيطالي لمدينة بيروت انتقاماً من الأتراك وذلك بعد نشوب الحرب الطرابلسية عام / ١٩١٢ / . وقد افترض الشاعر أن هذه الرواية تدور بين جريح من أهل بيروت وزوج له اسمها ليلى وطبيب ورجل عربي .

فشـــــــمروا لانتقـــــــام مـــن غافـــل فـــي أمـــان

وســـودوا وجـــه رومـــا بالكـــــيد للجـــــيران

تبـــاً لهـــم مـــن بنـــات فـــــروا مـــن العقبـــان

والشاعر أحمد الكاشف يتضرم ناراً من حرب البلقان وأفعال النصارى الإجرامية فيوبخهم واصفاً إياهم بأهل الخنى والفجور ، والبغي والفتك وحمل الأحقاد [1] :

فهـل كـان عيسـى يطلـب الثـأر بالخنـا وهـل كـان مـن أخلاقـه البغـي والفتـك

أقـــرّ بأضغـــان النفـــوس ملوككـــم ومن كان في شك فقد ذهب الشك

وقد هجا ابن القاف الرومي الصفويين حين خسروا أمام جيش العثمانيين ودخولهم العاصمة تبريز بصفات عدة ، فهم روافض يسبون الصحابة الكرام وأهل السنة ، قلوبهم صماء كالحجر ، يكرههم الناس لأنهم يبطشون ، ذوو عقول ضعيفة ، الخور من صفاتهم ، والجبن من سماتهم ، يعيشون على الوهم ، ويرون الفرار غاية المنى [2] .

كما هجا الشاعر خليل البصير الشاه نادر وأتباعه فقال عنه :

أجـــل ملـــوك العجـــم نـــادر اســـمه ظلـــوم غشـــوم للمواثيـــق نـــاقض ٣

أما الشاعر الشريف فتح الله المتولي فقد لعن الشاه لأنه يهدم كل ما تصل إليه يده ، وأن جنوده لصوص يحرقون الزرع والبيوت [4] :

ومـــذ أتـــى شـــهر جمـــادى الأول قـــد زحـــف الملعـــون للمعـــول

مـــن بعدهـــا جـــاء لشـــهر زور وضـــر بالـــدور وبالقصـــور

وجنـــده تنهـــب فـــي الأطـــراف وهـــذا مشـــهور بـــلا خـــلاف

فـــأحرقوا التـــين كـــذا البيـــوتا وأحـــرزوا الغلـــة بـــل والقوتـــا

فهم كفار وفجار ، وإلى الجحيم مآلهم [5] :

فـــامتلأ الخنـــدق مـــن أشـــباحهم إلـــى الجحـــيم ســـاروا فـــي أرواحهـــم

مـــن ســـورنا شـــجعاننا قـــد نزلـــوا كـــم فاجـــر وكافـــر قـــد قتلـــوا

---

[1] ديوان الكاشف ص ١٨٧ .

[2] خلاصة الأثر ج ٣ ، ص ٢٩١ . ونفحة الريحانة ص ٩٤ . وفي هذا البحث الباب الأول ص ٩٦ ـ ٩٧ . والروافض والرافضة : فرقة من الشيعة بايعوا زيد بنعلي وقالوا له تبرأ من الشيخين أبي بكر وعمر ، فرفض وقال : هما وزيرا جدي ﷺ فانفضوا عنه ورفضوه ، ولم أكتب القصيدة هنا دفعاً للتكرار .

[3] الروض النضر ج١ ص٣٤٨ .

[4] الروض النضر ج٢ ص / ٥١٣ ـ ٥١٥ / .

[5] الروض النضير ج٢ ص ٥٢٢ .

وهجا منجك الدروز حين أوقع بهم الوزير أحمد باشا وأميرهم فخر الدين المعني بأنهم رجس وكفار ، وأنهم ظلمة وطواغيت وأصحاب مكر وحيلة [١] .

ونال اليهود في شعر أمين بن خالد الجندي نصيباً من الهجاء وافراً فهم : مكَّارون مخادعون جبلوا على قول الزور ، وهم كالأفعى تقلباً وكالحرباء والغول تلوناً ، وهم سحرة خونة يغشون أصحاب الفضل عليهم ، وهم ملاعين جبناء أصحاب الربا [٢] يقول :

فكيف ترجون صدقاً باليهود وهم ... قوم لئام ملاعين مناكيل

كم بالربا سحبوا ذيل الخراب على ... تلك البلاد وكم قالوا لهم زولوا

وفي يوم الجمعة الحادي والعشرين من شهر تموز / يوليو / ١٩٠٥ ألقيت قنبلة في المسجد الجامع في استانبول على السلطان عبد الحميد رماها جماعة من الأرمن الطاشناق فنجاه الله منها ، وراح ضحيتها ثمانون رجلاً بين قتيل وجريح [٣]، فذكر شوقي هذه الواقعة مادحاً السلطان وهاجياً مدبري العملية وعلى رأسهم زعيمهم إدوارد جورجيه الأرمني ، ووصفهم بأنهم أهل غدر وعصابة شريرة عدوة للإسلام والمسلمين يزعمون أن لهم حقاً ولكن الحق لايؤخذ بالبغي والظلم ، إنهم ليسوا من أتباع المسيح ولو ادعوا ، فقد دعا المسيح عليه السلام إلى السلام [٤]:

رمتهم بسهم الغدر عند صلاتهم ... عصابة شر للصلاة عِداة

تبرأ عيسى منهم وصحابه ... أأتباع عيسى ذي الحنان جفاة

يعادون ديناً ، لا يعادون دولة ... لقد كذبت دعوى لهم وشكاة

ولا خير في الدنيا ولا في حقوقها ... إذا قيل طلاب الحقوق بغاة

ويقيم أحد الوجهاء في مصر حفل عرس لكريمته فاق التصور بذخاً وإسرافاً ـ وكان ذلك أيام حرب البلقان ـ وفيه أنس ورقص ، وزينت الساحات بالأنوار ، وغنى المغنون والمغنيات ، فيتأثر الشاعر الرصافي بعدم المبالاة هذه ، فجراح المسلمين وآلامهم تملأ الأحاسيس وتدمي القلوب ويقول مؤنباً موبخاً [٥]:

أطربتهم بلحنها الأنغام ... حين أدمت قلوبنا الآلام

فأقاموا مجالس الأنس ... حتى رقص العار بينهم والذّام

أضحكوا أوجه السفاهة ضحكاً ... قد بكت من خلاله الأحلام٦

---

[١] خلاصة الأثر ج١ ص ٣٨٧ ، والبحث : الباب الأول ص ١١٠ .
[٢] العصر العثماني ص ٥٧٠ ، والبحث الباب الأول ص ١١٣ ـ ١١٤ .
[٣] كتاب : والدي السلطان عبد الحميد لابنته عائشة ص / ١٢٣ ـ ١٢٧ / .
[٤] ديوان شوقي ج١ ص ٩٣ ، من قصيدته (نجاة) .
[٥] ديوان الرصافي ص ١٤٧ من قصيدة (عرس مصر) .
[٦] الأحلام : العقول .

هذا العرس اكتنفه الظلام وإن كانت الأنوار فيه تتلألأ في كل مكان ، وابتسامات القائمين عليه ومن حضره تدل على لؤمهم وغربتهم عن دينهم وأمتهم ، وكان صوت المغنيات ممجوجاً حرك آلام القوم فبكَوْا على مصيبتهم في البلقان ومصيبتهم في هؤلاء السفهاء :

أوقـــدوا فيـــه للســـرور ســـراجاً ... عـــمَّ مـــن نـــوره الـــبلاد ظـــلام

ذاك عـــرس تكشـــر اللـــؤم فيـــه ... عـــن نيـــوب كأنَّـــهن ســـهام

وتغنَّـــت للقـــوم فيـــه قيـــان ... أنكـــر العهـــد صـــوتها والـــذمام

فلعيـــن الحليـــم فيـــه بكـــاء ... ولثغـــر الســـفيه فيـــه ابتســـام

ثم يخاطب هؤلاء الذين يعيشون كالسوائم لا يعبأون بما يجري حولهم ، ولا يهتمون سوى بملذاتهم، ويقرِّعهم إذ كان إخوانهم في الشام يتالمون للمصيبة ، وهم في مصر في غيِّهم سادرون :

أيهـــا المولِمـــون فـــي مصـــر مهـــلاً ... إن إيـــــلامكم لنـــــا إيـــــلام

أتـغنيـــكم القيـــان بيـــوم ... قـــام فـــي مـــاتم بـــه الإســـلام

لبســـت هـــذه البـــلاد حـــداداً ... وتحـــلَّت بوشـــيها الأهـــرام

وجـــرت أعيـــن الفـــرات دموعـــاً ... وجـــرى النيـــل ثغـــره بســـام

أشـــماتاً بالمســـلمين وقـــد دارت ... عليهـــمُ بنحســـها الأيـــام

يابنـــي مصـــر صـــغيةً لســـؤال ... فيـــه عتـــب لكـــم وفيـــه مـــلام

أتنـــاط الفتـــوخ فـــي خنصـــر الكفِّ ... ازديـــاداً إن قطَّـــت الإبهـــام [1]

أدمـــاء القتـــلى لـــديكم خضـــاب ... أم أنـــين الجرحـــى لكـــم أنغـــام

أم تريـــدون أن تكونـــوا كقَـــوم ... أســـكرتهم بـــين القبـــور مـــدام

لســـت أدري وقـــد ســـمعت بهـــذا ... يقظـــة مـــا ســـمعته أم منـــام؟!

إنها نفس مسلمة مرهفة الإحساس ، تتعجب ممن أصابتهم البلادة وشدتهم الأرض فما عادوا يحسون إلا بشهواتهم ، ولربما انسلخوا عن دينهم وأمتهم فما عادوا يشعرون بشعورها أو يحسون بإحساسها ، وهؤلاء كثيرون في كل زمان وكل مكان .

وكان حزب تركيا الفتاة ـ ومركزه باريس ـ يعارض السلطان عبد الحميد ويكيد له ويدبر الدسائس، ولم لا وهو صنيعة الغرب يموله ويصوغ أفكاره ، فقام حافظ إبراهيم يبكتهم ويفضح حال أفراده ويبين صفاتهم ، فهم أناس

[1] الفتوخ : جمع فتخ وهو حلقة كالخاتم .

قد عصوا ربهم ، وهم أقزام الفكر الغربي خانوا أمتهم فطردوا ولجأوا إلى أعدائها ، تتغير مواقفهم وآراؤهم دائماً ، ولايقر لهم قرار ، تفرقوا في البلاد أيدي سبأ [1] ، يقول :

فـــدى لـــك ياعبـــد الحميـــد عصـــابة ... عصـــت أمـــر باريهـــا ، وحـــزب مذبـــذب

ملكـــــتَ علـــيهم كـــل فـــجٍ ولجَّـــــةٍ ... فلـــيس لهـــم فـــي البـــر والبحـــر مهـــرب

تقاذفهـــــم أيـــدي الليـــالي كـــأنهم ... بهـــا مثـــل للنـــاس فـــي القـــوم يُـــضْرَبُ

وكـــــم ســـألوها لـــثم أذيالـــك التـــي ... لهـــا فـــوق أجـــرام الســـماوات مســـحب

فمـــا بلغـــوا ســـؤلاً ولا بلغـــوا منـــى ... كـــذلك يشـــقى الخـــائن المتقلِّـــب

ونراه يهجو والي الحجاز الذي أبدى العصيان وأمن للغرب حين عميت عيناه لذهبهم الرنان ، فخان الخليفة وسعى إلى المال ، ثم يدعي أنه من نسل الرسول ﷺ !! واشترى بالمال الذي أُعْطيه ولاء اليدو والعربان ليناصروه ، ويهدد الشاعر ويأمره بالتوبة والأوبة إلى الطاعة أو تقع به الواقعة [2] :

مـــنِّي علـــى دار الســـلام تحيـــة ... وعلـــى الخليفـــة مـــن بنـــي عثمـــان

وعلـى الألـى سـكنوا إلـى الحسـنى سـوى ... ذاك الـــذي يـــدعو إلـــى العصـــيان

والـي الحجـــاز الخـــارجي ومـا بـــه ... إلا اقتنـــــاص الأصـــــفر الرنـــــان

مـا للشـــريف المنتـمي حســـباً إلـــى ... خيـــر البريـــة مـــن بنـــي عـــدنان

أمســـى يمـــالئه وينصـــر غِيَّـــه ... وضـــلاله بحثـــالة العـــربان

ثم يخاطبه ويخاطب شريف مكة الذي أيده :

تـــالله لـــو جنَّـــدتما رمـــل النقـــا ... ونزلتـــما بمواطـــن العقبـــان

وغرســـتما أرض الحجـــاز أســـنة ... وأســـلتما بحـــراً مـــن النيـــران

لدهاكمـــا ورماكمـــا وذراكمـــا ... مـــاحي الحصـــون وماســـح البلـــدان

إن تأتيـــا طوعـــاً ، وإلا فأتيـــا ... كرهـــاً بـــلا حـــول ولا ســـلطان

أما محمود صادق فإنه حين خرج العرب على الأتراك عام / ١٩١٦ م / في أشد أيام المحنة عليهم ـ في الحرب العالمية الأولى ـ وحاربوهم في صفوف الأعداء وكان أقصى مانالوه من الثمار أن سلموا مفاتيح الشام والعراق والأراضي المقدسة للغرب ، كما أصبحت شبه جزيرة العرب تحت سيادة انكلترا ، شن عليهم حملة شعواء ،

---

[1] ديوان حافظ ص ١٧ .
[2] ديوانه ص ٤٩ .

فهو يتعجب من نقض العرب عهد الولاء للخلافة ، وتحولهم إلى أعداء بعد أن كانوا حماة لها ، ويحيي آباءهم الذين دافعوا عن الإسلام ، ويهجوهم لأنهم جاؤوا بالوبال والمصائب إلى بلادهم بأيديهم [١] :

ومن عجب أن ينقض العرب عهدهم ... ويصبح منهم للخلافة أعداء

ألم يك منهم قبلُ حامي ذمارها ... جدود لهم طيَّ القبور وآباء

سلام على أجدادكم لا عليكُمُ ... فمنهمُ آلاء ومنكمُ أرزاء

ويشدد الرصافي النكير على السلطان حسين كامل [٢] ووزيره حسين رشدي [٣]اللذين خضعا لأوامر الإنجليز وكانا عوناً لهم ضد الخلافة العثمانية ، ويصمهم بالخيانة لله وللإسلام والأمة ، وبالسفاهة ، وبأنهما باعا دينهما بخساً ، ويشبههما بعجل السامري أو بالصنم فقد أضلا كثيراً ممن تبعهما ، ولم يكن الوسامان اللذان علقهما الإنجليز على صدريهما سوى قيدين طوقا مصر كلها ، وما من رجل شريف ينظر إليهما وهما يحملان هذين الوسامين إلا عرف أن ثمنهما كان وضع مصر وخزائنها في يد الأعداء ، ولابد أن يندما يوماً على ما فعلاه [٤] :

قل للحسينين في مصر رويدكما ... قد خنتما الله والإسلام والوطنا

شايعتما الإنجليز اليوم عن سفه ... تالله ما كان هذا منكما حسنا

قد بعتما الدين بالدنيا مجازفة ... فكنتما في البرايا شر من غُبِنا

لاتفرحا بالوسامين اللذين هما ... طوقا إسارة مصر فيكما اقترنا

قد مثَّلا منكما للناس قاطبة ... عجلاً أضل الورى من قبل أو وثنا

ما ازدان صدراكما شيئاً بحملهما ... بل أصبحا في كلا صدريكما درنا

إن الحمية لم تنظر بمقلتها ... إلى وساميكما إلا بكت حَزَنا

ما كان أغلاهما إذ قد غدت لهما ... خزائن النيل في أيدي العدا ثمنا

ستندمان ، ولا يجديكما أبداً ... أن تقرعا السنَّ أو أن تقبضا الذقنا

ووقف الشيخ محمد العمري [٥] من ثورة الشريف حسين موقفاً يدل على التزامه بالدين وفهمه للخيانة التي وقع فيها الشريف حين صار أداة طيِّعة في يد الحلفاء ساعدت على إخراج العثمانيين من البلاد العربية ، فهو يرى أن

---

[١] ديوانه ص ١٣٥ .

[٢] حسين كامل بن إسماعيل بن إبراهيم : أول من ولي السلطنة في مصر بعد أن كانت خديوية تابعة للعثمانيين وكان ذلك في الحرب العالمية الأولى ، درس في باريس ، وتسنم مناصب وزارية هامة قبل سلطنته ، وبقي في السلطنة ثلاث سنوات لم يقم فيها بكبير عمل . الأعلام للزركلي ج٢ ص ٢٥٢ .

[٣] حسين رشدي بن طوزاده ولي زئاسة الوزارة أربع مرات ، مولده وفاته في القاهرة / ١٨٦٣ ـ ١٩٢٨ م / ، وفي أيام وزارته خرج الخديوي عباس حلمي من مصر ، فاغتنم الإنجليز الفرصة وعينوا حسين كامل ، وبقي هذا رئيساً لوزارته ، كما تولى رئاسة مجلس الشيوخ عام ١٩٢٥ م إلى وفاته . الأعلام ج٢ ص ٢٣٧ .

[٤] ديوان الرصافي ص ٤٨٩ ـ ٤٩٠ .

[٥] الشيخ محمد العمري المتوفى / ١٩٤٥ م / يقول عنه الأستاذ عبد الرحيم أبو بكر صاحب كتاب (الشعر الحديث في الحجاز) ص / ١٧٣ ـ ١٧٤ / : هو مغربي الأصل عاش في المدينة المنورة وتلقى علومه فيها ، ثم صار أحد علمائها وأدبائها البارزين في عالم الشعر ، وقد امتدت الحياة بهذا الشاعر إلى ما بعد العهد العثماني بفترة تزيد على الثلاثين عاماً ، ولكني أدرجه هنا ضمن شعراء أواخر العهد العثماني لأن أكثر إنتاجه الشعري وأهمه كان في تلك

من حارب الخلافة فقد جاوز حده وظلم نفسه ،ويشير إلى أن إثارة العصبية بين العرب والأتراك إنما هي إثارة للفتنة النائمة ، وهتك لعرض الإسلام وإضاعة للبلاد وبيع للعباد :

حـــدُّ الخلافـــة مـــن يجتـــازه ظَـــلَما ومـــن أبـــاح حماهـــا بـــئس مـــا اقتحمـــا

ومـــن يثـــر فتنـــة عميـــاء ســـاكنة فهـــو الـــذي هتـــك الإســـلام والحُـــرُما [1]

وحين انهزمت روسيا وفرنسا وبريطانيا أول الأمر أمام الألمان في الحرب العالمية الاولى فرح الشاعر العمري وتشفَّى بهم فقال [2] :

ذوقـي فرنســـا وبـال الخـزي والعـــار وجربـــي بـــؤس أخـــذ الملـــك والثـــار

وابكـي علـى روسِـــيا حزنـاً بمـا لقيـت فقـــد أصيبـــت علـــى رغـــم بمقـــدار

واستصـــرخي إنجلتـــرا إن كـــان تســـمعه فقـــد أحـــاط بهـــا ســـيل مـــن النـــار

فطـــأطئي رأس عـــزٍّ حشْـــوُه صـــلفٌ لتوســـع الصـــفع فيـــه كـــفٌّ جبـــار

وخاطب ـ أيضاً ـ القبائل التي تورطت مع الشريف حسين في تمرده على الدولة العثمانية ، وعلى رأس هذه القبائل (بنو حرب) فقال [3] :

رويـــداً بنـــي حـــرب تفـــاديكم الحـــرب ويحتـــاج مـــا خـــولتم الطعـــن والضـــرب

فأنتـــم قدحتـــم للشـــقاء زنادهـــا فطـــارت شـــراراً لا تبـــوح ولا تخبـــو

فصـــبراً علـــى ذلٍّ وأمـــر مغبَّـــة مـــن الصـــاب لا يســـطيعه الحلـــق والقلـــب

ألـــم تعلمـــوا أن الجهـــالة غبُّـــها وخيـــم ، وأن البغـــي مركبـــه صـــعب

ولمـــا أتـــاح الله تغييـــر أرضـــكم بـــإجلائكم عنهـــا ، غـــوت بكـــم الـــدرب

وهكذا نجد الهجاء العربي في العهد العثماني قد نحا منحيين :

الأول : الهجاء القديم وهو الذي لم يخرج عن المعاني القديمة والصفات التي استقاها الشعراء من الشعر العربي القديم من نعت بالجبن والخوف والفرار من المعارك وفساد الرأي ...

والثاني : الهجاء الجديد وهو ما ضم الصفات التالية : خيانة الله ورسوله والإسلام ، وخيانة الوطن والأمة والبلاد ، ووصم الأعداء بنقض العهد وخفر الذمة والمدنية الطالمة والمادية الطاغية وادِّعاء الإنسانية والتحضر ...

الفترة ، وذهب إلى أكثر من هذا حين حدد موقفه من حركة الحسين بن علي ضد الخلافة العثمانية فهجا القائمين عليها حاثاً على التمسك بالخلافة العثمانية الإسلامية .

[1] الشعر الحديث في الحجاز ص ١٧٦ .

[2] نفس المصد ص١٧٧ .

[3] نفس المصدر ص ١٧٩ .

سادساً :النزعة الإسلامية :

إن حب الإسلام يجعل صاحبه يرى نصرته واجبة ، والعمل على رفعة شأنه فرضاً يندمج فيه ، فلا يرى حسناً إلا ما حسنه الإسلام ، يحب الآخرين لا يحبهم إلا في الله ، ويبغضهم لا يبغضهم إلا لله ، ويرى في المسلمين إخواناً في العقيدة ويفرح لفرحهم ويأسى لأساهم ، وينافح عن قضيتهم.

وقد وردت هذه المعاني كثيراً عند شعراء العهد العثماني ، لاسيما المتأخرين منهم ، وسنقف عند بعض هذه الأشعار لنوضح الآصرة التي تجمعهم وتصهرهم في بوتقة فكر واحد وهدف واحد وهوى واحد .

فالوزير مصطفى الكوبريلي عند الشاعر عبد الباقي بن مراد العمري : حامي حمى الإسلام ، وقاهر المشركين [١] ، كما أن وجوده في المسلمين أعاد لهم قوتهم كالنبي يوشع الذي توقفت الشمس لأجله فلم تغرب حتى قضى على الكفار [٢] :

أشـــرقت شـــمس الـــدين بعـــد أفولهـــا فكأنمـــــا أصـــــبحتَ فينـــــا يوشـــــعا

جـــدَّدت هـــذا الـــدين أنـــت وقـــد أتـــــى نـــــص الحـــــديث مخبـــــراً ومشـــــيِّعا[٣]

كما نلحظ تانزعة الإسلامية واضحة في شعر الشريف السيد فتح الله متولي صاحب الأرجوزة التي مرت معنا ولا سيما في افتتاحيتها والتي يقول فيها [٤]:

أحمـــــد ربـــــي خـــــالقي ومعينـــــي فـــــي كـــــلِّ آن بـــــل وكـــــل حيـــــن

أثنـــــي عليـــــه لـــــزوال نقمـــــه إذ بـــــدَّل العســـــر بـــــنعم النعمـــــه

ثـــمَّ صـــــلاة الله تغشـــى أحمـــدا محمـــــد الهـــــادي النبـــــي الأوحـــــدا

ثـــم علـــى الشـــيخين مـــن بعـــدهما أفضـــــل صـــــهرين همـــــا همـــــا

ثـــــمَّ علـــــى ســـــتته البـَـــــرَرة والآل أيضـــــاً هكـــــذا والعـــــترة

وقد مرَّ معنا أبيات شوقي التي يوضح فيها أن اليونانيين هربوا ، وكان الفزع آخذاً منهم كلَّ مأخذ ، لأن ملائكة الله كانت تتابعهم وتلقي الرعب في قلوبهم [٥]، ثم يعبر عن فرحته بالإسلام فيقول :

وزيـــد حمـــى الإســـلام عـــزاً ومنعـــة ورد جمـــاح العصـــر فالعصـــر هيِّـــب

---

[١] الروض النضر ج١ ص / ٨٠ ، والأبيات موجودة في صفحة / ٦٧ من هذا البحث ، ولذلك لم أسجلها هنا منعاً للتكرار .

[٢] الروض النضر ج١ ص / ٨٣ .

[٣] في هذا إشارة إلى ما ورد في الأحاديث التي تدل على أن الله يبعث على رأس كل مائة سنة من يجدد لها أمور الدين ، وهذا ليس خاصاً بالعلماء ، بل يشمل الملوك أيضاً ـ كما صرح بذلك البسطامي في كتابه (الفوائح المسكية والفواتح المكية) ـ وعد الظاهر بيبرس ملك مصر مجدداً للدين في المائة السابعة .

[٤] الروض النضر ج ٢ ص ٥١٢ .

[٥] ديوان شوقي ج١ ص/ ٥٣ ـ ٥٦ / . .

وحين تراجع اليونان أمام الأتراك بقيادة أتاتورك ، هبَّ شوقي بحميته الإسلامية يهزج وينشد فشبه الرجل بخالد بن الوليد !! وأوصاه الالتزام بالإسلام ففيه الخير كل الخير وهو سلاح المسلمين المتين ، ثم شبه استعادة إزمير بمعركة بدر التي انتصر فيها المسلمون على المشركين تساعدهم الملائكة في حربهم المقدسة [1] :

الله أكبر هل في الفتح من عجب ... يا خالد الترك جدِّدْ خالد العرب

ولا أزيدك بالإسلام معرفة ... كل المروءة في الإسلام والحسب

خيل الرسول من الفولاذ معدنها ... وسائر الخيل من لحم ومن عصب

حتى طلعت على إزمير في فلك ... من نابه الذكر لم يسمك على الشهب

في موكب وقف التاريخ يعرضه ... فلم يُكذب ولم يُذمَم ولم يُرِب

يوم كبدر فخيل الله راقصة ... على الصعيد ، وخيل الله في السحب

إن هذه المعركة كما يراها الشاعر معركة الإسلام ضد الكفر ، وقد اهتزت دنيا المسلمين لها وفرحت كيف لا وقد اهتز البيت الحرام والروضة الشريفة لهذا النصر:

لما أتيت ببدر من مطالعها ... تلفت البيت في الأستار والحجب

وهشت الروضة الفيحاء ضاحكة ... إن المنورة المسكية الترب

ومسَّت الدار أزكى طيبها وأتت ... باب الرسول فمسَّت أشرف العتب

وأرج الفتح أرجاء الحجاز ، وكم ... قضى الليالي ، لم ينعم ولم يطب

وازَّينت أمهات الشرق واستبقت ... مهارج الفتح في الموشية القشب

هزَّت دمشق بني أيوب فانتبهوا ... يهنئون بني حمدان في حلب

ومسلمو الهند والهندوس في جذل ... ومسلمو مصر والأقباط في طرب[2]

ممالكٌ ضمها الإسلام في رحِم ... وشيجة وحواها الشرق في نسب

ويصرح بالعلاقة الإسلامية الوطيدة بين العرب والترك وغيرهم :

يؤلف إيلام الحوادث بيننا ... ويجمعنا في الله دين ومذهب[3]

بل إن شوقي يعد مديحه للخليفة تقرباً إلى الله وزلفى ، ويعتقد أن نجاة الخليفة من الاغتيال الذي دبره الأرمن عام / ١٩٠٥ م / كان نجاة للبلاد ، وثباتاً للإسلام ، ويرى أن تحيته له قاصرة فيسأل الله له التحية والسلام [4] :

---

[1] ديوان شوقي ج ص / ٥٩ـ ٦٤ / من قصيدة (انتصار الأتراك في الحرب والسياسة) .

[2] يريد أن يقول إن أبناء الممالك الإسلامية من غيرالمسلمين قد شاركوا المسلمين فرحتهم .

[3] ديوانه ج١ ص٤٦ .

[4] ديوانه ج١ من قصيدة (نجاة) ص ٩٧ .

زهـــدت الـــذي فـــي راحتيـــك وشـــاقني جوائـــــــز عنـــــد الله مبتغيـــــــات

نجـــت أمـــة لمَّـــا نجـــوت ، ودوركـــت بـــــلاد وطـــــالت للســـــرير حيـــاة

وصـــين جـــلال الملـــك وامتـــدَّ عمـــره ودام عليـــــه الحســـــن والحســـــنات

ســـــلاميَ عـــن هـــذا المقـــام مقصـــر عليـــــك ســـــــلام الله والبركـــــات

ونشعر في قراءتنا لقصائد شوقي بالانتساب إلى الإسلام ولا غرو ، فهو أمير شعراء المدائح النبوية في هذا العصر ، ولاننسى قصيدته نهج البردة (الميمية) والتي مطلعها [١] :

ريـــم علـــى القـــاع بـــين البـــان والعلـــم أحـــل ســـفك دمـــي فـــي الأشـــهر الحُـــرُمِ

والهمزية النبوية ومطلعها [٢] **:**

ولـــــد الهـــــدى فالكائنـــــات ضـــــياء وفـــــم الزمـــــان تبســـــم وثنـــــاء

وقصيدة (ذكرى المولد) البائية ومطلعها [٣] **:**

ســـــلوا قلبـــــي غـــــداة ســـــلا وتابـــــا لعـــــلَّ علـــــى الجمـــــال لـــــه عتابـــــا

ولقد وقفنا ملياً مع قصيدة (فم الدهر) لأمين ناصر الدين يمدح الأميرين المصريين اللذين عملا على مساعدة إخوانهما الليبيين في حربهم ضد الإيطاليين لأن الوشيجة الإسلامية هي أساس العلائق بين المسلمين [٤] . وفي قصيدة أخرى له يؤكد هذا المعنى الذي وثقه التاريخ على مر العصور [٥] فيقول :

للعـــرب والتـــرك تـــاريخ إذا رويـــت أخبـــاره فرِقـــت مـــن هولهـــا الأمـــم

تكـــاد تهـــوي الرواســـي كلمـــا زأروا ويهجـــم المـــوت فتاكـــاً إذا هجمـــوا

كما أن الشاعر نفسه يطلب من الجندي العثماني أن يجاهد غير هياب ولا وجل ليعلم الناس أن المسلمين يفدون دولتهم بأرواحهم ، فإذا قضى كان شهيداً عند ربه رضياً [٦] :

وبـــع فـــي الـــروع نفســـك حـــين يـــأبى جبـــــان مـــــن رفاقـــــك أن يبيعـــــا

فتعلـــــم أمَّـــــة البلقـــــان أنَّـــــا فـــــدى لهـــــلال دولتنـــــا جميعـــــا

وحســـب المـــرء أن يمضـــي شـــهيداً فيلقـــــى عنـــــد خالقـــــه شـــــفيعا

---

[١] ديوانه ج١ ص ١٩٠ .
[٢] ديوانه ج١ ص ٣٤ .
[٣] ديوانه ج ١ ص ٦٨ .
[٤] ديوان أمين ناصر الدين ص ١٥ .
[٥] نفس المصدر السابق ص٦٣ ، قصيدة (الحرب الظالمة) .
[٦] نفس المصدر السابق ص ٨٧ ـ ٨٨ ، قصيدة (إلى الجندي العثماني) .

ونرى النزعة الإسلامية واضحة عند الرصافي ، ففي قصيدته (إلى الحرب) [1] يطلب من المسلمين (الشرق) أن يستعدوا للحرب وأن لا يغتروا بأقوال الغربيين فإنهم كذابون ، ويأتي بمثال على غدرهم ومكرهم بما فعلوه في مصر وليبيا وتونس ضد المسلمين:

ألا انهـض وشـمر أيهـا الشـرق للحـرب وقبـل غـرار السـيف واسـل هـوى الكتـب[2]

ولا تغتــرر إن قيــل عصــر تمــدُّنٍ فـإن الـذي قالــوه مــن أكــذب الكــذب

ألسـت تراهـــم بيـــن مصـــر وتونـــس أبـاحوا حمـى الإسـلام بالقتـل والنهـــب

وحين يرى المصائب تترى في طرابلس يرسل إلى السنوسي شيخ الطريقة هناك وله أتباع مسلحون أن يبادر إلى الجهاد ليحمي بلاد المسلمين ويكشف عنهم الهم والغم ، فقد أصيبوا وليس لهم بعد الله إلا المخلصون المصلحون ، ومازال فيهم الأبطال الميامين السائرون على خطا أسلافهم :

ومــن مبلــغ عنــا الســنوسي إنــه يمــد لهـذا الصــدع منــه يـد الــرأب

فإنــا لنرجــو أن يقــود إلــى الــوغى طــلائع مــن خيــل ومــن إبــل نجـب

فيحمــي بــلاد المســلمين مــن العِــدا وينهــض كشَّافــاً لهــم غمــة الخطــب

فــإن حشــا الإســلام أصــبح داميــاً إلــى الله يشــكو قلبــه شــدة الكــرب

فــلا تغضــبوا الإســلام إن ســيوفه مـواض كمـا قـد كـنَّ فـي سـالف الحقـب

كما نلحظ الروح الإسلامية الدفاقة في رثاء الشاعر أدرنة ، وعودة إلى غرض الرثاء في الباب الثاني من هذا البحث يوضح ذلك .

وفي رثاء الملا أبي السعود الخليفة سليمان القانوني نجد النزعة الإسلامية والفكرة الدينية واضحة في ثنايا النص، فقد كان الخليفة يحكم بشرع الله [3] :

معلــي معــالم ديــن الله مظهرهــا فــي العــالمين بســعي منــه مشــكور

وقد مر معنا في باب الرثاء أيضاً وصفه للخليفة بأنه حي لايموت لآنه شهيد ومرابط في سبيل الله، قد اشترى الآخرة بالدنيا .

لقد كان هذا الغرض الشعري ـ النزعة الإنسانية ـ في هذا العصر امتداداً لما سبقه من العصور ، لكن شعراءه في العصر العثماني ـ في القرن العشرين ـ أكثروا منه واهتموا به اهتماماً بالغاً ، فما من قصيدة تقريباً إلا والروح الإسلامية الوثابة تعتلج فيها ، وترسل أريجها ، فحق أن يكون من الأغراض الشعرية الجديدة .

---

[1] ديوان الرصافي ص ٤٧٨ .

[2] غرار السيف : حده . والمعنى : عوِّل على السيف في الوصول إلى حقك وهدفك ، ودع الكتب جانباً .

[3] المنح الرحمانية ص١٣٤ .

وأنهي هذا الغرض بشعر ينسب إلى الخليفة العثماني الأول سليم بن بايزيد يؤكد إسلامية الدولة ونهجها الديني فيقول [1] :

الملـــك لله مـــن يظفـــر بنيـــل منـــى ... يُـــسلَبْه قســـراً ومـــن ذا يضـــمن الـــدَّرَكا

لـــو كـــان لـــي أو لغيـــري قدرأنملـــة ... فـــوق التـــراب ، لكـــان الأمـــر مشـــتركا

سابعاً : الحكمة :

قديمة قدم الإنسان ، وكذلك في الشعر ، تصدر عمن خبر الحياة وعرف الطريق الصحيح وخالط الناس وتجول في أعماق النفس البشرية والسنن الحيوية .

وهي في الشعر العربي في العهد العثماني كما هي فيما سبق وسنقطف من أزاهير الحكمة باقة تنشر أريجها وتضيف نكهة طيبة في درب حياتنا .

وما أجمل الحكمة التي يسوقها الشاعر إسماعيل صبري في إحدى قصائده [2]:

لا يثـــق بعضنـــا بـــبعض وهـــذا ... مـــا أعـــدَّ الإنـــسان للإنـــسان

إن تســـلِّم علـــى الغريـــب فســـلِّم ... فـــي ظـــلال الســـيوف والمـــرَّان [3]

ربمـــا أصـــبح العنـــاق صـــراعاً ... فـــي زمـــان الآداب والعرفـــان

لقد عاش الشاعر عمراً خبر به الحياة ، فرأى الإنسان يعد لأخيه ما يستطيعه من الأذى وما بقدر عليه من إساءة ، والتاريخ شاهد على ذلك ، فعليه إذن أن يكون حذراً فلا يطمئن إلى أحد ، وإن لقيه فليكن مستعداً ، فقد ينقلب التقارب تباعداً ، والعناق عراكاً وخاصة في هذا الزمن الكئيب الذي يسمونه زمن العلوم والمعارف .

ويرى الشاعر منجك أن الخرق عندما يتسع على الراقع لا يعود يفيده مدد ولا عون وأن الحذر لا ينجي من القدر :

مـــن راح يطلبـــه القـــدير فمـــا لـــه ... بحـــر يقيـــه ولا ســـهل ولا جبـــل

والحكمة كثيرة عند عبد الباقي بن أحمد المعروف بابن السمان ، ففي مدحه للوزير الفاضل أحمد الكوبريلي نرى قصيدته اللامية تعج بالحكمة ، وإليك طائفة منها [4] :

أخـــف النـــوى مـــا ســـهلته الرســـائل ... وأحلـــى الهـــوى مـــا كذبتـــه العـــواذل

ولا ملـــح فـــي عـــيش إذا لـــم يكـــن لـــه ... حبـــيبٌ يجـــافي تـــارة ويواصـــل

ولا خيـــر فـــيمن حـــوَّل البعـــد قلبـــه ... ولا فـــي وداد غيَّـــرته العـــوامل

---

[1] الكواكب السائرة ص ٢٠٩ .
[2] ديوانه ص ١٨٥ .
[3] المرَّان : جمع مارن وهو الرمح الصلب .
[4] نفحة الريحانة ص / ٢٤٣ ـ ٢٤٥ / .

وليس بنا حبُّ الديار وإنما ... لنا بهوى السكان شغل وشاغل [1]

وما الفخر بالأجسام والمال والعلا ... ولكن بأنواع الكمال التفاضل

وما يصنع الإنسان يوماً بنوره ... إذا عادلت فيه النجوم الجنادل

وأصعب ما حاولت تثقيف أعوج ... وأثقل شيء جاهل متعاقل

والبارودي عاقل لبيب ، وصل بتيسير الله له وبجده وذكائه إلى أعلى المراتب في الدولة ، ومن الحكم التي استفادها في حياته قوله [2] :

فقد يهلك الرعديد في عقر داره ... وينجو من الموت الكميت المشايح [3]

وكل امرئ يوماً ملاق حمامه ... وإن عار في أرسانه وهو جامح [4]

فما بارح إلا مع الخير سانح ... ولا سانح إلا مع الشر بارح [5]

ويقول أيضاً :[6]

فيا قلب صبراً إن ألمَّ بك النوى ... فكل فراق أو تلاق له حد

فقد يشعَبُ الإلفان أدناهما الهوى ... ويلتئم الضدان أقصاهما الحقد [7]

على هذه تجري الليالي بحكمها ... فآونة قرب ، وآونة بعد

ويقول وهو في حرب البلقان :[8]

وهل زمن ولَّى وعيش تقيضت ... عضارته ، بعد الذهاب يعود [9]

وقد يخص الحكمة بقصيدة كاملة [10] :

بادر الفرصة واحذر فوتها ... فبلوغ العزِّ في نيل الفرصْ

---

[1] يذكرنا هذا بقول مجنون ليلى : وما حب الديار شغفن قلبي ولكن حب سكن الديارا

[2] ديوانه ص / ١٠٨ .

[3] المشايح : الشجاع المقاتل .

[4] عار الفرس يعير : ذهب كأنه منفلت من صاحبه ، والأرسان : جمع رسن وهو الحبل في رقبة الفرس ، جامح : مستعصٍ ، ومعنى الأبيات يذكرنا بقول طرفة

لعمرك إن الموت ما أخطأ الفتى ... لكالطوَّل المرخى وثنياه في اليد
متى ما يشأ يوماً يقده لحتفه ... ومن يك في حبل المنية ينقد

[5] البارح : الطائر الأشأم ، والسانح : الطائر الأيمن ، والعرب تتيامن بهذا و تتشاءم من ذاك .

[6] ديوان البارودي ص / ١٣٨ .

[7] يشعب : يقسم شعبين أو قسمين، والمعنى أنهما يفترقان ، ولله در الشافعي إذ يقول : " أحبب حبيبك هوناً ما عسى أن يكون بغيضك يوماً ما ، وأبغض عدوك هوناً ما عسى أن يكون حبيبك يوماً ما " .

[8] ديوانه ص / ١٤٣ .

[9] تقيضت : ذهبت وزالت ، وأصلها : من تقيض الجدار أو الكثيب إذا تهدم وانهال ، والغضارة : النعمة والسعة ، وهذا يذكرنا بقول الشاعر :
ليت ، وهل تنفع شيئاً ليت ... ليت شباباً بيع فاشتريت (البيت من مغني اللبيب تحقيق عبد السلام هارون ص ٣٩٣) .

[10] ديوانه ص / ٢٩٦ .

واغتـــنم عمـــــرك إبَّـــان الصبـــا ... فهـــو إن زاد مـــع الشـــيب نقـــصْ [1]

إنمـــا الدنيـــا خيـــال عـــارض ... قلمـــا يبقـــى وأخبـــار تُقـــصّْ

تـــارة تدجـــو وطـــوراً تنجـــلي ... عـــادة الظـــل ســـجا ثـــمَّ قلـــصْ [2]

فابتـــدر مســـعاك واعلـــم أن مـــن ... بـــادر الصـــيد مـــع الفجـــر قـــنصْ

لـــن ينـــال المـــرء بـــالعجز المنـــى ... إنمـــا الفـــوز لمـــن هـــمَّ فـــنصّْ [3]

يكـــدح العـــاقل فـــي مـــأمنه ... فـــإذا ضـــاق بـــه الأمـــر شـــخص [4]

ولـــيكن ســـعيك مجـــداً كلـــه ... إن مرعـــى الشـــر مكـــروه أحـــصّْ [5]

واتـــرك الحـــرص تعـــش فـــي راحـــة ... قلمـــا نـــال منـــاه مـــن حـــرص

قـــد يضـــرُّ الشـــيء ترجـــو نفعـــه ... رب ظمـــآن بصـــفو المـــاء غـــصّْ

ميِّـــز الأشـــياء تعـــرفْ قدرهـــا ... ليســـت الغـــرَّة مـــن جـــنس البـــرص [6]

واجـــتنب كـــل غبـــي مـــائقٍ ... فهـــو كالعيـــر إذا جـــد قمـــص [7]

إنمـــا الجاهـــل فـــي العيـــن قـــذى ... حيثمـــا كـــان وفـــي الصـــدر غصـــص

وفي قصائد الرصافي كثير من الحكم ينثرها كما تنثر الدرر ، منها [8] :

إن لـــم تموتـــوا كرامـــاً فـــي مـــواطنكم ... متُّـــم أذلاء فيـــها مـــيتة الجبنـــا

لاعـــذر للمســـلمين اليـــوم إن وهنـــوا ... فـــي هوشـــة ذلٍّ فيهـــا كـــل مـــن وهنـــا [9]

ولا حيـــاة لهـــم مـــن بعـــد إن جبنـــوا ... كـــلا ، وأي حيـــاة للـــذي جبنـــا

أما شوقي فهو بحق شاعر الشعراء وأميرهم ، والحكم التي يزجيها أميرة ما يقوله الشعراء من حكم ، فما من قصيدة إلا والحكمة زينها ويتيمة عقدها ، فهو يبدأ قصيدته (صدى الحرب) بعدة حكم منها [10] :

بســيفك يعلــو الحــق ، والحــق أغلـــب ... وينصـــر ديـــن الله أيـــان تضـــرب

ومـــا الســـيف إلا آيـــة الملـــك فـــي الـــورى ... ولا الأمـــر إلا للَّـــذي يتغلَّـــب

---

[1] المعنى مأخوذ من الحديث النبوي : اغتنم خمساً قبل خمس : .... شبابك قبل هرمك ...

[2] تدجو : تُظلِم والمراد : تسوء ، تنجلي : تنكشف وتتضح ، سجا : امتدَّ وسكن ودام ، قلص : تقلص ونقص وانزوى .

[3] نصَّ : أنفذ ما أراده وحرَّكه

[4] شخص : ارتحل وهاجر ، والمراد : يعمل الإنسان في بلده فإذا ضاق به العيش ارتحل إلى مكان آخر يعمل فيه .

[5] الأحص : المشؤوم الوبيل الذي لا خير فيه ، حص الشعر : تساقط وتناثر .

[6] الغرة : بياض مستحسن في جبهة الفرس ، والبرص بياض يظهر في ظاهر البدن لفساد مزاج ، وهو من الأدواء البشعة والمعنى : إن على الإنسان أن أن يقدِّر الأمور ويمحصها ليصل إلى الصواب .

[7] الغبي : سيئ الخلق ، المائق : الأحمق ، العير : الحمار ، وقمص العير : اضطرب في سيره واستنَّ : وهو أن يرفع يديه ويطرحهما معاً ، ويعجن برجليه .

[8] ديوانه ص / ٤٨٩ . من قصيدة (الوطن والجهاد) .

[9] الهوشة : الفتنة و الهياج والاضطراب ، أراد الشاعر أن يحارب المسلمون حرباً عامة .

[10] ديوانه ص ٤٢ .

تنـــام خطـــوب المـــلك إن بـــات ســـــاهراً ... وإن هـــــو نـــــام اســـــتيقظت تتألَّـــــب

ولـــــم يتكلَّـــف قومـــك الأســـــد أهبـــــة ... ولكـــــن خلقـــاً فـــي الســـــباع التأهُّـــب

كـــذا النـــاس بـــالأخلاق يبقـــى صـــلاحهم ... ويـــذهب عـــنهم أمـــرهم حـــين تـــذهب [١]

ومـــا الملـــك إلا الجـــيش شـــأناً ومظهـــراً ... ولا الجـــيش إلا ربـــه حيـــن ينســـب [٢]

ويقول أيضاً :

ســـئلت ســـلما علـــى نصـــر فجـــدت بـــه ... ولـــو ســـئلت بغيـــر النصـــر لـــم تجـــب

لـــم تفتـــرق شـــهوات القـــوم فـــي أرب ... إلا قضـــى وطَـــراً مـــن ذلـــك الأرب[٣]

لاخيـــر فـــي منبـــر حتـــى يكـــون لـــه ... عـــود مـــن الســـمر أو عـــود مـــن القضـــب

ومـــا الســـلاح لقـــوم كـــل عدَّتـــهم ... حتـــى يكونـــوا مـــن الأخـــلاق فـــي أُهُـــب[٤]

لـــو كـــان فـــي النـــاب دون الخلـــق منبهـــة ... تســـاوت الأســـد والـــذؤبان فـــي الرتـــب

لا تلـــتمس غلبـــاً للحـــق فـــي أمـــم ... الحـــق عندهُـــمُ معنًـــى مـــن الغَـــلب[٥]

ويقول هاجياً حكام اليونان وقادتهم الذين دفعوا سوادهم إلى قتال المسلمين فانتصر هؤلاء عليهم ورموهم في بحر إيجة :

وأنشـــؤوا نزهـــة للجـــيش قاتلـــة ... ومـــن تنـــزه فـــي الآجـــام لـــم يـــؤبِ [٦]

ونجد في رثاء السلطان سليمان القانوني للشاعر الملا أبي السعود حكماً كثيرة نذكر منها :

وللمنـــــايا مواقيـــــت مقـــــررة ... تـــأتي علـــى قـــدر فـــي اللـــوح محـــفور [٧]

ولـــيس فـــي شـــأنها للنـــاس مـــن أثـــر ... ومدخـــــل مـــا بتقديـــم وتأخيـــر

إن المنـــــايا وإن عمَّـــت محرمـــــة ... علـــى شـــهيد جميـــل الحـــال مبـــرور[٨]

---

[١] وأشهر من هذا البيت قوله : وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

[٢] ديوانه ص ٤٥ . والمعنى : لايكون الملك ثابتاً إلا بالجيش القوي ، ولا يكون الجيش قوياً إلا بالقائد الذي يدربه ويسلحه فالأمر متكامل .

[٣] ديوانه من قصيدة (أنصار التراك في الحرب والسياسة) ص ٥٩ . والمراد : من سار وشهواته تقوده لم ينل شيئاً ، ومن حكم عقله وصل إلى مأربه .

[٤] أهب : جمع إهاب ، وهو الثوب السابغ الطويل ، ، والمعنى : لا يكمل انتصار الجيش إن كان كثير السلاح قوي الإعداد فقط ، إنما يكمل انتصاره إذا إذا سبق كل هذا الأخلاق العامرة والدين القويم . وهو يقول في قصيدة أخرى بهذا المعنى :

وليس بعامر بنيان قوم إذا أخلاقهم كانت يبابا

[٥] إن الأمة التي يكون الحق بجانبها وتقاتل دفاعاً عنه لن يستطيع أحد أن يغلبها .

[٦] الآجام : جمع أجمة وهي الشجر الكثيف التفت أغصانها ، وهي مأوى الأسود ، والمعنى : من دخل ذلك المكان التقمته الأسود ، فعلى الإنسان أن يكون حذراً قبل الإقدام على أي عمل .

[٧] البيت مأخوذ من قوله تعالى : { .. لكل أمة أجل ، إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون } سورة يونس الآية / ٤٩ .

[٨] المعنى مأخوذ من الآية الكريمة { .. ولا تحسبنَّ الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً ، بل أحياء عند ربهم يرزقون @ فرحين بما آتاهم الله من فضله .. } آل عمران الآيتان / ١٦٩ ـ ١٧٠ / .

مامـــات بـــل نـــال عيشـــاً باقيـــاً أبـــداً عـــن عيـــش فـــان بكـــل الشـــر مغمـــور

ثامناً : حب الوطن والحنين إليه :

قديماً قالوا : (حب الوطن من الإيمان) ، والإنسان ينزع إلى وطنه ، فهو مراتع الصبا والذكريات المحببة ، وأصالة الماضي وحلم المستقبل ، وأقدم من هذا قول رسول الله ﷺ في هجرته إلى المدينة يخاطب مكة (والله إنك لأحب أرض الله إليَّ ، ولولا أن أهلك أخرجوني ما خرجت) .

ونلمح في الأشعار التي قيلت في الحروب العثمانية كثيراً من الحنين إلى الوطن والشوق إليه ، والرغبة في العودة إلى أحضانه ، منها :

ماقاله الشاعر مصطفى البابي الحلبي في معرض مدحه للوزير الفاضل فقد حلم أنه في بلاده وبين أهله ، فاستيقظ وقلبه هناك في حلب الشهباء وفي مرابعها قرب جبل الجوشن ذلك المرتفع الذي قضى فيه عهد الصبا فعاتب قلبه وطلب منه أن يفيق من هذا الحلم فإن بينه وبين حلب وأهلها فيافي ممتدة وصحارى جرداء يضل الطير في أجوائها [1]:

أزارك هـــذا الطيـــف ، أم أنـــت زرتـــه ففكـــرك للأحبـــاب حلـــف التعـــهد [2]

أفِـقْ ، إنمـــا اســـتهدى حجـــاك زخـــارف مـــن الحلـــم لـــم تنفـــع بهـــا غلَّـــة الصـــدي [3]

فـــدون ذرا الشـــهباء جـــرد تنـــائف يجـــوز القطـــا أجواءهـــا غـــير مهتـــد [4]

ثم يوضح السبب الذي جعله يفارق أهله وأرضه ، إنه الفقر الذي دفعه إلى عاصمة الخلافة واللحاق بركب رئيس الوزراء والصدر الأعظم الموجود في كريت يمدحه لينال عطاياه ويسد فاقته وبعد ذلك سيعود إلى بلده ويلقى أحبته ويسعد بهم :

أجيرتنـــا تلقـــاء جوشـــن إنَّـــه فـــراق اضـــطرار لا فـــراق تعمُّـــد

ولـــولا نضـــوب العـــيش مـــا ســـبحت بنـــا طـــلائح فـــي بحـــر مـــن الآل مزبـــد [5]

ولكنـــها نفـــس متـــى شـــاب وردهـــا قـــذى ، تَـــخَذَّت مـــن عزمهـــا خيـــر مـــورد

وهـــل يتحلـــى عقـــد مجـــد منضَّـــد مـــن النـــاس إلا رب شـــمل مبـــدد

وقـــد آذنـــت أن تنطـــوي شـــقة النـــوى وأوشـــك أن يدنـــو اللقـــا ، وكـــأنْ قـــدِ [6]

---

[1] العقود الدرية ، ديوان مصطفى البابي ص ٣٧ .
[2] التعهد : التذكر ، والمعنى : أنت دائماً تتذكر أحبابك وأهلك .
[3] الحجا : العقل ، غلة : عطش ، الصدي : العطشان
[4] جرد : جمع جرداء ، تنائف جمع تنوف وهي الصحراء ، ، القطا جمع قطاة وهي طيور صحراوية سريعة .
[5] الطلائح : النوق التي لم تجد من طعام في الصحراء سوى الطلح فاشتكت بطونها وخلت أجوافها ، الآل : السراب .
[6] آذنت : قاربت ، شقة النوى : مشقة الاغتراب والبعد ، قدِ : يكفي .

ويبين الشاعر عبد الباقي بن السمان في معرض مدحه للوزير نفسه أن الإنسان قد يقدم نفسه الغالية لمن يحب ، وأن الحب يبدأ بالاستلطاف أولاً ثم يكبر وينمو حتى يملك الوجدان ، أما الشاعر فقد زاره طيف الحبيب وقطع الصحارى والبحار فمنع منه النوم ، ويتعجب كيف استطاع أن يصل إليه وهو ناء عنه بعيد [١] :

بالنفـــس يســـمح مـــن أراد نفيســـا ... والحـــب أوَّل مـــا يكـــون رسيســـا [٢]

وأطـــار عنـــي النـــوم طيـــف طـــارق ... قطـــع القفـــار وجـــاوز القاموســـا [٣]

أفلحـــت كيـــف وصـــلت للونـــديك مـــن ... أقصـــى الـــبلاد وجئتهـــا جاسوســـا [٤]

أم كيـــف خلَّفـــت الشـــآم وأهلـــه ؟ ... وتركـــت وادي النيـــرب المأنوســـا [٥]

ثم يصف هذه البلاد الحبيبة التي تؤنس العين والقلب ، والمعطاءة الجميلة بزرعها ، والطيبة بثمارها ، ويؤكد أن حبه لها لا يعتريه النقصان ولو نأى عنها ، بل إن النأي يزيده تعلقاً بها ، فما أشد الغربة على المحب ولا سيما إن طالت المدة وبعدت المسافة :

أرضٌ إذا ســـرحت طرفـــك خلتهـــا ... روضـــاً يقـــلُّ علـــى الغصـــون شموســـا

إن كـــان غيَّـــرها الزمـــان فـــإنني ... أمســـيت منـــي قبلـــها ميؤوســـا [٦]

لا ســـامح الله النـــوى مـــن كافـــر ... عبـــد ، ولا رحـــم الـــرحيم العيســـا [٧]

ومهامـــه قفـــر يضـــل بهـــا القطـــا ... ويـــرى الدليـــل بســـهلها التفليســـا [٨]

ولعلنا نجد التصوير الدقيق لحنايا النفس الإنسانية عند الشاعر عبد الباقي بن مراد العمري حين ودع أهله في العراق وسافر إلى القسطنطينية ، فهو حين مدح مصطفى الكوبريلي كان ذا عاطفة دفاقة ، بسبب تذكره لإخوته حين ودعوه فمن نفس ذابت حسرة لفراقه ، وعين انفجرت الدموع منها ألماً ، وحنين والدته إليه ولمَّا يزل عندها ، فكيف تكون حالها وهو مفارقها أبداً ؟ .. [٩] :

رعيـــاً لصـــبرك فـــي الزمـــان المـــؤثر ... وإلـــى متـــى وحشـــاي ذات تســـعُّر

مـــا تذكـــرَنَّ بنـــي أبيـــك تشـــوقاً ... وتـــــوددا ووداع ذات المعـــــــشر

وحشاشـــة ذابـــت وطـــرفاً باكيـــاً ... يـــوم النـــوى جزعـــاً بفـــرط تحيُّـــري

---

[١] نفحة الريحانة ج١ ص / ٢٤٠ ـ ٢٤١ / .

[٢] الرسيس : بداية الشيء .

[٣] الطارق : زائر الليل ، والقاموس : البحر العظيم .

[٤] الونديك أو الإنديك : المنطقة التي كان فيها الشاعر مع الوزير .

[٥] النيرب : اسم لمكان في دمشق وفي حلب ، والمقصود هنا نيرب دمشق .

[٦] يئس الشاعر من عودته إلى بلاده ، وقد يكون هذا بسبب شدة الشوق حتى خيل إليه أنه لن يبلغ المراد .

[٧] الكافر : الذي يغطي الشيء ، وسمي الفلاح كافراً لأنه يغطي الحب بالتراب ، وسمي الكافر كافراً لأنه يغطي الحق ، والعيس : النوق ، والمعنى : إن الغربة أبعدته عن أهله ووطنه وحجبته عنهم ، فدعا عليها وعلى العيس التي حملته بعيداً .

[٨] المهامه : القفار ، والتفليس : السير في الظلمة الحالكة ، وهنا نرى أن وصف الصحارى وتيه المسافر فيها عند هذا الشاعر كالذي وجدناه عند الشاعر مصطفى الحلبي .

[٩] الروض النضير ج١ ص / ٨٩ ـ ٩٠ / .

وحنيـــــن والـــدة إليـــك وطالمـــا ســـــهرت عليـــك بلوعـــة وتحسُّـــــر

ثم يصف جمال بلاده فماء دجلة عذب لذيذ ، وزقزقة العصافير وصدح الطيور فوق الأشجار المثمرة يطرب النفس ، والطبيعة بشقيها البدائي والصناعي يبهج العين ويريح القلب ، والرياض خضراء ممتدة والقصور والبيوت تسر الناظرين ، ورائحة الزهور والورود تحملك إلى عالم عبقري رائع ، والفتيات الجميلات يسلبن ويأسرن الأفئدة :

أيـــن العـــراق وأيـــن قســـطنطينية شـــطت عـــن الحدبـــاء عـــدة أشـــهر [١]

يـــا مـــاأحيلى مـــاء دجلـــة فـــي فمـــي والطيـــر يصـــدح فـــوق غصـــن مثمـــر

وريـــاض جوســـقه وظـــل قصـــوره وخريـــــر جدولـــه بتلـــك الأزهـــر [٢]

وشـــميم نشـــر خزامهـــا وعرارهـــا زمـــن الربيـــع كنشـــر مســـك أذفـــر [٣]

وكأنـــما نســـج الغمـــام مطارفـــاً قـــد وشـــيت بـــالزهر وشْـــيَ العبقـــر [٤]

وأصـــابع المنثـــور ترمـــي نحونـــا حســـداً ، وتغمرنـــا عيـــون العبهـــر [٥]

أنســـيت تـــلَّ كناســـها وظبائـــها مـــن كـــل غانيـــة شـــبيه الجـــؤذر [٦]

والبارودي ـ وهو في كريت أيام الحرب ـ يتشوق إلى مصر فيقول [٧] :

ســـرى البـــرق مصـــرياً فـــأرقني وحـــدي وأذكرنـــي مـــا لســـت أنســـاه مـــن عهـــد

فيـــا بـــرق حـــدثني ـــ وأنـــت مصـــدَّقٌ ـــ عـــن الآل والأصـــحاب مـــا فعـــلوا بعـــدي

وعـــن روضـــة المقيـــاس تجـــري خلالهـــا جـــداول يســـديها الغمـــام بمـــا يســـدي [٨]

إذا صـــافحتها الريـــح رهـــواً تجعـــدت حبائلـــها مثـــل المقـــدرة الســـرد [٩]

وإن ضـــاحكتها الشـــمس رفَّـــت كأنهـــا مناصـــل سُـــلَّت للضـــراب مـــن الغـــمد [١٠]

نعمـــت بهـــا دهـــراً ، ومـــا كـــل نعمـــة حبتـــك بهـــا الأيـــام ، إلا إلـــى الـــرَّدِّ

فواأســـفا إذ لـــيس يجـــدي تأســـف علـــى مـــا طـــواه الدهـــر مـــن عيشـــنا الرغـــد

---

[١] شطت : بعدت ، حدباء : ما أشرف من الأرض وغلظ وارتفع ، أراد منطقته .
[٢] الجوسق : القصر الصغير ، والمعنى : لكل بيت صغير أو كبير حديقة ، وهذا دلالة على جمال المكان وترف أصحابه .
[٣] النشر : الرائحة الزكية ، الخزامى : نبت طيب الرائحة واحدته خزاماة ، العرار : نبات طيب الرائحة .
[٤] المطارف : جمع مطرف وهو الثوب من الخز . العبقر : أول ما ينبت من أصول القصب ونحوه .
[٥] العبهر : النرجس .
[٦] الكناس : بيت الظباء . الجؤذر : ولد البقرة الوحشية .
[٧] ديوانه ص ١٣٤ .
[٨] روضة المقياس : جزيرة في النيل شرقي الجيزة ، سميت بذلك لوجود مقياس قديم لمياه النيل يعرف به ما يعتوره من زيادة ونقصان ، وأسدى : أعطى وأولى .
[٩] رهواً : سهلة لينة ، تجعدت : كأنها الشعر المجعد ، الحبائك : الطرائق في الماء والرمل ونحوهما ، والواحدة حبيكة . المقدرة المحبكة بإتقان أو الضيقة ، السرد : نسج الدرع .
[١٠] المناصل : جمع منصل وهو السيف ، رفت : برق لونها وتلألأ .

ويذكر إخوانه بمصر في قصيدة أخرى متشوقاً [1] فيقول :

ومـــن شـــيمي حـــب الوفـــاء ســـجية ... ومـــا خيـــر قلـــب لا يـــدوم لـــه عهـــد

ولكـــن إخوانـــــاً بمصـــر ورفقـــة ... نســـونا ، فـــلا عهـــد لـــديهم ولا وعـــد

أحـــن لهـــم شـــوقاً علـــى أن دوننـــا ... مهامِـــهَ تعيـــا دون أقربهـــا الرُّبْـــد [2]

ونرى شوقه إلى وطنه قوياً يمنعه من النوم والجلد [3] :

أراك ـــ الحمـــى ـــ شـــوقي إليـــك شـــديد ... وصـــبري ونـــومي فـــي هـــواك شـــريد

مضـــى زمـــن لـــم يـــأتني عنـــك قـــادم ... ببشـــرى ، ولـــم يعطِـــف علـــيَّ بريـــد [4]

وحيـــد مـــن الخـــلان فـــي أرض غربـــة ... ألا كـــل مـــن يـــبغي الوفـــاء وحيـــد [5]

ولا غرو أن يحن البارودي إلى مرتع صباه مادامت الخيول تحن إلى نيل مصر وتتشوق إلى مياهه العذبة [6] :

فزعـــت فرجَّـــعت الحنـــين وإنمـــا ... تحنانهـــا شـــجن مـــن الأشـــجان [7]

ذكـــرت مواردهـــا بمصـــر وأيـــن مِـــنْ ... مـــاء بمصـــر منـــازلُ الرومـــان

والـــنفس مولعـــة ـ وإن هـــي صـــادفت ... خلفـــاً ـ بـــأول صـــاحب ومكـــان [8]

فســـقى الســـماك محـــلةً ومـــقامةً ... فـــي مصـــر كـــلَّ رويـــة مرنـــان

ومن جميل تعبيره عن الغربة أن عينه ظمأى لرؤية مصر والعودة إلى مرابعها ، وينظر إلى البعيد والدموع تترقرق في عينيه ، ولكن المدى شاسع ، فهناك القفار الواسعة والبحر الشاسع، ولو كان الأمر بيده لما منعه من العودة مانع لأن حرقة الفراق لافحة [9] :

عجبـــت لعينـــي كيـــف تظمـــأ دونهـــا ... وإنســـانها فـــي لجـــة المـــاء ســـابح

أحـــن لهـــا شـــوقاً ، ودون مزارهـــا ... مســـالك يأويـــها الـــردى ومنـــادح [10]

فيـــا فٍ يضـــل الـــنجم فـــي قُـــذُفاتها ... وتظلـــع فيهـــا النائجـــات البـــوارح [11]

ولجـــة بحـــر كلمـــا هـــبَّ عاصـــف ... مـــن الـــريح دوَّى موجهـــا المتنـــاطح

---

[1] ديوانه ص ١٤٠ .
[2] الرُّب : النعام ، المهامه : جمع مهمه وهي القفار والبيد .
[3] ديوانه ص / ١٤٣ . قال هذه القصيدة في عيد الفطر وهو في حرب العثمانيين مع الروس عام / ١٨٧٧ م / .
[4] أي انقطعت الأخبار ولم يعد يأتيني خبر عنهم .
[5] في البيت إشارة إلى ندرة الخل الوفي .
[6] ديوانه ص / ٦٤٥ / .
[7] رجعت الحنين : رددته في صدرها ، والشجن : الحزن .
[8] لله در القائل : نقل فؤادك حيث شئت من الهوى ... ما الحب إلا للحبيب الأول
كم منزل في الحي يألفه الفتى ... وحنينه أبداً لأول منزل
[9] ديوانه ص / ١٠٤ / .
[10] المنادح : الأراضي الواسعة .
[11] القُذُفات : جمع قُذْفة وهي الجهة والناحية ، وتظلع : تغمز في مشيتها ، وهي مشية تشبه العرج . النائجات : الرياح الشديدة ، ويقال للريح نئيج : إذا مرت بسرعة ، والبارح : الريح الحارة في الصيف ، الشديدة البرودة في الشتاء .

فقلبـــي تحـــت الســـــرد كالنـــــار لافـــح ودمعـــي فـــوق الخـــد كالمـــاء ســـــافح

ولـــو كنـــت مطلـــوق العنـــان لمـــا ثنـــت هـــواي الفيـــافي والبحـــار الطـــوافح[1]

تاسعاً : التفجع :

غرض شعري جديد ظهر في العصر العثماني الأخير حين بدأت الخلافة تنهار على أيدي الدول الأوروبية التي اتحدت على اختلاف أهدافها ضد الدولة العثمانية ، وعلى أيدي أبنائها من العلمانيين الذين أسسوا الأحزاب غير الدينية التي أيدتها أوروبة فكان مركزها هناك ودعمها المالي وغيره منها .

كادت الدولة العثمانية تسقط أواخر القرن التاسع عشر لولا تسلم السلطان عبد الحميد الخلافة ، فأصلحها وحاول تقويتها وتثبيت دعائمها ، فما كان من الغرب إلا أن بدأ يرصد لها المشاكل في شخص الخليفة عبد الحميد ، إلى أن قام الجيش الذي تزعمه الاتحاديون بعد ثلاثين سنة من خلافته فعزله واستبدل به أخاه محمد رشاد تمهيداً لإلغاء الخلافة ، وكان فيما حصل فاجعة للخلافة للمسلمين صورها كثير من الشعراء منهم إسماعيل صبري حيث يقول[2] :

يـــا نـــاظر التـــــرك قـــد فـــارت مراجـــلهم بـــين الـــدروب وفـــي عـــرض الميـــادين [3]

قـــل للبراكـــين : كفـــى ، نحـــن فـــي شـــغل ذا اليـــــومَ عنـــــك ببركـــــان البراكـــــين [4]

هـــل الجبـــــال الرواســـي عندهـــــا خبـــر بمـــا تصـــــدَّع مـــن شُـــــمِّ العرانـــــين [5]

وهـــل رأى النســـر شـــيئاً فـــي الســـماء حكـــى مـــا هـــزَّ يلـــدز مـــن بـــأس الشـــــواهين [6]

قـــالوا لقـــد خـــرَّ مـــن صـــرح العـــلا وهـــوى ذو الســـــلطتين ورب الكـــــاف والنـــــون [7]

أهـــولِ بهـــــا صـــيحة فـــي الكـــون قاصـــفة تزلـــزل الأرض مـــــن حـــين إلـــى حـــين

وتقشعـــــرُّ لهـــــا التيجـــــان مـــــن فـــــزع فـــوق العـــروش علـــى هـــــام الخـــواقين [8]

ثم نرى الشاعر يتعجب من دعاوى الذين عملوا على عزل الخليفة فقد قالوا عنه إنه مستبد ظالم أخاف العباد .. والشاعر يعرف منه غير ذلك ، يعرف منه العدل والإنصاف والتقوى ولكن هدفهم معروف وخبأهم مكشوف ، ولكن الذئاب قد تفتك ـ لخبثها ـ بالأسود ، لكن الله تعالى يحصي كل شيء ، فإن كنت كما يقولون فأنت ملك قوي

---

[1] الطوافح : من طفح أي امتلأ بالماء .

[2] ديوان إسماعيل صبري ص / ١٧٦ ـ ١٧٧ / .

[3] فارت المراجل : كناية من الثورة .

[4] يشبه ثورة الترك ببركان عظيم ويطلب من البراكين الطبيعية الكف عن ثورانها اكتفاء بثورة البركان التركي .

[5] العرانين : مفردها العرنين ، وهو ما ارتفع من الجبال ، شبه بها مكانة السلطان عبد الحميد في علوها وقد نيل منها واستبيحت حرمتها .

[6] يلدز : اسم قصر الخليفة وتعني بالتركية (النجم) ، الشواهين : جمع شاهين وهو الصقر ، والمعنى : إن من دخلوا قصر السلطان وعزلوه صقور وصلوا النجم ونالوا منه .

[7] خرَّ : سقط ، ذو السلطتين : السلطة الدينية والسلطة الدنيوية ، الصرح : ما علا من البناء ، رب الكاف والنون (كن) : كناية عن الاستبداد ومسك زمام الأمور .

[8] الخواقين جمع خاقان وهو لقب سلطان الترك .

ذو سلطان ، وإن كنت على غير ذلك فأنت من الغر الميامين . ثم يصفه بسمو المكانة ورفعتها ، وأن الحكم الأخير الصحيح لله تعالى [1] :

إنـــا عهـــدناك لاترضـــى إذا اســـتبقت صـــيد الملـــوك إلـــى الغايـــات بالـــدون[2]

لايرهقنـــك حكـــم النـــاس فهـــو غـــداً مســـتأنف عنـــد ســـلطان الســـلاطين [3]

أما شوقي فقد أصيب بالذهول حين سمع نبأ إقالة السلطان وبدأ يعدد ما حدث للسلطان قديماً وحديثاً[4] :

ســـل يلـــدزاً ذات القصـــورهل جاءهـــا نبـــأ البـــدور

لـــو تســـتطيع إجـــابة لبكتـــك بالدمـــع الغـــزير

أخنـــى عليهـــا مـــا أنـــاخ علـــى الخورنـــق والســـدير

ذهـــب الجميـــع فـــلا القصـــور تـــرى ولا أهـــل القصـــور

ســـموه (يلـــدز) والأفـــول نهايـــة الـــنجم المنيـــر

شـــيخ الملـــوك وإن تضعضـــع فـــي الفـــؤاد وفـــي الضـــمير

نســـتغفر المـــولى لهـــوالله يعفـــو عـــن كثيـــر

ونصـــونه ونجـــلُّه بـــين الشـــماتة والنكـــير

عبـــدَ الحمـــيد حســـاب مثلـــك فـــي يـــد المـــلك الغـــفور

وهي قصيدة مؤثرة تدل على مكانة الخليفة في قلب الشاعر ، لكننا نجد ولي الدين يكن [5] يشمت بما حلَّ بالخليفة ـ على غير عادة الشعراء الملتزمين ـ فهو نصير حزب الاتحاد والترقي ، ويعارض قصيدة شوقي ويرد عليها بيتاً بيتاً [6] :

هاجتـــك خاليـــة القصـــور وشـــجتك آفلـــة البـــدور

وذكـــرت ســـكان الحمـــى ونســـيت ســـكان القبـــور

وبكيـــت بالدمـــع الغزيـــر لباعـــث الدمـــع الغزيـــر

فلتأهلَـــنْ مـــن بعدهـــا آلاف أطـــلال ودور

بعـــض النـــجوم ثوابـــت والـــبعض دائمـــة المســـير

---

[1] ديوانه ص ١٧٨ .

[2] الصيد : جمع أصيد وهو الرافع رأسه كبراً وزهواً ، وهو صفة تطلق على الملوك والأشراف .

[3] سلطان السلاطين : الله تعالى . إذا حكم عليك قومك بما لاترضاه فإن الله تعالى سيحكم بينك وبينهم يوم القيامة .

[4] ديوان شوقي ج١ ص ١١٩ .بعنوان (الانقلاب العثماني وسقوط عبد الحميد . وديوان ولي الدين يكن بعنوان (عبرة الدهر) ص ١٦ .

[5] ولي الدين يكن / ١٨٧٣ ـ ١٩٢١ م / ولد في الآستانة وجيء به إلى مصر حيث توفي والده وعمره ست سنوات ، كتب في الصحف ضد الخليفة ففاه إلى سيواس / ١٩٠٢ / ثم عاد إلى مص عام / ١٩٠٨ م / ، له عدة كتب وديوان مطبوع ، مات وهو مبتلى بالكوكائين . الأعلام ج٨ ص ١١٨ .

[6] ديوان ولي الدين يكن ص ٣٠ .

أما الشاعر محمد صادق فديوانه مليء بالألم والحسرة والتفجع على ما يجري من مصائب وويلات ، وقصيدته (أحزان الشرق) قالها في عيد الأضحى حين كانت البلاد العربية والإسلامية على أسوأ ما يكون ، ففي مصر كان الإرهاب سائداً ومحاكم التفتيش قائمة ، والزعماء مشردين ومسجونين ، وفي تركيا كانت وطأة الاحتلال في الآستانة على أشدها ، والخلافة مهددة .. وفي بغداد ودمشق والقدس كانت ملكية الشعوب قد انتقلت إلى الحلفاء باسم الانتداب وقد أقرته وقتئذ جمعية الأمم ، وفي الهند ثورة (الموبلاه) التي تدافع عن الخلافة ، والمدافع تفتك بهم فتكاً ... وكان المسلمون جميعاً غارقين في بحر من الآلام والأحزان [1] :

عـــيدَ الضـــحية إمَّـــا هِـــجت آلامـــي ... خـــلِّ الضـــحايا وخـــذ مـــن قلبـــي الـــدامي

إنـــا لنلقـــــاك ، لابشـــــر ولا فـــــرح ... فلســـت يـــا عيـــد إلا عيـــد أيتـــام

لهفـــي علـــى الشـــرق والـــويلات تقذفـــه ... فـــي كـــل ســـاحقة مـــن يمِّـــها الطـــامي

علـــى الشـــعوب ذوات المجـــد مـــن قـــدم ... أمســـى يســـاق بنـــوها ســـوق أنعـــام

مـــن كـــل ذي عـــزة أمســـى أخـــا ضَـــعَةٍ ... وكـــل ذي حرمـــة ديســـت بأقـــدام

عـــدا علـــى الشـــرق أقـــوام جبـــابرة ... مـــن كـــل عـــات شـــديد البطـــش ظـــلام

فبـــدَّل الشـــرق واندكَّـــت معالمـــه ... وأظلـــم الصبـــح فيـــه أي إظـــلام

فليـــت روحـــيَ لـــم تخفـــق بجـــارحة ... فـــلا تضـــجُّ لويـــلات وآثـــام

ســـكبت دمعـــي ولمـــا بـــتُّ ناضـــبَه ... أخـــذت أســـكب مـــن عمـــري وأيـــامي

هيـــهات يغلـــو ثمـــين فـــي محبتهـــا ... تلـــك المـــواطن أو فـــي مجـــدها الســـامي

تـــكاد تمـــلك فينـــا كـــلَّ عاطفـــة ... كأنمـــا هـــي أرواح لأجســـام

بنـــي المشـــارق هـــذا ملككـــم عبثـــت ... بـــه الليـــالي فـــأين العاصـــم الحـــامي

لـــم يبـــق فـــي الصـــرح ركـــن نســـتظل بـــه ... إلا أغـــار عليـــه ألـــف هـــدَّام

ثم يخاطب أبناء الأمة الإسلامية ويحثهم على الدفاع عن الديار وعن الخلافة الإسلامية التي هانت بعد عز ، والعرب سادرون في أحلام عابثة :

بنـــي المشـــارق هـــل مـــن يقظـــة فتـــروا ... بالعـَـــيْن مصـــرع جُهَّـــال ونـــوَّام[2]

شـــتتم الشـــمل أم قطعتمـــو رحمـــاً ... وأكبـــر الإثـــم عنـــدي قطـــع أرحـــام

وأيـــن أيـــن الحمـــى قـــد كـــان يمنعـــه ... فـــي ســـالف الـــدهر مـــنكم كـــل ضـــرغام[3]

---

[1] ديوان محمد صادق ص ١٣١ .

[2] إشارة إلى ما حلَّ بالشريف حسين حين حارب إخوانه المسلمين تحت راية الحلفاء النصارى فكافؤوه بالنفي إلى جزيرة قبرص ليموت فيها ، ونصبوا على العراق ابنه الأمير فيصل وعلى الأردن ابنه الأمير عبد الله فكانا دميتين يفعلان ما أرادوا .

[3] إشارة إلى صلاح الدين الأيوبي بطل الحروب الصليبية وغيره من أبطال المسلمين .

أبحتمـــــوه لمـــن لا يســـــتباح لهـــم ... فكـــان مـــا كـــان مـــن بغـــي وإجـــرام

يـــا دولـــة العـــرب أيـــن اليـــوم مـــا وعـــدوا ... علـــى العـــراق أنبكـــي أم علـــى الشـــام؟

كـــم فـــي فلســـطين ويـــلات مروعـــة ... تـــكاد تُبَـــدِّل أقـــوام بأقـــوام[1]

ونحـــن نلهـــو بأمـــال مجـــوَّفة ... هـــي الحمـــاقة لـــو كنـــا بأفهـــام

خـــلافة الله هـــانت بعـــد عـــزتها ... وبُدِّلَـــت ذلـــة مـــن بعـــد إكـــرام

فمـــن إبـــاء وتقديـــس إلـــى ضَـــعَة ... إلـــى هـــوان إلـــى تنكيـــس أعـــلام

وقد مرَّ معنا في غرض الهجاء ذم الشاعر للعرب الذين حاربوا الأتراك في صفوف الأعداء فخسروا الدنيا ، وضيعوا الآخرة [2] .

وفي قصيدة أخرى يبكي الشاعر بروح حزينة شفافة ما حل بسورية وغيرها حين اقتسمها الإنجليز والفرنسيون ، فبعد أن كانت بلاد الشام واحدة صارت أربعة أقسام : سورية ولبنان والأردن وفلسطين ، وأصبحت الأوليان من نصيب فرنسا والأخريان من نصيب إنجلترا التي أهدت اليهود فلسطين [3] :

هـــلا ســـمعتم نداءنـــا ... كـــم مـــن نـــداء وصـــيحةِ

إنـــي لأرثـــي انقســـامكم ... بعـــد اتفـــاق وألفـــةِ

هـــل كـــان إيـــذاء ســـورية ... إلا أذى للشـــــــــقيقةِ

أيهـــا الشـــعب لاتـــنم ... فالنـــوم أصـــل البليـــةِ

واذكـــر حقوقـــاً أضـــعتها ... ولـــتحتـــفظ بالبقيـــــةِ

وعودة إلى ديوان إسماعيل صبري لنراه يوبخ الإيطاليين الذين أظهروا عداءهم في حرب طرابلس وجفاءهم وغدرهم وجهلهم ، ثم طغوا ورموا بأساطيلهم طرابلس بوحشية وصلف [4] :

بعـــض هـــذا الجفـــاء والعـــدوان ... راقبـــي الله أمـــةَ الطليـــان [5]

قـــد مـــلأت الفضـــاء غـــدراً وجهـــلاً ... وتســـنمت غـــارب الطغيـــان [6]

وبعـــثت الســـفين ترمـــي طرابلـــ ... ـــس بحـــرب مشـــبوبة النيـــران

تخـــرق البحـــرَ والمواثيـــقَ ... والعهـــدَ ـــ جهـــاراً ـــ وذمـــةَ الجيـــران

---

[1] التاريخ يعيد نفسه ، فكأني بالشاعر يتحدث عن مآسي المسلمين في هذه الأيام ، فالمصائب كثيرة وحيثما ولى المرء وجهه رأى ما يحزن القلب ويغم النفس ، فاليهود أصبحوا سادة العالم والعرب في أيديهم ألاعيب كما قال الشاعر :
ويقضى الأمر حين تغيب تيم ... ولا يستأمرون وهم حضور

[2] ديوانه ص ١٣٥ من قصيدة (خوارج العرب والخلافة) .

[3] ديوانه ص ١٣٦ من قصيدة دمعة على سورية .

[4] ديوانه ص ١٨٣ .

[5] بعض هذا الجفاء : كلمة بعض منصوبة بفعل محذوف تقديره افعل أو اترك ، والمراد أنه لا يحتمل كل هذا .

[6] تسنم الشيء : علاه وملكه ، الغارب : العنق .

وقد مررنا على بعض أبياتها الأخرى حين تحدثنا عن الحكمة .

وهذا ولي الدين يكن الذي كان في يوم يصدق الحلفاء ويحمل على الخلافة حملة شعواء يرى الغدر من هؤلاء بعد أن وضع يده في يدهم ، ويعرف أنه كان مخدوعاً بهم ، فالعدو يبقى عدواً [١]:

مـــن أيـــن جـــدَّ اليـــوم هـــذا الخصـــام ... يـــا أمـــم الغـــرب نقضـــت الـــذمامْ [٢]

كنـــا اســـتعدنا أمـــسِ عهـــد الصـــفا ... فلـــم يـــدم أمـــسُ ولا العهـــد دامْ

كنـــا نســـينا مـــا جـــرى بيننـــا ... وكـــاد يبـــدو فـــي الجـــراح التيـــام [٣]

واســـتجمعت فـــي الصـــفو أهواؤنـــا ... وعـــادت الوصـــلة بعـــد انصـــرام

أريتنـــا فـــي الـــودِّ معنـــى الجفـــا ... وجئتنـــا بـــالحرب بعـــد الســـلام [٤]

اختـــلف التســـليم فيمـــا بيننـــا ... يـــدٌ تحيِّـــي ويـــدٌ فـــب الحســـام

لا تبســـمي مـــن بعـــد هـــذا لنـــا ... قـــد غرَّنـــا فيمـــا مضـــى الابتـــسامْ

أما الرصافي فقد رأيناه في رثاء المدن كيف بكى حرَّ البكاء على أدرنة وأهلها ووصف مصابها الأليم وتفجع على حالها ، ثم استنهض المسلمين للدفاع عن بلادهم ودينهم بالعلم والفهم [٥] .

ونراه يتألم لما جرى على أهل برقة من دمار وإبادة في حين وقف المسلمون لضعف أسطولهم مكتوفي الأيدي لا يحسنوا التصرف [٦] :

يعـــزُّ علينـــا أهـــلَ برقـــة أنـــكم ... تـــدور عليـــكم بالـــدمار رحـــى الحـــرب

وأنـــا إذا مـــا تســـتغيثون لـــم نجـــد ... إليـــكم علـــى بعـــد المســـافة مـــن درب

ولكـــن هـــو البحـــر الـــذي حـــال بيننـــا ... فلـــم نســـتطع زحفـــاً علـــى الضـــمر القـــبِّ

أمـــا والعـــلا يـــا أرضَ برقـــةَ إننـــا ... لنشـــرق مـــن جـــرَّاك بالبـــارد العـــذب

نـــراك علـــى بعـــدٍ تـُـــسامين ذلـــةً ... فيحزننـــا أن لـــم نكـــن منـــك بـــالقرب

ولكن إن كان للأفراد عذر ـ وليس لهم عذر ـ فلا عذر أبداً لمن تسنَّم الأمر فخان الأمانة وكان عوناً للأعداء على أمته أو سكت سكوت الذليل وباء بشرٍ وبيل .

عاشراً : النصح والإرشاد والحث على النهوض :

---

[١] ديوانه ص / ٤٨ / بعنوان (حرب طرابلس الغرب) .

[٢] ومتى كان النصارى أهل ودٍّ أو ذمام ؟ يقول الله تعالى في سورة التوبة الآية / ١٠ / :{ لا يرقبون في مؤمن إلاً ولا ذمة وأولئك هم المعتدون }

[٣] لأم الجرح : سده والتيام : مخففة من التئام .

[٤] وهذا دأبهم : يعطيك من طرف اللسان حلاوة ... ويروغ منك كما يروغ الثعلب

[٥] ديوانه ص ٤٨ (في رثاء أدرنة) .

[٦] ديوانه ص / ٤٧٩ ـ ٤٨٠ / .

لكل امرئ علت منزلته أو سفلت بطانتان : الأولى تأمره بالخير وتفتح له آفاقه ، والثانية تأمره بالشر وتزينه له .

والشعراء المحبون لدينهم وأوطانهم ويتحملون مسؤولياتهم من النوع الأول ، وهذا الشاعر أحمد الكاشف يرى / غليوم / امبراطور ألمانيا في دار الخلافة يعد الخليفة بالمساعدة والعون ضد الإيطاليين والروس واليونان ، وهو يعلم علم اليقين أن الامبراطور يعد نفسه لاغيرها.. والخليفة يستمع إليه وربما صدقه ، فيكون دور الشاعرتنبيهه إلى مكائد أعداء الوطن والدين [١] :

أهـــلاً بـــودك قيصـــرَ الألمـــانِ ... لـــو أن ودك نـــافع الســـلطانِ

ومبـــاركاً إحســـانه بـــك ظنـــه ... لـــو تســـتحقُّ حـــلاوة الإحســـانِ

ألهيتـــَه زمنـــاً بقـــولك خـــادعاً ... فـــي ذمتـــي هـــذا الحمـــى وضـــماني

وعلـــيَّ أن أحمـــي بصـــولة أمتـــي ... شـــرف الهـــلال وأمـــة القـــرآن [٢]

يـــا قيصـــر الألمـــان أدركنـــا فقـــد ... آلـــت (كريـــد) إلـــى الفتـــى اليونـــاني [٣]

أنســـيت عهـــداً للإمـــام وموثقـــاً ... مـــا كـــان هـــذا الخطـــب فـــي الحســـبان

وا حســـرتاه علـــى كنـــوز أنفقـــت ... فـــي زَوْرتـــيك منـــيعة الأركـــان [٤]

تكفـــي لميـــرة عســـكر وذخيـــرة ... عامـــين والأعـــداء فـــي المـــيدان

لـــو يبلـــغ الســـلطان نصـــحي لـــم تطـــأ ... يومـــاً لمثـــلك أرضـــه قـــدمان

وقد يأتي النصح والإرشاد بالتوبيخ بما يشبه الوخز ، فشاعرنا الكاشف يرى في بداية الأمر الحلفاء يفرون أمام ألمانيا ، ويرى العثمانيين يفرحون ويشدون بالنصر ، فهل هم الذين حققوه ؟ إنهم لم يفعلوا شيئاً ، لكن أمتنا اعتادت أن ترفع من قدر حكامها ولو كانوا ضعافاً ظالمين ، فإن كان هذا الأمر حتماً لازماً فليس لنا إلا أن ندعو الله أن يرزقنا بحاكم حازم ، عامل برأيه ، يعرف لكل حقه[٥]:

مـــاذا اســـتفدنا مـــن هـــزائم العـــدى ... ونحـــن لـــم نمـــدد إلـــى المجـــد يـــدا ؟

ممـــالك المشـــرق منـــذ القـــدم ... تعتـــز بالمـــلوك لا بالأمـــم

فمـــن لنـــا بمســـتبد عـــادل ... يســـير فينـــا ســـيرة الأوائـــل

---

[١] ديوان الكاشف ص / ١٢٩ ـ ١٣٠ / ، القصيدة بعنوان (غليوم في دار الخلافة) .

[٢] ولن يحمي النصارى المسلمين ، وهل يحمي العدو عدوه ؟ قال تعالى : { ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم .. } البقرة الآية ١٢٠ .

[٣] كريد : هي نفسها جزيرة كريت .

[٤] زرت قاعة التشريفات في استنبول في قصر (دولمه باغجة) فقال القيِّم على القصر : إن النار أوقدت يومين متتاليين قبل مجيء غليوم حتى يكون الجو دافئاً .

[٥] ديوان الكاشف ص ١٧٩ .

وفي رثاء أدرنة يستنهض الرصافي المسلمين ، فكل الأمم نهضت من سباتها العميق وجرعتنا الذلَّ والعلقم ، ولن نكون في مصافهم أو مقدمتهم ، ولن يدفع عنا كيدهم سوى التسلح بالعلم ومنافستهم في كل مجال ، وتوحيد الصفوف قلباً وقالباً [1] :

أرى الـــدهر أنهـــض كـــل العِـــدا ... علـــى حـــينَ قـــد قعـــد المســـلمون

فكـــم جرعـــونا كـــؤوس الـــردى ... ونحـــن علـــى كيـــدهم صـــابرون

أيحســـــن ياقـــومُ أن نقعـــدا ... وقـــد آن أن يـــنهض القاعـــدون

لقـــد آن يـــا قـــوم تـــرك الـــونى ... وتـــرك الشـــقاق وتـــرك الـــدَّد

إلـــى كـــم نكـــابد هـــذا العَـــنا ... ونخـــبط فـــي جهلنـــا الأســـود

وبـــالعلم مـــن قبـــلُ نلنـــا المنـــى ... وفزنـــا مـــن العيـــش بالأرغـــد

ولكنـــما العلـــمُ قـــد غربـــا ... فـــلا عيـــش إلا إذا شـــرقا

فهبـــوا إليـــه هبـــوب الصبـــا ... عســـى أن يســـح ويغدودقـــا

ويرى الشيخ إبراهيم المسكوبي [2] الإيطاليين يحتلون ليبيا عام / ١٩١٢ م / ويرى الأتراك يتخاذلون عن نصرتها فيصرخ من قلب مكلوم حين رأى مستقبل أمته مهدداً بالخطر والزوال فنبه إلى مكامن الداء وحدد طرق العلاج ، فجمعية الاتحاد والترقي حين عزلت السلطان عبد الحميد أصبحت من بعده ألعوبة بأيدي الغرب لاحول لها ولا قوة .. ويأمر المسلمين ألا يغتروا بالأوروبيين ووعودهم فهم أعداء لنا ، يغتنمون الفرص للنيل منا [3] :

يـــا آل عثمـــان فـــالمغرور مـــن غـــرَّا ... بأهـــل أوربـــة أو عهدهـــم طـــرَّا [4]

أتأمنـــــون لموتـــورين ، ديدنـــهم ... ألا يـــروا مـــنكُمُ فـــوق الثـــرى حُـــرَّا [5]

أتركنـــون لمـــن دبَّ الضـــراء لـــكم ... ومـــدَّ عنـــقاً يغـــادي ســـرحكم عقـــرا [6]

دون الدنيـــة إيثـــار المنيـــة فـــي ... قـــوم مـــن الـــبغض ودوا محـــوكم مكـــرا

لقد ملك الأجداد الدنيا بالدين ، فلما جاء أحفادهم يجترئون عليه فاسدة أخلاقهم سيئة طوياتهم رجعوا إلى الوراء وأذلهم أعداؤهم وبغوا عليهم :

فتحتـــــمُ بكتـــــاب الله أرضهُـــــمُ ... فأصـــبحت بكُـــمُ مـــن رجســـها طـــهْرا

---

[1] ديوانه ص / ٤٨٦ ـ ٤٨٧ / .

[2] فقيه العربية وشاعرها إبراهيم بن حسن بن حسين / ١٢٦٩ ـ ١٣٣٢ هـ / عدَّه العامودي في كتابه (من تاريخنا) ص / ٢٢٥ / على رأس الشعراء الحجازيين في أواخر العصر العثماني .

[3] من كتاب ٠ الشعر الحديث في الحجاز) الصفحات / ١٦٨ ـ ١٦٩ ـ ١٧١ / .

[4] الطُّرُّ : الجانب والناحية ، والمقصود : لاتغتروا بهم ولا تأمنوا لهم ولو بشيء قليل .

[5] الموتور : صاحب الثأر ، ديدنهم : عادتهم ودأبهم ،

[6] ركن إليه : سكن وأمن ، دب الضراء : سار رويداً يريد ضركم وأذاكم ، السرح : الماشية ، عقر : بقر وقطع ، يغادي : يباكر يباكر ، والمعنى : هؤلاء الأعداء ينتظرون فرصة سانحة توقع الأذى والضرر و تودي بكم .

ثـمَّ اجترأتـــم علـى الـدين القـويم بمـا ... يســـوؤه بـدعاً كـادت تُـــرى كفـرا

وحينمـــا انتبهـــت أعـــداؤكم لكُـــمُ ... مســـلحين يدكُّـــون الدنـــــا زأرا

رجعتـــمُ القهقـــرى عـــنهم مداهنـــة ... فـــزاد طغيانـــهم مـــن بعـــد ذا كِبْـرا

عقائـــد فســـدت فـــيكم فافســـدت الـــ ... ملـــك العظـــيم وافتســـت فـــيكم الـــدعرا

ثم ينصح الشاعر العثمانيين أن يعودوا إلى الالتزام بالدين القويم والحكم بشريعة الله الغراء ، فإن فعلوا ذلك كان النصر حليفهم ، لاسيما إن تسلحوا بأمرين اثنين :

الانتصار بالله والتدرب على السلاح وصنعه :

ظننتـــــمُ أن ديـــــن الله أخركـــــم ... عـنهم وهـم حمـدوا كفـراً بـه المسـرى

لا تظلمـــوا رحمـــة للعـــالمين أتـــت ... هـدت إلـى حكـــم عظمـى جـرت نَهَـرا

فلـــو عملـــتم بهـــا مـــا فـــاتكم أحـــد ... ســـبقاً ولا أحـــد يومـــاً بكـــم أزرى

نعـــــم الشـــــفاء بقـــرآن الإلـــه إذا ... قبَّلتمـــــوه وإلا فاســـــكنوا القبـــــرا

إن تنصـــروا الله ينصـــركم فكـــم فئـــة ... قلـــيلة غلبـــت أضعافـــها كثـــــرا

مســـلحين بمـــا وافـــى العـــدو لـــه ... مـــن الســـلاح وأن توفـــوا لـــه الصـــبرا

فرخصـــوا لجميـــع المســـلمين بـــه ... بـل اكشـــفوا لهـم عـن صـنعه الســترا

نصـــيحة حثهـــا النصـــر المبـــين لكـــم ... عســـى عســـى بعـدها أن تنفـع الـذكرى

وقد رأينا محمداً العمري يلوم الأعراب من بني حرب حين انضمت إلى ثورة الشريف حسين ـ في قسم الهجاء ـ وهنا نراه يعمل على فتح العيون على البريطانيين الذين أذاقوا الأمم الإسلامية وغيرها الويلات ، ويحذر منهم ومن أمثالهم [1] :

فقـــل لـــي متـــى وفـــتَّ بعهـــد لحـــاكم ... فهـــل هـــو إلا العهـــد مـــن بعـــده الغصـــب

فتلـــك ملـــوك الهنـــد تنعـــى عروشـــها ... وهـــذي شـــيوخ العـــرب أدمعهـــا ســـكب

وقد مر معنا الشاعر أمين ناصر الدين ينصح ببناء أسطول قوي يدافع عن الثغور ويحمي البلاد ويمنع الطامعين أن يقتربوا من السواحل الإسلامية [2] .

ونراه في قصيدته (إلى الجندي العثماني) ينبهه إلى مكر الأعادي ، وإذكائهم نار الحرب، ويطالبه بالدفاع عن العاصمة ، والثبات في القتال [3] :

---

[1] من كتاب (الشعر الحديث في الحجاز) ص / ١٧٩ / .
[2] ديوانه ص / ١٣٨ / .
[3] ديوانه ص / ٨٧ / .

لقـــد أذكـــى الأعـــادي نـــار حـــرب فخـــض غمراتهـــا واحـــمِ الربوعـــا

وقاتـــل فـــي المعـــارك مســـتميتاً وحيـــث مضـــيت لا تبـــغ الرجوعـــا

ودافـــع عـــن (فـــرَوق) ككـــل قـــرِمٍ يكـــون لـــكل نائبـــة دفـــوعا

ولا تجـــزع لحـــادثة فإنـــي رأيـــت اللـــيث لا يبـــدو جزوعـــا

وقد مررنا كثيراً على شعر شوقي في الحكمة ينصح ويسدد ويرشد ويعلِّم ، وفي ديوانه نجد الكثير وما ذكرناه يفي بالغرض .

أحد عشر : التأريخ الشعري :

التأريخ الشعري : ضبط تاريخ واقعة ما بكلمة أو عبارة يكون مجموع حروفها على حساب الجُمَّل مساوياً للعام الهجري الذي حدثت فيه هذه الحادثة [١] ، على أن يقدم الشاعر كلمة (أرخ) أو ما يفيد هذا المعنى من غير فصل بينها وبين الكلمات المعنية بالتأريخ ، ومن غير تعقيد أو غموض ، وأحسنه ما كان منسجم اللفظ مؤتلف المعنى خالياً من التكلف والتعسف [٢] .

وقد اصطلح على تقويم الحروف الأبجدية في حساب الجُمَّل وفق ما يلي :

الترتيب الأبجدي : (أبجد ـ هوز ـ حطي ـ كلمن ـ سعفص ـ قرشت ـ ثخذ ـ ضظغ) . أما قيمتها العددية فهي كما يلي :

أ	ب	ج	د	هـ	و	ز	ح	ط	ي	ك	ل	م	ن
١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩	١٠	٢٠	٣٠	٤٠	٥٠
س	ع	ف	ص	ق	ر	ش	ت	ث	خ	ذ	ض	ظ	غ
٦٠	٧٠	٨٠	٩٠	١٠٠	٢٠٠	٣٠٠	٤٠٠	٥٠٠	٦٠٠	٧٠٠	٨٠٠	٩٠٠	١٠٠٠

والمغاربة يخالفون في ترتيب الكلمات التي بعد (كلمن) فيجعلونها : صعفض ، قرست ، ثخذ ، ظغش) .

وقد انتشر هذا الفن في الشعر والنثر إذ كانوا يتفننون في هذا الباب ، فلكل حادث تأريخ في آخر شطر من القصيدة ، ولكل علم تأريخ [٣] .

---

[١] العصر العثماني ص ٧٨ . والحركة الشعرية في حلب في القرن الحادي عشر الهجري رسالة دكتوراه بقلم الدكتورة . زينب بيره جكلي ص / ٢٤٣ / .

[٢] الشعر الحجازي ص / ٨٥٤ / ، والحركة الشعرية في حلب ص / ٢٤٣ / .

[٣] العصر العثماني ص / ٧٨ / .

أما أشهر الشعراء الذين أكثروا من هذا الفن حتى غدا عنده غرضاً قائماً بذاته فهوالشاعر(البهلول) عبد الرحمن بن محمد الشاكر المتوفى / ١١٦٣هـ / [١] فقد ذكر أنه خص أستاذه الشيخ عبد الغني النابلسي بمدحة مطولة مؤلفة من ثمانية ومئة بيت ، كل منها يحمل تأريخاً واحداً هو سنة / ١١٣٦ هـ / [٢].

وجدير بالذكر أن فن التأريخ بحساب الجُمَّل قد استخدم في بعض اللغات القديمة ، وما زال يستخدم حتى العصر الحديث ، يؤكد ذلك ما ورد في معجم (لاروس) باللغة الفرنسية إذ ورد فيه ما يلي : تمثل الأرقام الرومانية في الحروف التالية :

(I ,V ,X , L , C , D , M) الأعداد التالية (١ ، ٥ ، ١٠ ، ٥٠ ، ١٠٠ ، ٥٠٠ ، ١٠٠٠)

وتحسب سائر الأرقام بالاعتماد على هذه الحروف بالزيادة يميناً والنقص يساراً [٣] .

وقد مرَّ معنا العديد من القصائد التي أرخ فيها الشعراء الواقعة التي أرادوا تخليدها منها قصيدة للشاعر محمد العرضي في مدح شيخ الإسلام مصطفى بابي زادة يهنئه فيها بفتح (ينوه)على يد الصدر الأعظم محمد الكوبريلي ، في الباب الأول (المديح) من هذا البحث ، والتي مطلعها :

قبـــول يـــرود ويتلـــوه نجـــح وأيـــد لتســـآل قصـــد تلـــح [٤]

وفيها يقول :

فللـــه فتـــح مبيـــن إذاً ومـــا هـــو إلا مـــن الله مـــنح

لـــذا أنشـــأ الحـــال تاريخـــه لنصـــر مـــن الله حـــم وفـــتح "

والشطر الثاني في حساب الجُمَّل يعادل التاريخ الهجري١٠٦٨ وهو سنة فتح " ينوه".

ومنها أبيات ابن الحنبلي الذي أرخ فتح تبريز على عهد سليمان القانوني بن سليم الأول [٥] :

ملـــك ســـليمان عـــز ناصـــره مَيـــز بالمجـــد فضـــل تمييـــز

ثـــم بعـــون المليـــك نـــال العـــلا إذ قهـــر الضـــدَّ قهـــر تعجيـــز

مشـــتهراً أن حـــدَّ صـــارمه قـــد ملـــك الفـــرس ملـــك تنجيـــز

ينشـــد مـــن رام أن يؤرخـــه " زد لســـليمان ملـــك تبريـــز "

وهذه العبارة توافق في حساب الجمل سنة ٩٤١ هـ وهي السنة التي فتحت فيها تبريز

---

[١] العصر العثماني ص / ٧٩ / . وسلك الدرر ج٢ ص / ٣١٠ ـ ٣١٧ / .

[٢] العصر العثماني ، ذكر الدكتور أحمد عزت عبد الكريم محقق(حوادث دمشق اليومية) أن القصيدة المذكورة موجودة في كتاب (لبنان في عهد الأمراء الشهابيين) للأمير حيدر الشهابي القسم الأول ص / ٢٢ ـ ٢٨ / .

[٣] العصر العثماني ص / ٨١ / .

[٤] خلاصة الأثر ج ص ٩٤ . والبحث ص / ٥٥ / .

[٥] در الحبب ص ٩٥ ، والبحث ص ٩٥ .

ومنها قصيدة القاضي المكي الذي مدح الخليفة مراداً الرابع حين فتح بغداد واستشهد في هذا الفتح الصدر الأعظم محمد الكوبريلي الطيار سنة / ١٠٤٨ هـ / فقد قال [١] :

خليفـــــــة الله مـــــــــراد غـــــــزا　　قلعـــــــــة بغـــــــداد فأرداهـــــــا

إلى قوله :

فلتشـــــرحنَّ فعـــــل مـــــراد بهـــــا　　مؤرخـــــاً " قـــــد ذبـــــحَ الشـــــاها "

فحروف الشطر الأخير تقابل التاريخ الذي فتحت بغداد فيه .

ومنها ما قاله الشاعر خليل البصير مؤرخاً معركة الموصل بقيادة الوزير حسين الجليلي ضد ملك الصفويين نادر شاه في قصيدته التي مطلعها [٢] :

كفـــى الله اهـــل الموصـــل الشـــر إذ اتـــى　　عـــدو لهـــم مـــن جانـــب الشـــرق نـــاهض

إلى أن يقول :

فلمـــــــا أزال الله عنـــــــا شـــــــعوبهم　　بتوفيقـــــه أرَّخـــــت : " زال الـــــروافض "

وهذه العبارة تناسب التاريخ الذي حدثت فيه الموقعة وهو سنة / ١١٥٦ هـ / .

القديم والجديد في الأغراض الشعرية :

العصور الأدبية ليست منفصلة عن بعضها لأنها تصوير لحياة الإنسان الممتدة والمتواصلة ، يتأثر فيها الخلف بالسلف ، فيحمل كثيراً من خصائصه وميزاته ، إلا أنه في الوقت نفسه يتسم بسمات يمتاز بها عمن سبقه بسبب عوامل كثيرة : اجتماعية وثقافية وسياسية .

والشعر العربي في العصر العثماني كغيره من العصور الأدبية فيه أغراض شعرية قديمة كالمدح والفخر والهجاء والرثاء والوصف والحكمة ، وفيه أغراض شعرية جديدة كالنزعة الإسلامية والتأريخ الشعري .

كما أننا نرى في القديم كثيراً من سمات التجديد ، فليس القديم قديماً كله ، فقد كان المديح قديماً يقتصر على الخلفاء والأمراء ووجوه الناس ، إلا أننا وجدنا ـ في شعر الفتوح في هذا العصر ـ مديحاً للجنود وللنساء المقاتلات وللمجاهدين من كبار السن ، ولعامة الناس ممن وقفوا سداً منيعاً أمام هجمات الأعداء .

وكان الفخر بالقوة والشجاعة والمال ، فرأيناه هنا ـ بالإضافة إلى ذلك ـ فخراً بثبات الأمة الإسلامية أمام الغزاة والانتماء إلى أمة الإسلام أنى كانت .

---

[١] خلاصة الأثر ج٤ ص ٣٢٩ ، والبحث ص ٩٨ .
[٢] سلك الدرر ج٢ ص١٠٢ والبحث ص ١٠٢ .

وكان الرثاء وصفاً لمآثر الأموات ، وحسرة على فقدهم ، وبكاء على المدن ، إلا أننا نرى من الجديد في هذا الشعر التفجع على الأمة المنكوبة والإشارة إلى ضياع معالم الإسلام وشعائره في البلدان الإسلامية التي احتلها النصارى .

أما الوصف فقد كان امتداداً للوصف القديم ، إذ كان الشاعر يصف ما تقع عليه عيناه أثناء الحروب من مآس تتمثل في وصف الجيوش والسلاح والقتل والإبادة والدماء و هرب الأعداء .. لكن الجديد في وصف الأسلحة المتطورة من سفن حربية ضخمة وبوارج وقنابل ومدافع .. كما نرى وصف أغوار النفس البشرية المنهزمة في أسلوب كاريكاتيري ساخر .

وفي الهجاء ـ وهو غرض شعري قديم يذكر الشاعر المثالب ويعدد العيوب الخُلُقية والخَلْقية ، ونرى الجديد متمثلاً في السخرية والتأنيب والتوبيخ ، وأحياناً في الهمز واللمز ، ونجد هجاء المتبلدين من خونة الأتراك والعرب ، وقد يصل الهجاء إلى استعمال الألفاظ النابية والكلمات التي يندى لها الجبين خجلاً .

أما الحكمة ـ وهي من أقدم الأغراض الشعرية ـ فلم تخل منها قصيدة ، إلا أن الجديد كان في إفراد قصائد كاملة لها .

أما الجديد من الأغراض فيتمثل في :

النزعة الإسلامية : إن للسلطان سليم الأول شعراً يؤكد إسلامية الدولة ، وكذلك لابنه سليمان القانوني ولجدهما الفاتح [1] ، وعلى هذا المنوال سلك الشعراء ، فرأينا في شعرهم اعتزازاً بالانتماء إلى الإسلام متجلياً في الدفاع عن الخلافة ، والشعور بالوحدة الإسلامية عرباً وأتراكاً وفرساً وهنوداً ... والفرح لانتصار المسلمين ، والأسى لخسارتهم .

وعلى الرغم من أن هذه النزعة كانت موجودة عند الشعراء القدامى إلا أن الاهتمام البالغ بها والروح الوثابة عندهم جعلتها ـ في ظني ـ غرضاً جديداً .

التأريخ الشعري : غرض جديد ظهر في أوائل القرن الثاني عشر الهجري على يد الشاعر (البهلول عبد الرحمن بن محمد الشاكر) ثم شاع وانتشر بين الشعراء ، وقد سبق أن تعرضنا للحديث عنه وذكرنا الأمثلة الوافية عليه ، وهو يدل على براعة لا تخلو من تكلف واضح وإن كان ممتعاً .

[1] سبق ذكر بعض هذه الأشعار في مقدمة هذا البح في الصفحات (٩ـ١٠ـ١١)

الباب الثاني

الدراسة الفنية النقدية

تمهيد :

من الغريب أن دارسي تاريخ الأدب العربي حين قسموا الأدب العربي إلى العصور (الجاهلي وصدر الإسلام وعصر بني أمية والعصر العباسي بشقيه الأول والثاني والعصر المملوكي والعصر العثماني والعصر الحديث) درجوا في تقسيماتهم هذه على الاهتمام بالعصور كلها دراسة وتمحيصاً إلا العصرين المملوكي والعثماني ، فإذا قلنا إن العصر المملوكي نال شيئاً يسيراً من اهتماماتهم فإنني أكاد أجزم أن الأدب العربي في العصر العثماني كان مهملاً ، ولعلي لا أكون مبالغاً إن زعمت أنهم أغفلوه تماماً .. وإغفالهم أدب هذا العصر الذي دام أربعة قرون ، وإهمالهم للأدب في العصر الذي سبقه (المملوكي) يُعَدُّ شرخاً كبيراً .. فالدارس حين يتجاوز سبع مائة عام ـ تقريباً ـ تكون دراسته مبتورة وأحكامه قاصرة .

فإذا تساءلنا عن سبب هذه القفزة الهائلة من العصر العباسي إلى العصر الحديث ، فإنني بعد دراستي المتأنية لأدب العصر العثماني أصل إلى مايلي :

ـ على الرغم من أن الأدب العثماني ـ وخاصة الشعر ـ اهتم بأغراض محدودة ـ في غالب الأحيان ـ كالإخوانيات التي تتصل بالعلاقات بين الناس من تهنئة وتعزية ، وشوق وعتاب [1].. فإنَّ الأدب الديني الذي يدور حول مدح النبي ﷺ وبروز الدعوة إلى الأخلاق الإسلامية فيه [2] يزهِّد في دراسته ويغري بإغفاله ، هذا إذا عرفنا أن رواد دراسة الأدب العربي بتقسيماته هذه من المستشرقين أمثال : بروكلمان .. ومن نصارى العرب وعلى رأسهم جورجي زيدان .

ـ إن أوروبا عانت على مدى قرون عديدة من انتصارات العثمانيين المسلمين على أراضيها ، وخسرت القسطنطينية التي فتحها العثمانيون ، وبعد أن كانت عاصمتهم الدينية أصبحت عاصمة الخلافة الإسلامية ، وبسط هؤلاء سلطانهم على شرق أوروبا ووصلوا إلى أبواب روما وأسوار فيينا ، وحاصروا موسكو ، فكان الشعر الذي مجَّد هذه الفتوحات شوكة في حلوقهم أرادوا تناسيها وإغفالها .

ولهذا وغيره ادَّعوا أن الأدب في العصر العثماني كان سطحياً في أفكاره ، تقليدياً في أخيلته ، لا ابتكار فيه ، ونحن لا ندعي أن الأدب كان قوياً في هذا العصر قوته في العصرين الأموي والعباسي ، لكننا نقر أن فيه الغثَّ والسمين ، وأن سمينه أكثر من غثه بكثير ، على عكس ما يدعيه من لم يدرسه وتابع رأي أصحاب الأغراض السيئة عن قصد أو دونما قصد .

---

[1] كتاب الأدب والنصوص للصف الثالث الثانوي بدولة الإمارات العربية المتحدة ص ١٨ .

[2] عودة إلى أمهات الكتب التي اعتمدت عليها في دراستي هذه والتي ذكرتها في مقدمة الكتاب توضح غزارة هذا المنحى ، فما من شاعر إلا ومدح رسول الله ﷺ بأكثر من قصيدة ، وكانت الأغراض الشعرية على اختلافها تستمد من معين واحد هو الأخلاق الإسلامية والسمات الدينية .

وفي دراستنا الفنية لعديد من النصوص سوف نثبت ـ إن شاء الله ـ ما قررناه من رقي في الشعر العربي الذي صوَّر حروب العثمانيين وفتوحاتهم ، ونشد على أيدي الدارسين المنصفين من أبناء العربية ومحبيها ، ونشجعهم على دراسة أدب هذا العصر بتجرد ونزاهة .

ومن المؤسف أن نرى دارسي الأدب في العصر العثماني الأخير حين وجدوا أدباء وشعراء ارتفعوا بمستواه وجددوا شبابه ، عدُّوا أدبهم هذا من الأدب الحديث الذي جعلوه يبدأ من دخول نابليون بونابرت إلى مصر ، وبدء حكم محمد علي باشا فيها [1] على الرغم من :

ـ أن دخول بونابرت إلى بلادنا لم يكن له علاقة في تطورالأدب من قريب ولا بعيد

ـ أن ظهور محمد علي باشا كان ظهوراً سياسياً عسكرياً ، وكان اهتمامه بالاقتصاد والقوة الحربية لا باللغة العربية ، فهو من ألبانيا ، ولغته العربية ضعيفة .

ـ وأن الشعراء العرب من مصر وغيرها كان ولاؤهم للخلافة العثمانية وفخرهم بالانتماء إليها ـ وهذا ما رأيناه ولمسناه في شعرهم الذي مرَّ في البابين الأول والثاني ـ فرحوا لانتصاراتها وتغنوا بأمجادها ، وحزنوا لانكسارها وبكوا لانفراط عقدها .

وقد تتبعت كتب الأدب علني أحظى بشيء من الحديث عن أدب هذا العصر فوجدت ما يلي :

١ـ كتاب تاريخ الأدب العربي لأحمد حسن الزيات : لا يشير إلى هذا العصر من قريب ولا بعيد .

٢ـ كتاب تاريخ الأدب العربي لجورجي زيدان أغفل هذا العصر وتناساه .

٣ـ كتاب تاريخ الأدب العربي لبروكلمان : ينهي الجزء الخامس سنة / ٦٥٦ / للهجرة حين سقطت بغداد بيد المغول .

٤ـ تاريخ الأدب العربي لحنا الفاخوري : أغفلهم .

٥ـ كتاب تاريخ الأدب العربي لعمر فروخ : ينتهي في جزئه السادس عند:أخبار أهل المغرب والأندلس من القرن السابع إلى أواسط القرن العاشر الهجري .

٦ـ تاريخ الأدب العربي لمصطفى صادق الرافعي : يؤرخ للأدب حتى نهاية العصر الأندلسي .

[1] تاريخ الأدب العربي : أحمد حسن الزيات ص ٤٨١ .

ولكي أقدم لمتتبع الشعر العربي في العصر العثماني صورة واضحة لمستواه الفني في أغراضه المتعددة ضمن شعر الحروب ، فقد اخترت بعض القصائد التي تتفاوت في الجودة فكراً وعاطفة وتصويراً وأسلوباً ولتكون انطباعاً عنه قريباً إلى الحقيقة .. والله المستعان .

القصيدة الأولى :

قال الشاعر فيض الله بن أحمد القاف قاضي العسكر يمدح السلطان مراد بن سليم بقصيدة يذكر فيها فتح مدينة تبريز [1] على يد جيش أرسله بقيادة الصدر الأعظم عثمان باشا

ـ أ ـ

١ ــ لله درُّ جيــوش الــروم إذ ظهــروا ... علــى الــروافض قــد صــارت بهــم عبــر

٣ ــ فالنــاس تجــأر للرحمــن مــن يدهــم ... والله يســمع منهــم كلمــا جــأروا

٤ ــ أتــت إليهــم جيــوش الــروم يقدمهــا ... مــن بأســها المنــذران :الخــوف والحــذر

٢ ــ كــم أبدعــوا بــدعاً ســبَّاً ومظلمــة ... لهــم قلــوب يحــاكي لينهــا الحجــر

ـ ب ـ

٥ ــ وعنــدما اقتــرب الجــيش العرمــرم مــن ... تبريــز ، ثــمَّ بــدا فــي ذاتهــم خــور

٦ ــ فشــجعوا أنفســاً منهــم قــد امــتلآت ... جبنــاً ، وقــد طاشــت الأحــلام والفكــر

٧ ــ ظنُّــوا بــأنَّ الليــالي نحوهــم نظــرت ... فأخطــأ الظــنُّ لمَّــا أخطــأ النظــر

٨ ــ وأمَّــلوا سَــحَراً مــن ليــل كربهــم ... فلــم يكــن لدجــى أوصابهــم سَــحَر

٩ ــ لمَّــا رأى بأســنا حمــر الــرؤوس إذاً ... فــرُّوا كمــا فــرَّمن أسْــدِ الشــربالحُمُر

١٠ــ قلــوبهم خشــيت ، أبصارهــم عميــت ... شــاهت وجــوههم خوفــاً وقــد خســروا

ـ ج ـ

١١ــ ســطوا بهــم ، فتراهــم ذا يفــرُّ وذا ... عــانٍ أســيرٌ وذا فــي التــرب منعفــر

١٢ــ والنقــع ليــل بهيــم ، لا نجــوم بــه ... تلــوح للعــين إلا البيــض والسُــمُر

١٣ــ فــالبيض فــي يــدهم صــارت صــوالجة ... والأرؤس الحمــر فيمــا بينهــم أُكُــرُ

١٤ــ كأنمــا الســمع مغنــاطيس أنفســهم ... فحيــث مــالت تــرى الأرواح تنتثــر

١٥ــ ذوت ريــاض أمانيهــم فــلا ثمــر ... يلــوح فيهــا ، ولا فــي دوحهــا ثــمَر

[1] سبق التعريف بالشاعر وقائد الجيش والقصيدة في الباب الأول من الرسالة ص / ٩٠ / .

١٦ــ وللفــرار إلــى الأقطـــار قــد نفـروا ومالهـــم معشـــرٌ فيهـــا ، ولا نفـــر

١٧ــ فأصـــبحوا لاتـــرى إلا مســـاكنهم وقــد خلــت ، مــا بهـــا عيـــنٌ ولا أثــر

١٨ــ وتخـت تبريـز نـادى وهـو مبـتهج : هـــذا الزمـــان الـــذي قـــد كنـــت أنتظـــر

ـ د ـ

١٩ــ فيـا مليكـــاً لـه كـل الملـــوك غـدت تـــدين طوعـــاً وتـــأتي وهـــي تعتـــذر

٢٠ــ ســروامللك الأرض والــدنيا فأنــت إذا اســكندر العصــر قــد وافــى بـــه الخضــر

٢١ــ فيالهـــا نعمـــة آثـــار مفخرهـــا كانـــت لدولتـــه الغـــرَّاء تُدَّخـــر

٢٢ــ ظـلُّ الإلــه ـ مـرادُ الله قـــد شـرُفَت بـــه المنـــابر والتيجـــان والسُّـــرُرُ

٢٣ــ أجـلُّ مَـنْ وطـئ الغبـــراء مـن ملـك بأمـــره ســـائر الأمـــلاك تأتمـــر

٢٤ــ بعزمــه ظـــهر الفـتح الـذي عجـزت عنـــه الســـلاطين قـــد أفنتهـــم العُصُـــرُ

٢٥ــ لـــو فاخرتـــه ملـــوك الأرض قاطبـــة مانالهـــم مـــن معـــاني فخـــره العُشـــرُ

٢٦ـ هـل يسـتوي الشـمس والمصـباح جنحَ دجـــى : ويســـتوي الجاريـــان البحروالنهـــر

٢٧ـ بـدا لـه فـي ســماء المجـد نـور هــدى مـــن دونـــه النيِّـــران الشـــمس والقمـــر

٢٨ــ وأصـبح الملـك محـروس الجنـاب وقـد وافـــى بـــه المســـعدان القـــدْرُ والقـــدَرُ

٢٩ــ عطفـاً علـى عبـدك المـــداح ناظمـــها فقلبـــه مـــن صـــروف الـــدهر منكســـر

٣٠ــ لازال ملكـــك دوري الســـعود فمـــا يـــرى لـــه آخـــر فـــي الـــدهر يُنْتَـــظر

٣١ــ بدولــة تُخـــلِقُ الأيـــامَ جدتُهـــا مـــاأزهرت فـــي الـــدياجي الأنجـــم الزُهُـــر

الغرض العام للنص :

مدح السلطان مراد حين انتصر على أعدائه الصفويين ، يتخلله بيان أسباب فتح تبريز ووصف حالة الأعداء النفسية وهروبهم ، وبطولة جيش الخليفة وأثرهم في المعركة مع إغداق السمات الجليلة على الخليفة ليصله ويكرمه .

سمات الأفكار :

١ـ التسلسل والترتيب : فالشاعر سرد الأفكار منسقة في سياقها الزمني ، فبدت كأنها قصة تحكى ، فقد أبدى إعجابه بجيش الروم (العثمانيين) في قتالهم الصفويين موضحاً دواعيه بعد أن أساء هؤلاء إلى المسلمين قتلاً وتشريداً ، وخرجوا عن دائرة الإسلام حين استباحوا دماء المسلمين وسبوا الصحابة و التابعين ، وتحدوا جيش العثمانيين معتقدين أنهم سينتصرون عليهم ، لكن فألهم خاب حين دنا المجاهدون منهم فارتعدت فرائصهم ، ، وأصابهم الخوف والهلع حين دارت الدائرة عليهم . ويصور شجاعة الجنود العثمانيين الذين انتزعوا أرواح أعدائهم وشتتوا شملهم وأسروا العديد منهم فغاضت أحلامهم وذوت آمالهم واستسلموا للفرار .

أما عاصمة الصفويين فقد استقبلت الفاتحين مبتهجة أيما ابتهاج ، وينتقل إلى مدح الخليفة فيسبغ عليه آيات العظمة والإجلال ، ثم يستجديه ويسأله من رفده ويدعو له بطول العمر ودوام الملك .

٢ـ الإقناع الوجداني : واضح في جميع أجزائها فالشاعر يورد من الأدلة والبراهين ما يثير وجدان القارئ فيتفاعل مع الأحداث ، فهو في البيت الأول يتعجب مما فعله العثمانيون بأعدائهم ، إذ جعلوهم عبرة لمن يعتبر ، ويبين أن العاقل من يتجنب مصيرهم ، أما القتال فسببه إظهار الصفويين للبدع ومخالفتهم للسنة والجماعة ، وسب الصحابة ومن تابعهم .

أما ظهور الخوف والخور فلأن جيش الأعداء عرف النتيجة التي سيصير إليها قبل البدء بالقتال ، وأما فرارهم فلأن الفناء ينتظرهم ، ولأن يهربوا خير لهم من الموت أو الأسر سيما أن قلوبهم قد انخلعت من الخوف فما عادوا يبصرون ولا عادوا يعرفون ما يفعلون .

أما عاصمة ملكهم (تبريز) فقد عمَّها الفرح لأنها تخلصت من كفرهم وفسوقهم ، فلطالما انتظرت الخلاص ، وهاهي الآن تستقبله مبتهجة . ويعتقد الشاعر أن الخليفة ظلُّ الله في الأرض ، وأجلُّ ملك على ظهرها ، ذو عزم لا يدانيه عزم ، وقوة لا تضاهيها قوة ، فحق له أن يفاخر الملوك جميعاً ، وأن يبزَّهم فهو الشمس في ضوئها ، والملوك المصابيح ، وهو البحر الزاخر وهم الأنهار، وشتان ما بين الشمس والبحر وبين المصباح والنهر ، كل هذا مما يثلج الصدر ويفرح النفس ويجعل القارئ يتفاعل مع الأحداث فيتمنى النصر للعثمانيين والخسارة لهؤلاء الكفار .

٣ـ امتزاج الفكر بالوجدان : (أن يعرض الشاعر أفكاره ممتزجة بعاطفته ويصورها كما يراها هو لا كما هي في الواقع) ، فأفكار الشاعر تنبع من عاطفته الدينية الصادقة في حب العدل وأهله ، وكره الظلم والظالمين ، ولهذا نراه يصف الصفويين بالكفر والرفض والخروج عن الحق ، وقساوة القلب وظلمهم للعباد ، ويبين شماتته بهم وقد خارت قلوبهم في ساحة الحرب وامتلأت نفوسهم رعباً ، طاشت أحلامهم وضاعت عقولهم يفرون كالأنعام مشتتين لايدرون أين يذهبون ، ويظهر شماتته بهم فيصور رؤوسهم التي جندلها العثمانيون وكأنها أكر يلعبون بها بمهارة .

ومن حبه للعثمانيين واعتزازه بهم نراه يصفهم بالبأس الشديد والبطش القادر ، يلقون الرعب في قلوب أعدائهم ، ويدافعون عن المظلومين ويعيدون الحق إلى أصحابه ، ولا ينجو منهم إلا من تحمله رجلاه إلى المجهول والشتات .

ويرى الملك أعظم ملوك الأرض ويسبغ عليه من الصفات ماهو أهل لها وما ليس أهلاً لها ، ويصل من ذلك إلى طلب الأعطيات والمنح ، وهنا تتداخل العاطفة الذاتية لدى الشاعر مع عاطفة الإعجاب بالخليفة . وبذلك يبدو عرض الأفكار جافاً ثقيلاً في الحديث عن الخليفة وخفيفاً في غير ذلك من المواضع .

٤ ـ النزعة الإسلامية والأثر الديني في القصيدة : فهو يكره الروافض الذين غيروا وبدلوا فأساؤوا إلى الناس ، حتى ضجُّوا بالشكوى إلى الله تعالى ، وقد تأثرت أفكاره بالقرآن الكريم في البيت السابع عشر (فأصبحوا لاترى إلا مساكنهم ... ، وذكر الاسكندر والخضر عليه السلام ..) ومن الحديث الشريف في البيت العاشر قوله (شاهت وجوههم ..) كما نرى الألفاظ التالية (ظلُّ الإله ، والمنابر ، ونور هدى ..) وهي تدل على عمق الثقافة الإسلامية لدى الشاعر ، ولا عجب في ذلك فهو فقيه وقاضٍ .

٥ـ التقليد والتجديد في القصيدة : لابد لكل شاعر أن يتأثر بمن سبقه من الشعراء، وفي هذا النص بعض العبارات والأفكار التي تدل على تأثر الشاعر بمن سبقه ، فقوله :

والنقـــع ليـــل بهـــيم لا نجـــوم بـــه　　تلـــوح للعـــين إلا البـــيض والســـمر

مأخوذ من قول مسلم بن الوليد [١] :

فـــي عســـكر تشـــرق الأرض الفضـــاء بـــه　　كالليـــل أنجمـــه القضـــبان والأســـل

ومن قول المتنبي [٢] :

فكأنمـــا كُسِـــيَ النهـــار بهـــا دجـــى　　ليـــلٍ وأطـــلعت الرمـــاح كواكبـــا

أما قوله :

فـــالبيض فـــي يـــدهم صـــارت صوالـــجة　　والأرؤس الحمـــر فيمـــا بيـــنهم أُكُـــر

فيقول فيه المحبي / صاحب نفحة الريحانة / : (هذا البيت قد أخذ بأطراف اللطف والانسجام ، إذ فيه المقابلة مع ذكر الحمر في تمثيل حال الأعاجم ، وهو أحسن عندي من قول الصالحي[٣] :

كأنمـــا الخيـــل فـــي الميـــدان أرجلهـــا　　صـــوالج ، ورؤوس القـــوم كـــالأكُر [٤]

---

[١] نفحة الريحانة ج٣ ، ص ٩٤ ، وشرح ديوان صريع الغواني ص ٢٥١ .

[٢] نفحة الريحانة ج٣ ص٩٥ ، وديوانه ص ١٠١ .

[٣] شمس الدين محمد بن نجم الدين بن محمد الصالحي الهلالي ، ولد في دمشق سنة / ٩٥٦ هـ / ورحل إلى مكة فقرأ على علمائها وعاد إلى دمشق وتوفي فيها سنة / ١٠١٢ هـ / ، من خلقه حب العزلة ، جمع مالاً عظيماً ولم يتزوج ، له ديوان في مدح الرسول ﷺ سماه (صدح الحمام في مدح خير الأنام) . خلاصة الأثر ج٤ ونفحة الريحانة ج٣ ص ٩٦ . وريحانة الألبَّا ج١ ص ٢٧ .

[٤] البيت في نفحة الريحانة ج ١ ص ٣٤ .

العاطفة والتصوير :

ذكرنا نوع العاطفة ومدى صدقها حين وضحنا أثرها في سمات الأفكار ، فهي عاطفة إعجاب بشجاعة العثمانيين ، وإجلال للخليفة ، وكره للأعداء وشماتة لما حلَّ بهم ، وهذه العواطف ـ على تباينها ـ تدل على صدق الانفعال الذي ولَّد جوَّ القصيدة وحرَّك وجدان القارئ ولوَّن الأفكار وأثر في اختيار الصور وتناسقها وألوانها ، فهي غائمة حين يصور الأعداء كالتشبيه البليغ في البيت الثامن (ليل كربهم) ، والكناية في البيت العاشر (قلوبهم خشيت ، أبصارهم عميت ، شاهت وجوههم ..) .

وهي ذات ألوان بهيجة حين يعجب بالمجاهدين ويمدح الخليفة مثل الكناية في البيت الأول ، والبيت الثاني والعشرين ، والبيت الثالث والعشرين ، والاستعارة في الرابع (يقدمها الخوف والحذر) وفي البيت السادس (طاشت الأحلام) والبيت السابع (الليالي نحوهم نظرت) ... والتشبيه في البيت الثالث عشر (البيض صارت صوالجة ، والأرؤس الحمر أُكُرُ) والبيت الخامس عشر (ذوت رياض أمانيهم) ... وغير ذلك من أنواع التصوير الجزئي الذي يشمل القصيدة لا عن تكلف وتصنع ، فقد أثرى الفكرة واصطبغ بلون العاطفة وتأثر بها وصورها فأوضحها .

أما التصوير الكلي [1] فنراه حياً متمثلاً في البيتين الثالث والرابع معتمداً على الكلمات المتناسقة ذات الخطوط الثلاثة : فالصوت في قوله : يزأر يسمع ، والحركة في قوله : أتت يقدمها ، واللون يتمثل في لون الغبار المتصاعد من قدوم الجيش .

وتتجلى الصورة الشعرية الممتدة أو الخيال الكلي [2] في المقطع (ج) حيث يتحرك المشهد في مساحات أوسع من الصورة الكلية مصوراً الضربات المتلاحقة التي يكيلها الجيش العثماني للأعداء ، مما يجعلهم يهربون هنا وهناك لا يلوون على شيء ، بينما تستقبل عاصمتهم جيش الفاتحين سعيدة مغتبطة .

ولا بدَّ أن نقف هنا لنرد على المتقولين الذين يزعمون أن التصوير في العهد العثماني كان مفككاً مجزأً ، وأن الصورة الشعرية الكلية ظهرت تباشيرها في شعر الكلاسيكيين (الاتباعيين) وأخذت شكلها النهائي في شعر الرومانسيين (الإبداعيين) ، ولقد رأينا في هذه القصيدة الصورة الشعرية الكلية ، وسأتعرض ـ إن شاء الله تعالى ـ في دراسة القصائد الأخرى إلى العديد من الصور الشعرية لأبين خطأ ما ادعوه ، كما أنني أتعجب من ببغاوات النقد الذين ينقلون عن المستشرقين آراءهم دون تمحيص أو تفهم ، وأدعوهم إلى قراءة الشعر في العصر العباسي الأول ـ بل حتى الأموي ـ ليروا فيه وضوح الصورة الشعرية ، ولا بأس أن يفتحوا ـ على سبيل المثال ـ ديوان ابن الرومي ليجدوا في قصيدته التي يصف فيها المغنية (وحيد) والتي مطلعها :

يـــــا خليلـــــيَّ تيمتنـــــي وحيـــــد ففـــــؤادي بهـــــا معنَّـــــى عميـــــد [1]

---

[1] التصوير الجزئي يقصد به التشبيه والاستعارة والكناية ، أما التصوير الكلي فهو وسيلة التعبير عن الفكر والشعور تعبيراً مؤثراً يرسم الشاعر بالكلمات المعبرة المتناسقة ذات الخطوط الثلاثة : اللون والصوت والحركة ، وقد يكون أيضاً بالصور الجزئية المتلاحقة والتي يكمل بعضها بعضاً دون تكلف ولا تصنع .

[2] الصورة الشعرية الممتدة أو الخيال الكلي : لوحة تصويرية تضم عدة صور كلية تشترك في تكوين اللوحةوكأنها مشهد سينمائي يتحرك أمامنا .

حبكة تصويرية تبدأ من أول القصيدة وتنتهي آخرها ، ودقة في رسم هذا المشهد حتى تكاد تسمع صوتها وبحته ، وترى خلجات وجهها وحركته رأي العين . وكذلك وصفه بائع الزلابية ، وصاحب الأنف الضخم . والأمثلة كثيرة تدلُّ على ضحالة ما يقولون وتبعية ما يرتأون .

التعبير :

الكلمات المناسبة للفكرة والمحسنات البديعية وحسن اختيار الأساليب بأنواعها كل هذا يساعد في قوة تأثير العمل الأدبي ، ومن خلال هذه القصيدة نلاحظ ما يلي :

الكلمات الملائمة للفكرة : حين يتحدث الشاعر عن الجيش العثماني يستخدم الكلمات التي تناسب سمات المجاهدين فهم : جيش عرمرم ، يستخدم كافة أنواع الأسلحة (البيض والسمر) ويشير إلى انتصارهم (ظهروا على الروافض) ، وللملك الكلمات المناسبة لمقامه (تدين له الملوك ، ملك الدنيا ، ظل الإله ، شرفت به المنابر ..) وحين يتحدث عن الأعداء يستخدم الكلمات التي تدل على آثامهم وذنوبهم فهم (الروافض ، أبدعوا سباً ومظلمة ، الدجى ، شاهت وجوههم ، خوفاً ...) ، وحين يستجدي الملك يذكر الكلمات المناسبة (عطفاً ، عبدك ، المداح ، صروف الدهر ، منكسر).

وقد أحسن الشاعر إذ استطاع أن ينوع ألفاظه فيقدم لكل مقام مقالاً ، وهذا يدل على شاعريته وتمكنه من اللغة وقدرته على التصرف بها .

الألفاظ الموحية : الإيحاء [٢] أهم شرط من شروط اللغة الشعرية ، بل هو غاية هذه اللغة ، وقد كانت ـ في هذا النص ـ قليلة ، منها :

تجأر : توحي بشدة المصاب وفداحة الألم ، **يدهم** : توحي بظلم الروافض وبطشهم ، **حمر الرؤوس** : توحي بالتندر والسخرية من الصفويين الذين اتخذوا القلنسوة الحمراء شعاراً لهم ، **منعفر** : توحي بهول الميتة وقوة الضربة التي أهلكت الأعداء .

المحسنات البديعية : حشد الشاعر أنواعاً كثيرة منها في قصيدته ، وكثرة المحسنات من سمات التعبير في هذا العصر ، قد يوفق الشاعر فيها ، وقد تكون عبئاً على النص وصنعة متكلفة ، لكنها في هذا النص كانت متناسقة مع قوة الأفكار وجمال التصوير ، ومتممة لقوة التعبير ، فأكسبته موسيقا ظاهرة الجرس .

والمحسنات نوعان : لفظية ومعنوية :

المحسنات اللفظية :

ـ التصريع : في الأبيات : الأول والخامس عشر والسادس عشر

---

[١] ابن الرومي : حياته من شعره لعباس العقاد ص ٣٠٤ .

[٢] إيحاء الكلمة : إثارتها في النفس معاني كثيرة غير مباشرة ، لاتسجلها المعاجم اللغوية .، ويتحقق الإيحاء باختيار الكلمات ذات الموسيقا الملائمة ، وذات القدرة على رسم صورة للشعور . كتاب النقد الأدبي / دولة الإمارات ص ٨٥ .

ـ و رد العجز على الصدر : في الأبيات : الثالث والسابع والثامن والتاسع والخامس عشر والسادس عشر والثالث والعشرين .

ـ و الجناس في قوله : نفروا ونفر (في البيت السادس عشر) والقدر والقدر (في البيت الثامن والعشرين) .

ـ وحسن التقسيم في البيت العاشر ، وفي الشطر الثاني من البيت الثاني والعشرين .

ـ والاقتباس في قوله : فأصبحوا لايرى إلا مساكنهم : من الآية (٢٥) من سورة الأحقاف ، وقوله : شاهت وجوههم : من قول الرسول ﷺ " شاهت وجوه القوم " وذلك يوم بدر حين رمى الحصباء في وجوه الكفار يوم بدر .

أما المحسنات المعنوية : فنرى:

ـ الطباق في قوله : لينها والحجر ، يجأر ويسمع ، شجعوا وجبناً ، العين والأثر ، عزم وعجز ، الشمس والمصباح ، البحر والنهر ، تخلق وجدَّة ، ...

ـ والترادف في قوله : الأحلام والفكر ، خشيت وخوفاً ، عانٍ وأسير ، رياض ودوح، الأرض والدنيا ، التيجان والسرر .

ـ ومراعاة النظير في قوله : الخوف والحذر ، الليل والدجى ، البيت العاشر كله ، البيت الحادي عشر كله ، مغناطيس أنفسهم تجعل الأرواح تنتثر ، البيت السابع عشر كله ، تدين طوعاً وتأتي وهي تعتذر ...

الأساليب : يغلب على النص الأسلوب الخبري لأن الشاعر يقص أموراً لا نعرفها ويخبربما جرى في المقاطع الثلاثة الأولى ، أما في المقطع الأخير فقد استخدم الأسلوب الإنشائي بأغراضه البلاغية المتعددة :

فالأسلوب الخبري في البيت الثاني : للاستنكار ، والبيت الرابع للمديح والبيت السابع و الحادي عشروالسادس عشر للشماتة والتشفي ، والبيت العاشر للسخرية ، والبيت الثلاثين للدعاء .

والأسلوب الإنشائي متعدد الأنواع والأغراض :

فالتعجب في البيت الأول للمديح ، والشرط في البيت التاسع للسخرية ، والنداء في البيت التاسع عشر للتعظيم ، والأمر في البيت العشرين للإعجاب ، والتعجب في البيت الحادي والعشرين للتعظيم ، والشرط في البيت الخامس والعشرين للمديح ، والاستفهام في البيت السادس والعشرين للنفي والإنكار ، والطلب في البيت التاسع والعشرين للاستجداء والاستعطاف .

الموسيقا : الموسيقا نوعان : خارجية وداخلية **:** فالخارجية تعني الوزن والقافية

والقصيدة من البحر البسيط وتفعيلاته (مستفعلن ، فاعلن ، مستفعلن ، فاعلن) وهو يعد من البحور ذات النفس الطويل الذي يساعد على الوصف والفخر والمديح ، والروي حرف الراء المضمومة المتكرر الهدار الذي يناسب الغرض الشعري للقصيدة .

وقد أحسن الشاعر اختيارهما إذ أكسبا النص قوة في الأداء والجرس .

أما الموسيقا الداخلية فهي أيضاً نوعان : ظاهرة وخفية ، فالظاهرة تتمثل في الجرس الموسيقي للكلمات من جناس وحسن تقسيم وتصريع وتكرار بعض الكلمات أو الحروف ، والخفية : وتتمثل في الأفكار الخصبة التي أوردها الشاعر وعاطفته الحارة القوية الصادقة ، وفي الصور الجزئية الموفقة والشعرية الممتدة التي تلائم العاطفة والأفكار والجو النفسي للموقف ، وفي قدرتها على التأثير بالقارئ ونقله إلى جو القصيدة وتفاعله مع أحداثها ، وفي المحسنات المعنوية التي استخدمها الشاعر كالطباق والترادف ...

وبعد هذا العرض للقصيدة نستطيع أن نحكم على شاعرية الشاعر (فيض الله بن أحمد القاف ، وقدرته على إيصال الأفكار وبيان العاطفة بصور جميلة فيها حركة وامتداد وقدرة على التجسيم ، وأسلوب يقترب كثيراً من أسلوب العصر العباسي الثاني بما فيه من تلوين الأساليب ، مما يؤكد على أن الشعر في العصر العثماني لم يكن كما صوره بعضهم فأساء التصوير ، إنما فيه قوة وبهاء ورونق .

القصيدة الثانية :قصيدة البهاء البعلي يمدح الخليفة محمداً الرابع ويهنئه بفتح / إيوار / ، وهي مؤلفة من اثنين وثلاثين بيتاً [1] :

أفكار القصيدة :

١ـ الفكرة في البيتين الأول والثاني : توضح آثر الجهاد وطريق النصر .

٢ـ الفكرة في الأبيات من / ٣ إلى ١١ / وصف لبطولة المجاهدين وجيش المسلمين واستبسالهم في المعركة ، وكثرة قتلى الأعداء .

٣ ـ من البيت /١٢ إلى ٢٢ / توضيح لما آل إليه مصير جند الأعداء من قتل وفرار ووصف لحالة الذعر التي ضعضعتهم وحزن رجال دينهم عليهم .

٤ ـ من البيت / ٢٣ إلى ٣٢ / مدح الخليفة وتفضيله على ملوك الأرض قاطبة قديماًوحديثا لأنه بذل جهده في نصرة الدين والذبِّ عن الإسلام والدعاء له بالخيروالبركات .

سمات الأفكار :

أ ـ الفكر الإسلامي الناضج : فبالجهاد يعلو شأن الأمة وينتشر الدين ، فإذا جاهد المسلمون عدوهم بإخلاص جاءهم النصر من الله تعالى ، وكان الخليفة أول المجاهدين ، فقد عمل على نشر الدين وقتال الأعداء براً وبحراً، ولم يأل جهداً في الدفاع عن حومة الإسلام ، ولِمَ لا يكون كذلك واسمه من اسم الرسول الكريم ﷺ .

[1] التعريف بالشاعر ونص القصيدة في الباب الأول من هذا الكتاب ص / ٥٠ / .

ب ـ الترتيب والتسلسل : بدأ الشاعر ببيان فضل الجهاد وعزا النصر إلى الله تعالى ثم وصف سرعة الجيش وفتكه بأعدائه ، وعدده الكبير الذي ملأ وجه الأرض ، واندفع غزيراً كماء السماء ، ووصف أسلحتهم وثباتهم في المعركة وإثخانهم في الأعداء ، ثم وصف هلع العدو وهزيمته شر هزيمة ، مع أنه بغروره كان المسبب للمعركة ، فقتل الرجال وسبيت النساء وبكى عليه الباكون ، وأخيراً انتقل إلى مدح الخليفة فجعله أقوى ملوك الأرض وأعلى شأناً منهم ، فقد جهز الجيوش ودربها على القتال وحمى الإسلام وأباد الصليبيين ، فأكرمه الله تعالى بالنصر وجلال الذكر ، ثم يدعو له بالظفر والخير سيما أنه ينتسب إلى رسول الإسلام وصحبه الكرام . وقد اعتمد الشاعر أسلوب القصة في هذه القصيدة فجاءت الأفكار متسلسلة متتالية .

ج ـ التعليل والعمق والغزارة : أما التعليل فنجده في الأبيات واضحاً جلياً يدل على حسن العرض وسداد الرأي، فبالفتح والجهاد زاد الدين عزاً واعتلى ، وبالنصر الذي حققه الله تعالى للمسلمين بعد أن بذلوا جهدهم وأعدوا العدة لعدوهم أنجز الله وعده وأعزَّ أولياءه وقد أرهبوا عدوهم بالهجوم السريع عليهم ، وبكثرتهم وثباتهم واستعدادهم المادي والمعنوي ونتج عن ذلك قتل الكثير منهم وسبي نسائهم وبكاء القسوس عليهم .

أما العمق والغزارة ففي الأفكار الإسلامية المذكورة سابقاً وفي التصوير لأغوار النفس البشرية الخائفة وفي حسن التعليل الذي ذكرناه آنفاً

العاطفة :

العنصر الأول من العناصر الشعرية ، فهي التي تنشئ الأفكار وتمتزج بها وتسيرها وتحيل جفافها إلى مادة مؤثرة في نفس القارئ ، وتصدر كما يراها الشاعر لا كما هي في الواقع ، كما تؤثر في الألفاظ والتراكيب والتصوير بأنواعه ، فإن كانت العاطفة حزينة كانت الألفاظ رقيقة فيها الأسى والبكاء ، والصور كئيبة ، وإن كانت حماسية جاءت الألفاظ قوية جزلة .

والعاطفة هنا عاطفة إعجاب الشاعر بالخليفة وجنده ، وفرحة بالنصر ، وشعور بالعزة ، وكره للأعداء وسخرية منهم .. وسنشير إلى الأمثلة على ذلك عند الحديث عن التصوير والتعبير :

التصوير : وهو نوعان كلي وجزئي :

فالتصوير الكلي واضح في تصوير حركة الجيش المسلم وسرعة هجومه على الأعداء ، وقد استخدم الشاعر من عناصر الصورة الممتدة :

اللون وذلك في قوله : الدم ، والدجى ، ولون الأرض والجبال ...

والحركة في قوله : هبوا ، سرى ، يفتض ، أسبل ، يلتقي ، سالت ...

والصوت في قوله : ينادي ، تئنُّ ، تبكي ، صوت النار ، ضجة الجيش أثناء حركته

والذي جعل الصورة موفقة امتدادها على مدى عشرين بيتاً في شكل قصصي جيد ، مما ساعد في توضيح المعنى واستجاشة العاطفة .

أما التصوير الجزئي فقد تجلى في تزيين النص وزيادة التوضيح ، ففي قوله : لم تلف مثلهم النواظر جحفلاً : كناية عن الكثرة ، وقوله : شاكي السلاح : كناية عن الاستعداد وحمي الوطيس: كناية عن اشتداد المعركة ، سالت به البطحاء : كناية عن كثرة القتلى .

والاستعارة المكنية في قوله : سدوا البسيطة والغرض البلاغي من هذه الصورة بيان كثرة الجيش، في قوله : أنفت سيوفهم الغمود : غرضها البلاغي تشخيص السيوف واكتسابها من صفة الشجاعة لدى المسلمين ، وقوله : ملء العين مخافة : توضيح مدى الخوف الذي أحس به الأعداء ..

والاستعارة التصريحية في قوله : أنهل : وغرضها البلاغي : الإخبار عن كثرة الدماء ، و عِرض الأرض : شبه الحصون بالعِرض ، حذف المشبه وصرح بالمشبه به ، والغرض البلاغي بيان أهمية هذه الحصون .

والتشبيه : في قوله هبوا كما هبَّ النسيم والغرض البلاغي تصوير السرعة والاندفاع وفي البيت السادس تشبيه بليغ غرضه تصوير سرعة الاندفاع ، وكذلك التشبيه البليغ في كل من : ثبتوا ثبات الراسيات ، وعدوا الهزيمة والفرار غنيمة ..

التعبير :

الجمل والتراكيب واضحة مترابطة قوية التعبير عن الأفكار ، مناسبة للمديح جزلة قوية تملأ الفم كقوله : الأرض ، جحفل ، حلقة خاتم ، قطر ، تصبُّراً ، صقيلاً في نجيع ، سبهللاً ، البيت الحادي عشر كله ... وهذا يدل على أثر العاطفة في التعبير .

الإيحاء : نرى بعض الكلمات الموحية في قوله : يفتض : إذ أوحت هذه الكلمة بالقوة والعنف ، وفي قوله أسبلا : إيحاء بكثرة الجيش الذي غطى ما وراءه كما يمنع المطر الغزير وضوح الرؤية، وفي قوله سبهللا : إيحاء بالتفاهة والضياع ، وقوله : جزر الظبا : إيحاء بتدفق الدماء الغزيرة .. وهكذا نرى أن الإيحاء يولد معاني اعتملت في النفس وأضفت ظلالاً حومت حول الفكرة فأكسبتها دقة ولطافة .

ومن خلال القصيدة نرى أن الشاعر وقع في عدة تجاوزات لغوية فمثلاً :

نجد في البيت الثاني والبيت قبل الأخير حذف الهمزة من كلمة (الولاء) ، وهذا أمر درج عليه الشعراء والكتاب لاسيما في العصر العثماني .

أما في البيت السابع فإننا نجد الشاعر لم يجزم فعل الشرط (يلتقيهم) وذلك لضرورة شعرية ، وكذلك خفف الهمزة في كلمة (سبأ) في البيت الحادي والعشرين ، ولعله لم ير كلمة تناسب القافية ـ في البيت الثالث

والعشرين فاستعان بكلمة (أولا) ، واستخدم كلمة (أنف) مرتين في البيت العاشر والبيت الخامس والعشرين ،ولواستخدم مثلاً كلمة (سئمت) في البيت العاشر لكان أفضل.

المحسنات البديعية : تحفل القصيدة بعدد لاباس به من المحسنات البديعية منها :

الترادف والمزاوجة : المنة والتفضل ، أربوا واعتلوا ، ماء وقطر ، الراسيات والأجبل ، منأى ومتحول ، الهزيمة والفرار ... وهذا يساعد في توضيح الفكرة وجلاء المعنى ،

الطباق والمقابلة : كقوله : أواخرهم وأوائلهم ، هزيمة وغنيمة ، بخيلهم وبرجلهم ، علوجهم ونساؤهم ، الأرض والثريا ، براً وبحراً ... وهذا يساعد في إبراز المعنى لأن الضد يظهر حسنه الضد .

الجناس : كقوله : أولي الولا ، عرض الأرض ..

رد العجز على الصدر : كقوله :

فـــي جحفـــل ســـدوا البســـيطه كتـــرة لـــم تلـــف مـــتلهم النـــواظر جحفـــلا

والجناس ورد العجز على الصدر من المحسنات التي تكسب النص موسيقا خاصة ،

مراعاة النظير : وذلك في البيت الثاني والشطر الثاني من البيت الخامس ، والشطر الثاني من البيت العاشر ، والبيت الثالث عشر ، والبيت الرابع عشر ، وهذا مما يؤكد المعنى ويثبته في النفس .

كما نجد الاقتباس في قوله : (جلب الغزاة بخيلهم وبرجلهم) من قوله تعالى : " واجلب عليهم بخيلك ورجلك " .

ونجد استعارة الأمثال في قوله (أيدي سبأ ، و ضاع العمر سبهلا ، حمي الوطيس) وهذا مما يقرب المعنى ويزيده جمالاً .

ولا أجد الشاعر تكلف هذه المحسنات ، فقد جاء الكثير منها عفو الخاطر ، ويؤيد هذا القول قلة بعض أنواع المحسنات كالجناس والاقتباس والتصريع .. مما يؤكد اهتمام الشاعر بالمعاني وتقديمها على التزيين اللفظي المتكلف .

الأساليب : اعتمد الشاعر في قصيدته على الأساليب الخبرية وهذا يناسب تسلسل الأفكار وترتيبها ، وقد يخرج في أساليبه الخبرية إلى أغراض أخرى :

كالتوجيه في بيان فضل الجهاد في البيت الأول ، والتعظيم في البيت الثالث والبيت الرابع ، وإظهار كثرة القتلى في البيتين العاشر والحادي عشر ، والشماتة في البيتين التاسع عشر والعشرين ، والتعظيم في البيتين الثالث والعشرين والسادس والعشرين ، والدعاء في البيت الثلاثين ...

أما الأسلوب الإنشائي فنراه منوعاً :

فقوله (سبحانه) للتعظيم ، والشرط في البيت التاسع للمديح ، والاستفهام في البيت السادس عشر للسخرية ، والاستهزاء ، والاستفهام في البيت الثالث والعشرين للتأنيب والتوبيخ ..

الوحدة العضوية : وتجلت في :

ـ وحدة الموضوع : فقد رأينا تسلسل الحديث عن فضل الجهاد إلى وصف المجاهدين وأثرهم في القتال وهروب الأعداء وخوفهم ، إلى مدح الخليفة ، وزاد في ترابط القصيدة تلك الصورة الشعرية الممتدة .

ـ وحدة الجو النفسي : فعلى الرغم من أن العاطفة تراوحت بين مدح الخليفة وجنده وكره الأعداء والشماتة بهم إلا أنها ـ جميعاً ـ تخدم فكرة الجهاد ومجالدة الأعداء ورسم الطريق الصحيح للوصول إلى النصر .

ولعلي أستطيع القول : إن الوحدة العضوية مكتملة فكرة ووجداناً على الرغم من أننا نستطيع أحياناً أن نقدم بيتاً ونؤخر غيره ، أو نحذف بيتاً فلا يظهر الخلل .

الموسيقا الخارجية والداخلية واضحة :

فالموسيقا الخارجية ظهرت في اختيار البحر الكامل (متفاعلن متفاعلن متفاعلن) مما يفيد في تقطيع البيت إلى تفعيلات متوازنة ، وفي اختيار حرف اللام الممدودة روياً مما يعطي ليناً يكبح من تصاعد الموسيقا وقوتها التي تناسب الغرض من هذه القصيدة ، على العكس مما لو اختار الراء أو الباء أو أي حرف قوي آخر .

أما الموسيقا الداخلية فقد ظهرت خافتة ضعيفة ، في الموسيقا الظاهرة التي اقتصرت على استعارة الأمثال والجناس القليل والتصريع في بيت واحد فقط ، أما الخفية فقد ظهرت قوية في ترتيب الأفكار وصدق العاطفة وقوتها وجمال التصوير بشقيه الكلي والجزئي والألفاظ الموحية ذات الظلال المتعددة .

وأخيراً نستطيع أن نقول : إن هذه القصيدة تعد من النصوص الرائعة التي تؤكد أن في الأدب العربي العثماني رقياً وجمالاً ، يعتز به في مثل هذه الحقبة الأدبية التي تناساها الجم الغفير من دارسي الأدب ، وذلك على عكس ما يتصوره بعض النقاد .

القصيدة الثالثة :

للشاعر عبد الباقي بن أحمد المعروف بابن السمان الدمشقي [1] يمدح الوزير الفاضل الكوبريلي ، ومطلعها [2] :

أخــفُّ النــوى مــا ســهلته الرســائل وأحلــى الهــوى مــا كدرتــه العــواذل

وقد أثبتها المحبي في كتابه نفحة الريحانة [3] .

من سمات الأفكار :

---

[1] سبق تعريف الشاعر في الصفحة / ٥٥ / الباب الأول من هذه الرسالة نقلاً عن الأعلام ج٣ ص٢٧١ ، وخلاصة الأثر ج٢ ص ٢٧٠ .
[2] أثبتنا القصيدة في الصفحة / ٥٥ / الباب الأول من هذا الكتاب بدءاً من البيت السادس عشر (إذا جاء نقاد الرجال ...) .
[3] ص / ٢٤٣ ـ ٢٤٨ / وعدد أبياتها (٣٤) بيتاً .

ـ الأدب الإنساني الخالد : (الحكم والأمثال الصادرة عن الشاعر والتي تلخص تجربة إنسانية عايشها ، وتصلح لكل زمان ومكان) .

بدأ الشاعر قصيدته بالحكم الدالة على عمق التجربة ورهافة الحس ، فكانت مدخلاً لطيفاً إلى غرضه الأصلي وهو مدح الوزير الفاضل :

أخـــف النـــوى مـــا ســـهلته الرســـائل　　وأحلـــى الهـــوى مـــا كدرتـــه العـــواذل

فالرسائل تخفف من حدة الفراق ، ويزداد الغرام تأججاً والهوى ضراماً بين المحبين حين يكتشفون مكائد العذال وألاعيبهم .

ويرى أن الخصام بين المحبين بين آونة وأخرى يجدد عهد الود ، ويجعل للحياة طعماً آخر لذيذاً:

ولا ملـــح فـــي عـــيش إذا لـــم يكـــن لـــه　　حبيـــــب يجـــــافي تـــــارة ويواصـــــل

أما إذا فتر الحب بين المحبين بسبب البعد ، وأما إذا استطاع العذال التفريق بينهم فهذا ـ في الأصل ـ لم يكن حباً وأولى له أن ينفرط عقده :

ولا خيـــر فـــيمن حـــول البعـــد قلبـــه　　ولا فـــــي وداد غيرتـــــه العوامـــــل

وتتوالى الحكم متصدرة القصيدة تقود القارئ بخطوات متزنة إلى المديح فيقول :

ومـــا الفخـــر بالأجســـام والمـــال والعـــلا　　ولكـــــن بـــــأنواع الكمـــــال التفاضـــــل

ومـــا يصـــنع الإنســـان يومـــاً بنـــوره　　إذا عادلـــت فيـــه النجـــومَ الجنـــادلُ [1]

وفـــيم نضـــيع العمـــر مـــن غيـــر طائـــل　　إذا ماســـتوى فـــي النـــاس قـــس وباهـــل

وأصـــعب مـــا حاولـــت تثقيـــف أعـــوج　　وأثقـــل شـــيء جاهـــل متعاقـــل

إذا جـــاء نقَّـــاد الرجـــال مـــن الـــوغى　　تميَّـــز عـــن أهـــل الكمـــال الأراذل

ـ التقليد : الأفكار العامة ملك الناس جميعاً ، وقد يكون للأول الفضل في ذكرها ، وللآخرين في حسن سبكها ، أما أن ينقل الشاعر أقوال غيره دون تغيير يذكر فهذا التقليد يعد مثلبة وعيباً ، فقد قال أبو فراس الحمداني :

علـــيَّ طـــلاب العـــز مـــن مســـتقره　　ولا ذنـــب لـــي إن حـــاربتني المطالـــب

فأخذ الشاعر محمود سامي البارودي اللفظ والمعنى وقال :

عليَّ طلاب العز من مستقره　　ولا ذنب لي إن عارضتني المقادر [2]

---

[1] هذا القول مأخوذ من المتنبي : ديوانه ج ٢ ص ١٢٠ إذ يقول :
أعيذها نظرات منك صادقة　　أن تحسب اللحم فيمن شحمه ورم
وما انتفاع أخي الدنيا بناظره　　إذا استوت عنده الأنـوار والظلـم

[2] من كتاب الأدب والنصوص الطبعة العشرين عام / ١٩٩٥ـ ١٩٩٦ / ص ٨٠ .

لكن الشاعر عبد الباقي أحسن حين أخذ من المتنبي فكرته وصاغها بأسلوبه الجميل ـ ذكر في الهامش رقم ١ من هذه الصفحة .

كما نراه يأخذ قول مجنون بني عامر :

ومـــا حـــب الـــديار شـــغفن قلبـــي ولكـــن حـــب مـــن ســـكن الـــديارا [١]

فيقول بأسلوب يدل على شاعريته واعتداده بنفسه :

ولـــيس بنـــا حـــب الـــديار وإنمـــا لنـــا بهـــوى الســـكان شـــغل وشـــاغل

ولشاعرنا شغف بتقليد المتنبي فقد رآه يقف على الأطلال و يترجل ويمشي في آثار الديار احتراماً وتقديراً :

ولمـــا رأينـــا رســـم مـــن لـــم يـــدع لنـــا فـــؤاداً لعرفـــان الرســـوم ولا لُـــبَّا

نزلنـــا عـــن الأكـــوار نمشـــي كرامـــة لمـــن بـــات عنـــه أن يلـــم بـــه ركبـــا [٢]

فوقف وترجل وسلَّم على الربع في البيتين الرابع والخامس من القصيدة :

وقفنـــا علـــى الأطـــلال والليـــل شـــائب وأعناقنـــا فـــوق المطايـــا موائـــل

ولمـــا رآهـــا الـــدمع ـــ والـــدمع حـــائر أنـــاخ وحيَّـــا تربهـــا وهـــو راجـــل

كما أخذ منه قوله :

كـــريم متـــى اســـتوهبته مـــا أنـــت راكـــب وقـــد لقحـــت حـــرب فإنـــك نـــازل[٣]

فقال يصف كرم الوزير الفاضل فأحسن وفاق المتنبي :

جـــواد إذا اســـتوهبته الســـيف فـــي الـــوغى وأنـــت لـــه خصـــم فإنـــك نائـــل

العاطفة :

عاطفة الشاعر تنم عن إعجاب الشاعر بالممدوح ، وقد ظهرت في مساقات ثلاثة :

أولها : في سوق الحكم المعبرة عن ثقافة الشاعر وقدرته على إقناع القارئ بها والتدليل على وجهة نظره في رؤيته للحياة وطريقة التعامل معها .

وثانيها : في الفخر بالنفس وتعظيمها ليرفع من قدره عند ممدوحه حين قال :

خلقتـــا وحفـــظ الـــود منـــا ســـجية وحســـن الوفـــا طبـــع ونعـــم الشـــمائل

ونغفـــر عـــوراء الحســـود وإن جنـــى ونعلـــم أن الخصـــم ماشـــاء قائـــل

---

[١] ديوانه ص ١٧٠ ، ونفحة الريحانة ج ١ ص ٢٤٥ .
[٢] ديوان أبي الطيب ج ٢ ص ١١٠ ، ونفحة الريحانة ج١ ص ٢٤٤ .
[٣] ديوان أبي الطيب ج ٢ ص ١٩٠ ، ونفحة الريحانة ج ١ ص ٢٤٤ .

بل إنه يذكرنا بالمتنبي الذي راح يمدح نفسه حين أراد أن يمدح سيف الدولة في قصيدته المشهورة:

واحـــر قلبـــاه ممـــن قلبـــه شـــبم ومـــن بجســـمي وحـــالي عنـــده ســـقم[1]

حين قال يخاطب الوزير الفاضل :

إليـــك عقـــوداً يكســـف الشـــمس لونهـــا وتخجـــل بـــدر الأفـــق والبـــدر كامـــل

أتتـــك تجـــر الـــذيل تيهـــاً ورفعـــة بأنـــك ممـــدوح ، وأنـــي قـــائل

وثالثها في قوة الصور والتعبير والموسيقا :

أما الصور : فالقصيدة ملأى بالصور المتناسقة الجزئية ، فعلى سبيل المثال نجد الاستعارة المكنية في قوله : (حول البعد قلبه) ، وفي : (رآها الدمع ، و يهتز قلب الأرض خوفاً ، و تحسد أعلام الجواري الرواحل ...) .

والاستعارة التصريحية في قوله : (إليك عقوداً ، الليل شائب ، فصّ ختام الملك..) .

والتشبيه في قوله :

وأصـــدح بالحمـــد الـــذي أنـــت أهلـــه كمـــا صـــدحت فـــوق الغصـــون البلابـــل

والتشبيه البليغ في قوله :

وســـار بجـــيش آصـــفي عرمـــرم هـــو البـــدر فـــيهم والنجـــوم الجحافـــل

وفي قوله : (فتحسب أن الرعب فيه زلازل) .

والتشبيه الضمني في قوله :

ومثلـــك مـــن لا يظهـــر المـــدح قـــدره ولكـــن مـــن لا يشـــكر الفضـــل جاهـــل

ألـــم تـــرأن الـــروض يثنـــي علـــى الحيـــا بنشـــر إذا مـــا باكرتـــه الحوامـــل

وكذلك في قوله :

إليـــك مصـــير الأمجـــدين وإنمـــا تصـــب إلـــى البحـــر المحـــيط الجـــداول

والكناية في قوله : (وأعناقنا فوق المطايا موائل ، و حيا تربها وهو راجل ، حفظ الود منا سجية، استوى قس وباهل ...) والكنايتان المتقابلتان في قوله :

ييممـــه الجبـــار والكبـــر بـــرده فتلقـــاه فـــي أعتابـــه وهـــو راجـــل

فقد قلب الصورة في هذا البيت رأساً على عقب فجاءت معبرة تعبيراً رائعاً عن هيبة الوزير الأعظم .

ومما يلاحظ على الصور:

[1] ديوان المتنبي ج٢ ص ١٢٩ .

ـ أنها كانت تقليدية حاكى فيها الشعراء السابقين ، ولم يأت بشيء جديد سوى الصورة الضمنية الأولى فقد وفق بها ، كذلك في الكنايتين المتقابلتين في البيت الواحد .

ـ وأن تأثير العاطفة كان واضحاً إذ مازجت الصور فجاءت مصبوغة بها معبرة عن انفعاله بالممدوح وفرحته بنصر الله له .

الألفاظ والتراكيب : واضحة وضوح الشمس في رابعة النهار ، فكل لفظ يدل على الجزالة والفخامة ، وكذلك الجمل ، والأمثلة على ذلك كثيرة منها : نقاد ، الوغى ، خصم ، الأمجدين ، الرعب ، قلب الأرض ، شامخ متضائل ، الجحافل ، جيش آصفي ، لها فوق فرق الفرقدين ، البحر الخضم ، أصدح ...) .

الموسيقا : تتجلى الموسيقا الخارجية في الوزن والقافية ، فقد جاءت القصيدة من البحر الطويل (فعولن مفاعيلن، فعولن مفاعلن) وهو من الأبحر الشعرية التي تساعد على مد النفس وهويلائم الأغراض الرصينة كالمدح والفخر ، وكذلك جاءت القافية ممدودة (نائل ، راجل ، حائل ...) .

وتتجلى الموسيقا الداخلية في المحسنات البديعية التي جاءت وافرة :

كالطباق في قوله (أهل الكمال والأراذل ، البحر المحيط والجداول ، شامخ ومتضائل ، قس وباهل ، نصير وخاذل ، يجافي ويواصل ...) .

والترادف في قوله : (تذل وتعنو ، الشعوب والقبائل ، آصفي وعرمرم " والمقصود بالآصفي : الجيش الكثير القوي " ، يكسف ويخجل ..) .

ومراعاة النظير في قوله : أناخ وحيا تربها وهو راجل ، حفظ الود منا سجية وحسن الوفا طبع ونعم الشمائل ، وعاد بتأييد وعز ودولة) .

والتضمين في قوله : (أتانا بما لم تستطعه الأوائل) : مأخوذ من قول المعري :

وإنـــي وإن كنـــت الأخيـــر زمانـــه لآت بمـــا لـــم تســـتطعه الأوائـــل [1]

والجناس في قوله : (فوق فرق الفرقدين) .

ورد العجز على الصدر في قوله :

أجـل حســدوني حــين فضِــلْتُ دونهــم وكـم حُسِـدت فـي النـاس قبلـي الأفاضـل

وقوله :

فمـــا وجـــدوا إلا الأمـــان وســـيلة إلـى عفـــو مـن تخشـى عـــلاه الوسـائل

[1] شرح ديوان سقط الزند ص ٥٦ .

الأسلوب : غلب على النص الأسلوب الخبري لأن الشاعر اعتمد السرد في أفكاره ، ولأن الخبر ينقل القارئ من فكرة إلى أخرى بطريقة متواترة سهلة ، إلا أن هذا قد يشعر القارئ بالملل ، وهنا يأتي دور الأسلوب الإنشائي بين الفينة والأخرى ليبعد هذه الرتابة وليوقظ الذهن بالغرض البلاغي المراد ، ففي قوله :

ومـــا يصـــنع الإنســـان يومـــاً بنـــوره إذا عادلـــت فيـــه النجـــومَ الجنـــادلُ

أسلوب إنشائي استفهامي غرضه البلاغي الحث على الارتفاع عن الدنايا وإعمال العقل بما يفيد ، ونفس الغرض في قوله :

وفـيم نضـيع العمـر مـن غيـر طائـل إذا مـا اسـتوى فـي النـاس قـس وباهـل

ونرى الشرط في قوله :

ولمـا رآهـا الـدمع ـــ والـدمع حـائر أنـــاخ وحيَّـــا تربهـــا وهـــو راجـــل

والغرض البلاغي التعبير عن مكانة الربع ، وأثر الذكريات الطيبة في نفس الشاعر .

وفي قوله :

إذا جـاء نقـاد الرجـال مـن الـوغى تميَّـز عـن أهـل الكمـال الأراذل

أسلوب إنشائي شرطي ، غرضه البلاغي بيان منزلة الوزير الأعظم الذي يعرف النفوس ويملك نظرة صائبة إلى الأمور تجعله يميز الغث من السمين .

أما قوله : (أفصَّ ختام الملك) : فالأسلوب فيه إنشائي للنداء ، وغرضه البلاغي التعظيم ، وقوله (ألم تر أن الروض يثني على الحيا) : فأسلوبه استفهامي غرضه البلاغي التعليل والبرهان .

الوحدة العضوية : لم تصل القصيدة إلى درجة الترابط الكامل ، بل نلمح خلخلة فيها للأسباب التالية :

١ـ أننا نستطيع أن نقدم أبياتاً ونؤخر غيرها دون أن يؤثر ذلك على القصيدة .

٢ـ أننا نستطيع أن نحذف بعض الأبيات دون أن يحدث خلل فيها .

٣ ـ أن فيها تكراراً لبعض الأفكار يدل على ارتجال القصيدة فهو مثلاً يسترفد الخليفة في البيت :

جـواد إذا اسـتوهبته السـيف فـي الـوغى وأنـــت لـــه خصـــم فإنـــك نائـــل

ويسترفده في آخر الأبيات فيقول :

وهاتيـــك أبيـــات لهـــا فتفطـرت وأنـــت لهـــا بـــالبر والبحـــر واصـــل

أما وحدة الجو النفسي فقد تحققت عند الشاعر ، وقد تكلمنا عن ذلك في الحديث عن العاطفة وتنوعها .

القصيدة الرابعة :

(الوطن والجهاد) للشاعر معروف الرصافي [1] قالها يستنهض المسلمين للجهاد :

ـ أ ـ

يـــاقوم إن العـــدا قـــد هاجمـــوا الوطنـــا ... فانضواالصـــوارم واحمواالأهـــل والســـكنا [2]

واســـــتنفروا لعـــــدو الله كـــل فتـــــى ... ممـــن نـــأى عـــن أقاصـــي أرضـــكم ودنـــــا

واستنهضـــوا مـــن بنـــي الإســـلام قاطبـــة ... مـــن يســـكن البـــدو والأريـــاف والمدنـــــا

واســتقتلوا فـــي ســـبيل الـــذود عـــن وطـــن ... بـــه تقيمـــــــون ديـــن الله والســـــننا

واســـتنكفوا فـــي الـــوغى أن تلبســـواأبداً ... عـــار الهزيمـــة حتـــى تلبســـــوا الكفنـــــا

إن لـــم تموتـــوا كرامـــاً فـــي مواطنكـــــم ... مُتُّـــــم أذلاء فيهـــــا ميتـــة الجبنـــــــا

لا عـــذر للمســـلمين اليـــوم إن وهنـــــوا ... فـــي هوشـــــة ذل فيهـــا كـــل مَـــنْ وَهَنـــــا [3]

ولاحيـــاة لهـــــم مـــن بعـــد أن جبنـــــوا ... كـــــلا ، وأي حيـــــــاة للـــذي جبنـــــــا

ـ ب ـ

لازلـــت يـــاوطن الإســـــلام منتصـــــراً ... بـــالجيش يزحـــف مـــن أبنائـــك الأُ مَنـــــا

يـــرد عنـــــك يـــد الأعـــداء خاســـــرة ... ويكشـــــف الغـــم عـــن أفقيـــك والمحنـــــا

ســـعديك مـــن وطـــن جلَّـــــت مفـــاخره ... عـــن الـــزوال فـــلا تخشـــــى بِلَـــى وفنـــــا

تـــــالله إن معاليـــــك التـــــي ســـــلفت ... تعيـــي الفصـــاحة والتبيـــــان واللســـــنا

كـــم قـــد أقمـــت علىالأيـــام فـــي شـــرف ... لنـــا وأنبـــتَّ مـــن نبـــع العـــلا غصنـــــا

إنـــا نحبُّـــــك حبـــاً لا انتهـــــاء لـــه ... يســـــتغرق الأرض والأكـــوان والزمنـــــا

نفديـــــك منـــــا بـــــأرواح مطهَّـــــرة ... أخلصـــــن لله فيـــك السِّـــــر والعلنـــــا

إذا دهتـــــك مـــــن الأيـــــام داهيـــــة ... فـــلا رعـــى الله عينـــــاً تـــألف الوســـنا

وإن منيـــت بإحـــدى المزعجـــات نُـــرِق: ... منـــا الدمـــــاء إلـــى أن تخمـــد الفتنـــــا

فقـــرَّ عينـــاً ، وطـــب نفســـاً ، وعـــش أبـــداً: ... وفـــز بمـــا شـــئت مـــن حمـــد وطيـــب ثنـــا

المعنى موجزاً :

---

[1] ديوان الرصافي (المجموعة الكاملة) ص ٤٨٩ : القصيدة من أربعة وأربعين بيتاً قسلت في الحرب العالمية الأولى حين دخلتها الدولة العثمانية ، وقد سبق التعريف بالشاعر في الباب الأول من البحث ص ٧٢ .

[2] انضوا الصوارم : سُلُّوا السيوف وانزعوها من أغمادها ، وفي ذلك كناية عن الشروع في الجهاد .

[3] الهوشة : الفتنة والهياج والاضطراب ، أراد الحرب العامة .

يعلن الشاعر التعبئة العامة والاستنفار الكامل لحماية البلاد والعباد ، ودفع العدو المهاجم ، ويطلب من جميع المسلمين بذل الغالي والرخيص في سبيل الله والحفاظ على وطن الإسلام فإما الحياة بكرامة وعزة ، وإما الموت بشرف وشهادة فالوطن أمانة في أعناق أبنائه وله عليهم فضل كبير ، فقد درجوا على ربوعه ، واستظلوا أفياءه، فحق عليهم أن يفدوه بأرواحهم ليظل قوياً عزيزاً .

سمات الأفكار :

١ـ الترتيب والتسلسل المنطقي : جاءت الأفكار متسلسلة تسلسلاً منطقياً حيث بدأ الشاعر بالحديث عن العدوان (البيت الأول) ، وضرورة صده والدفاع عن الوطن في الأبيات من (٣ ـ ٥) ، وقارن بين الحياة العزيزة والموت في سبيل الله وبين حياة الجبن والعار في الأبيات من (٦ ـ ٨) ، وفي الأبيات (٩ ـ ١٢) تغنٍ بالوطن وأمجاده وجيشه المقاتل الشجاع الذي يرد كيد العدو ، وتأكيد على الانتماء إلى الوطن العظيم ، وفي الأبيات الأخيرة (١٣ ـ ١٨) إظهار الولاء الشديد والحب الكبير للوطن المعطاء ، وإصرار على فدائه والموت في سبيله ليبقى طاهراً طيباً حميداً .

٢ـ العمق والغزارة : الشاعر مثقف ورجل أدب وعلم نراه يحشد المعاني الدقيقة العميقة ، نذكر منها :

ـ وجوب الدفاع عن الدين والوطن .

ـ ضرورة التعبئة العامة للصغير والكبير والقريب والبعيد إذا ما تعرض الوطن للخطر لأن الدفاع عنه عند ذلك يكون فرض عين [١] ، فلا عذر لأحد في التخلف .

ـ ترك الجهاد فيه ذل وهوان .

ـ الحياة في الحرية ، والموت في الذل والجبن .

ـ فضل الوطن على أبنائه .

ـ وجوب رد الجميل للوطن الحبيب .

٣ـ الأدب الإنساني الخالد : ويتجلى في المسلَّمات التي يؤمن بها كل الناس من حب الوطن والدفاع عن ترابه والحكم والأمثال والعبر التي تعبر عن مبدأ ثابت وتجربة حيوية عميقة .

فمن الحكم الأبيات : السادس والسابع والثامن .

ومن المسلَّمات الإنسانية الأبيات : الثاني عشر وما بعده مما يدل على فضل الوطن على أبنائه ويحدد دورهم في الذود عنه .

[١] يجب على كل مسلم بالغ عاقل قادر على حمل السلاح الدفاع عن الوطن إذا دخله الأعداء ، حتى المرأة تخرج للقتال دون إذن وليها : فقه السنة للسيد سابق ج٢ ص٦٢٣ .

٤ـ النزعة الإسلامية والنزعة الوطنية : فالأبيات كلها دعوة صريحة قوية للدفاع عن الوطن الغالي الذي يقيم فيه المسلمون مجتمعهم على شرع الله تعالى وسنة نبيه ، فهو يستنهض بني الإسلام (البيت الثالث) ليقيموا شرع الله (البيت الرابع) ليبقى وطن الإسلام منتصراً (البيت التاسع) ويطلب منهم الاستبسال في الدفاع عن الوطن (البيت الرابع)... بل إن كل بيت فيه حب الوطن والرغبة في علو منزلته .

٥ـ الإقناع الوجداني : فقد حرك مشاعر القوم حين أعلن أن العدو هاجم الوطن ، واستنفرهم واستنهضهم وحرضهم أن يموتوا في سبيل وطنهم ودينهم ، وبين لهم فضل الوطن على المواطنين ، وخيرهم بين الموت شرفاء وبين الحياة أعزاء أحراراً ، ووصف المنافحين عنه بالأمانة والطهارة والإخلاص وشنَّع على الجبناء الذين يرضون عيش الذل .

العاطفة :

جياشة بحب الدين والوطن والانتماء إليهما ، وقد تحدثنا عن أثرها في الأفكار حيث يدعو الشاعر إلى بذل الغالي والنفيس في سبيل الوطن والإسلام ، وسنشير ـ إن شاء الله ـ إلى أثرها في التصوير والتعبير .

التصوير : استعان الشاعر في التعبير عن عاطفته الصادقة بالخيال الجزئي :

ففي قوله : انضوا الصوارم : كناية عن إثارة الحماسة والدعوة إلىالجاهزية للقتال

وفي البيت الثاني : كناية عن فرضية القتال على كل بالغ عاقل .

وفي البيت الثالث : كناية عن التعبئة العامة .

وفي البيت الخامس (لبسوا الكفنا) كناية عن الاستعداد للجهاد حتى النصر أو الموت

ومعظم الكنايات ـ الكثيرة ـ تدور حول معنى واحد وهو الجهاد والتضحية .

والاستعارة المكنية في (لبس العار) غرضها البلاغي التنفير من الجبن والتقاعس عن الجهاد .

والاستعارة المكنية في قوله (يكشف الغم) غرضها البلاغي بيان ضرورة تطهير البلاد من الأعداء .

وقوله (لا تخشى البلى) استعارة مكنية غرضها البلاغي دوام العز والمنعة .

والاستعارة المكنية كذلك في قوله : تخمد الفتنا : حيث شبه الفتن بنار تخمد ليدل على عظيم خطرها .

وفي الفعل (تخمد) استعارة تصريحية حيث شبه القضاء على الفتن بإخماد النار والغرض البلاغي بيان أهمية القضاء على الفتن .

والاستعارة التصريحية في قوله (غصناً) في البيت الثالث عشر حيث شبه مجد الدولة الإسلامية بالغصن ، حذف المشبه وصرح بالمشبه به ليشير إلى أهميتها بين الأمم .

والتشبيه في قوله : عار الهزيمة حيث شبه الهزيمة بالعار ، فأضاف المشبه به إلى المشبه ، والغرض البلاغي التنفير من الهروب من المعركة .

والتشبيه كذلك في قوله : نبع العلا حيث أضاف المشبه إلى المشبه به لتعظيم العلا والحض على التمسك بالمجد كما يحتاج المرء إلى الماء .

وهذه الصور الجزئية التي ذكرنا بعضها توصح عاطفة حب الوطن والدعوة إلى البذل في سبيله، وكره الجبن وعار الهزيمة .

ولم يخل النص من صورة كلية مبسطة تظهر في تصوير زحف الجيش للدفاع عن الوطن ورد الأعداء ، وتعمل ـ مع الصور الجزئية ـ على توضيح العاطفة .

الوحدة العضوية : ويقصد بها : وحدة الموضوع ووحدة الجو النفسي :

وحدة الموضوع : إن نظرة متأنية متفحصة للأفكار توضح تسلسلها وارتباطها ، فالشاعر ينادي أبناء أمته ليحضهم على الدفاع عن الوطن فهذا واجبهم ، وقد استعان بالحكم ليؤيد رأيه .

وقد يقول قائل : إننا نستطيع التقديم والتأخير في الأبيات ، أو حذف أحدها ، فأين التسلسل ومتانة السرد ؟

والجواب : صحيح أننا نستطيع ذلك ، ولكن إلى حدٍ ما ، لأننا إذا نظرنا بإمعان إلى التسلسل الزمني للأفعاللمقطع (أ) فإننا نجد ربطاً قوياً للمعنى : فالاستنفار جاء أولاً وهو للجميع ، والاستنهاض يأتي بعده وهو أخص وبعده يأتي دور القتال والنضال ، ثم يأتي قوله (واستنكفوا) ساداً لكل الذرائع والمثبطات ، وهنا لابد من الحكمة التي تنهي أي تردد وتباطؤ وأخيراً الدعاء له بالنصر ، ثم تأتي أبيات المقطع (ب) لتكرربيان منزلة الوطن وتأكيد الدفاع عنه .

وحدة الجو النفسي : العاطفة واحدة في جميع أبيات القصيدة تعبر ـ كما ذكرنا ـ عن الولاء لهذا الوطن والانتماء إليه ، والعمل على رفعة شأنه .

وبهذا يمكننا القول إن الوحدة العضوية للقصيدة مكتملة فكرة ووجداناً .

التعبير : وعاء للمعاني والعاطفة ، إذ كيف يوصل الشاعر أفكاره وأحاسيسه إن لم يكن قادراً على صياغتها ضمن ألفاظ وجمل معبرة ؟

فكما أن الألفاظ تتأثر بالعاطفة ، فالعاطفة ـ أيضاً ـ تضعف أو تقوى بالجمل والتراكيب والألفاظ التي يعبر بها الشاعر ، فإن كان السبك ضعيفاً ضعفت العاطفة ، وإن كان مناسباً قوي الإيحاء قويت العاطفة وصارت أعظم تأثيراً في نفس القارئ .

الألفاظ الملائمة : أفلح الشاعر في اختيار ألفاظه والتراكيب وهي كثيرة كثيرة ، أذكر بعضها :

ففي الحث على الجهاد مثلاً : يأتي الشاعر بالكلمات المناسبة مثل : استنفروا ، استنهضوا عدو الله ، الصوارم، الأهل والسكن ، نرق ، تخمد ، قر عيناً وطب نفساً ، طيب الثناء .. وهذه الألفاظ جزلة قوية الجرس تناسب فكرة النص .

المحسنات البديعية :

أ ـ اللفظية : من عادة الشعراء البدء بالتصريع ، وهذا ما فعله الشاعر في البيت الأول ، كما نلحظ حسن التقسيم في الشطر الأول من البيت الأخير مما يكسب البيت جرساً موسيقياً لطيفاً ، ونلحظ رد العجز على الصدر في الأبيات : السابع والثامن والسابع عشر ، وتكرار وزن الأمر (استفعلوا) في قوله : استنفروا استنهضوا استقتلوا استنكفوا .

ب ـ المعنوية : نلحظ مراعاة النظير مثل : انضوا الصوارم واحموا الأهل والسكنا ، من يسكن البدو والأرياف والمدنا ، الأرض والأكوان والزمنا ،

والترادف والمزاوجة : دين الله والسننا ، الزوال والبلى والفناء ، الفصاحة والتبيان واللسن ، فقرَّ وطب ، حمد وثناء ..

والطباق في قوله : نأى ودنا ، البدو والمدن ، كراماً وأذلاء ، السر والعلن ..

وهذه المحسنات المعنوية وضحت المعنى وشحنت العاطفة ، وقد كانت المحسنات بنوعيها مشرقة عفوية لا أثر فيها للتكلف والصنعة .

الأسلوب :

يغلب على النص الأسلوب الإنشائي لأنه دعوة إلى الجهاد وقتال الأعداء .

ففي قوله ياقوم : نداء غرضه البلاغي التنبيه ، وفي قوله : انضوا واحموا : أمر غرضه البلاغي الحث واستنهاض الهمم ، وكذلك : استنهضوا واستنفروا واستقتلوا .. وقوله استنكفوا : أمر للنفي والإنكار .. والشرط في البيت السادس خرج إلى النصح والإرشاد ، والاستفهام في قوله : أي حياة للذي جبن : خرج إلى النفي . والقسم : تالله لتأكيد المعنى وترسيخه في النفس ، والشرط في البيت السادس عشر خرج إلى الإنكار ، والشرط في البيت السابع عشر خرج إلى تأكيد الفداء ، الأمر في البيت الأخير (قر عيناً ، طب نفساً ، عش أبداً) للتمني والترجي .

أما الأسلوب الخبري فقد جاء مؤكداً دور الأسلوب الإنشائي :

ففي قوله في البيت الأول : إن العدا قد هاجموا الوطن : تنبيه إلى خطورة الأمر ، وقد استخدم الشاعر أدوات التوكيد لما للأمر من أهمية

وفي البيتين السابع والثامن حكم فيها نصح وإرشاد ، والبيت التاسع للدعاء ، والبيت الحادي عشر لإظهار الحب والتقدير .

خلاصة الكلام : إن الأسلوب بشقيه كان منفعلاً بالعاطفة القوية للشاعر تجاه وطنه ، وكان كذلك فاعلاً بها زاد من أوارها وشبوبها .

القصيدة الخامسة :

يقول الشاعر المصري أحمد الكاشف [1] من قصيدة بعنوان (الحرب العثمانية الإيطالية) [2] ساخراً من الإيطاليين الذين هاجموا طرابلس الليبية عام ١٩١١ م فردهم العثمانيون وأهل البلاد على أعقابهم :

يـــا آل رومـــــة تطلبـــون أمانيـــا ... ختَّـــــالة ، أم تطلبـــون منونـــــا

جئتـــــم تجـــرون الحديـــد ورحتـــــم ... بحديدكـــــم فـــي اليـــم مغلولينـــــا

ورقصتـــــم فيـــه ســـكارى فارقصـــوا ... فـــي الليلـــة الســـوداء مذبوحينـــا

لـــئن اســـتفزكم صـــليل ســـيوفكم ... فلقـــد تبـــدَّل زفـــرة وأنينـــا

وإن ازدهتكـــــم معلمـــات ثيابكـــــم ... فلقـــد لبســـتم بعـــدهن الطينـــا

تهتـــــم علـــى نصحائكـــم وأبيتُـــــم ... فـــالآن تنصـــحكم لظـــى الرامينـــا

هـــاتوا الـــذئاب إلـــى الليـــوث فخمســـة ... منهـــم أبـــادوا منكـــم خمسينـــا

واســـتجمعوا حيتانكـــم ونســـوركم ... فالصـــائدون هنـــاك مرتقبونـــا

واســـتكثروا الـــزاد الشـــهي فإنكـــم ... وسلاحكـــم والـــزاد مأخوذونـــا

لـــم يبـــق منهـــم معســـر أو أعـــزل ... بعـــد الـــذي غنمـــوه منتصرينـــا

فكلـــوا مـــن الزقـــوم إن جاوزتُـــم ... حـــد الأســـارى واشربواالغســـلينا

واســـتكملوا المـــدد الكبيـــر بفتيـــة ... ســـيقوا إلـــى الهيجـــاء هيابينـــا

ســـيموت خوفـــاً يـــوم يشـــهد هولهـــا ... مـــن لـــم يمـــت قبـــل القتـــال جنونـــا

الجو العام للأبيات :

هذه الأبيات من قصيدة بدأها الشاعر بمدح السلطان العثماني ، ذاكراً فيها تجمع المسلمين حوله ، وطالباً منه حشد الجيوش لقتال الأعداء ، فلا يؤخذ الحق إلا بالقوة ، ومهاجماً الأوروبيين الذين يدَّعون المدنية وهم ذئاب يلتهمون البلاد واحدة إثر أخرى ، ويذكر علاقة الأخوة العرب والمسلمين بعضهم ببعض ، مادحاً من أرسل

[1] سبقت ترجمة الشاعر في الباب الأول ص ٧٣ .
[2] ديوان الكاشف ص / ١٨٣ ـ ١٨٧ / وهي تسعون بيتاً .

الزاد إلى طرابلس واصفاً لؤم الإيطاليين في هجومهم على طرابلس ثم اندحارهم وقد تركوا أسلحتهم وطعامهم للمجاهدين .

معاني الأبيات :

منَّى الطليان أنفسهم بالحياة الرغيدة في طرابلس ، فما وجدوا سوى الموت يستقبلهم ، لقد جهزوا أنفسهم عدداً وعدة ، فتشتت شملهم وضاع سلاحهم .لقد أسقط المجاهدون طائراتهم وأغرقوا سفنهم ، فلما هربوا حازوا زادهم الوفير ، ولئن عاد الإيطاليون بجموعهم الغفيرة لسوف يلقون الموت الزؤام قتلاً أو خوفاً من القتل .

العاطفة :

تغلب على النص عاطفة الشماتة والسخرية من العدو الذي حسب قتال أهل طرابلس نزهة بحرية تنتهي في بساتين ليبيا وجبال برقة ، فرأوا أنفسهم قتلى أو أسرى أو هاربين في البحر ينادون بالويل والثبور وعظائم الأمور ، وعاطفة الهزء والتحدي : فقد جاءوا بثياب غير ثياب الحرب ، وهل يلقَوْن حرباً ؟!! فإن فكروا بالعودة ثانية ولم ينتصحوا فسيلقون مصيراً أسوأ مما رأوه في البر والبحر مهما كان عددهم وعدتهم .

أثر العاطفة في الأفكار :

ذكرنا فيما مضى أن العاطفة العنصر الأول من العناصر الشعرية وعليها تقوم القصيدة ، وصحيح أن الفكر يشرف على العاطفة ويسندها ويحدث التسلسل بين المشاعر فيجعلها تتطور داخل تصميم رسمه لها [1] ، إلا أن الفكر يتأثر بها أيضاً ، ولولا العاطفة ماتولدت الأفكار ولا انقسم الناس إلى جماعات متباينة أو متوافقة في الأفكار التي يؤمنون بها وينافحون عنها .

فعاطفة السخرية والتحدي هنا فتقت المعاني التالية :

ـ تمنى العدو تحقيق أمانيه العذاب فوقع في شر أعماله ورأى الموت أمامه ، وجاء متجبراً بأساطيله فعاد يجرر أذيال الهزيمة ، وجاؤوا يرقصون مستبشرين بالنصر القادم فرقصوا ولكن ألماً من مرارة الهزيمة ، وتتبدل قعقعات السلاح وأزيز الطائرات أنيناً وحسرة وزفرة تقطع أنفاسهم ... وتزداد السخرية حين يؤكد أن مسلماً واحداً يقتل عشرة منهم ، وأنهم ذئاب جائعة لقوا أسوداً فافترستهم .

وترتفع حرارة الشماتة والتحدي إلى درجة عالية حين يؤكد أن ما جلبوه من طعام كثير كان من نصيب المجاهدين وأن السلاح المكدس انقلب عليهم سلاحاً يبيدهم ... وأن الرهبة من المسلمين تفت في عضدهم قبل أن يلقوهم ولن تغني عنهم فئتهم شيئاً ولو كثرت .

أرأيت إلى الأفكار القوية ولدتها العاطفة القوية ، وما كانت لتكون هكذا إلا لأن روح الشاعر كانت تصب ناراً على أعدائه .

[1] النقد الأدبي الطبعة الثامنة عشرة للعام الدراسي / ٩٥ ـ ٩٦ / م دولة الإمارات العربية المتحدة .

ـ أثر العاطفة في التصوير :

اتحاد العاطفة بالموضوع يغير معالمه الواقعية ويعطيه أبعاداً وصفاتٍ جديدةً ، وهذه الصفات الجديدة من صنع الخيال ، غير أن الخيال لا ينشط لتصور الأشياء بدون عاطفة [1] فهل أثرت العاطفة في الخيال ؟

إن نظرة دقيقة في الخيال الشعري تؤكد حقيقة ذلك :

فإننا نرى في البيت الثاني : جئتم تجرون الحديد : كناية عن التصميم والتفاؤل . ورحتم بحديدكم مغلولين : كناية عن الذل والخسارة ، ورقصتم سكارى : كناية عن الاستهانة بغيرهم ، وارقصوا مذبوحين : كناية عن سخرية الشاعر مما أصابهم ، والصائدون مرتقبون : كناية عن استعداد العثمانيين وأهل طرابلس للقتال .

ونرى الاستعارات في : استفزكم صليل السيوف : استعارة مكنية غرضها البلاغي توضيح لؤم الأعداء ، وفي : ازدهتكم مَعْلمات ثيابكم : استعارة مكنية غرضها توضيح فخرهم الزائف ، لبس الطين : استعارة مكنية تشير إلى نهايتهم السيئة .

وفي قوله : الذئاب والليوث : استعارة تصريحية غرضها جعل المشبة نفس المشبه به لبيان مدى قوة المسلمين وخداع الطليان ، وقوله : حيتانكم ونسوركم : تدل على السفن والطائرات ، وقوله : كلوا من الزقوم واشربوا الغسلين : شبه المرارة والأسى بالمرارة والزقوم وحذف المشبه وصرح بالمشبه به ليشير إلى مرارة النتيجة .

والتشبيه في قوله : صليل السيوف تبدل زفرة وأنينا : تشبيه بليغ غرضه البلاغي توضيح سوء المنقلب .

كل هذه الصور تتفاعل مع الجو النفسي وتعبر عنه مصبوغة بلونه ، ليس فيها مبالغة أو تهويل ، بل جاءت عفوية غير متكلفة .

أثر العاطفة في التعبير :

تفرض العاطفة استخدام كلمات خاصة تعبر عنها [2] ، فهل كانت الألفاظ مناسبة لعاطفة النص ؟

أ ـ إن نظرة إلى الألفاظ التالية (ختالة ، منون ، حديد ، الليلة السوداء ، مذبوحين ، الأنين ، الطين ، لظى ، ذئاب ، ليوث ، أبادوا ، حيتان ، نسور ، سلاح .. وغيرها كثير) ترينا أنها مناسبة للعاطفة كماً وكيفاً ، ومتأثرة بها ، وتدل على قدرة الشاعر في امتلاك ناصية اللغة واستثمار حصيلته اللغوية الثرة ، وحسن استخدامها لتعبر عن العاطفة التي تمور في نفسه تجاه الأعداء .

ب ـ وهل استخدم ألفاظاً إيحائية :

إن نظرة فاحصة ـ كذلك ـ توضح صحة ذلك :

---

[1] المصدر السابق ص ٧٧ .
[2] نفس المصدر السابق ص ٧٧ .

فكلمة تجرون : توحي بكثرة العدة وضخامتها ، وكلمة مغلولينا : توحي بالذلة والانكسار ، والليلة السوداء : توحي بفداحة مصاب الأعداء وضياع رشادهم وتخبطهم ، وكذلك كلمة مذبوحينا ، وكلمة معلمات : توحي بإعجابهم بنفوسهم والترفع على غيرهم ، وكلمة الطين : توحي بالذل والعار والموت دون كرامة ...

إن هذه الكلمات وغيرها ألقت ظلالاً رسمت صورة للشعور بطريقة غير مباشرة ، وأثارت في النفس معاني كثيرة لا نجدها في المعاجم ، إنما نلحظها من خلال موسيقا الألفاظ الإيحائية [١] .

ج ـ للبديع نصيب وافر في هذه الأبيات كما في كل هذه القصيدة ، فقد أكثر الشاعر منها دون تكلف ، فالسخرية والتحدي يتطلبان المقابلة والتضاد والموسيقا اللفظية والجناس وما إلى ذلك من أنواع البديع ، لتتجسم العاطفة فينفعل القارئ بها :

ـ أما الجناس الذي هو كالغرة في وجه الفرس [٢] فقد ورد في قوله (أمانياً ومنوناً) : جناس ناقص أعطى جرساً موسيقياً .

ـ والإرصاد [٣] وهو كثير في النص : كتوقع كلمة (منونا) بعد كلمة (أمانيا) ومجيء كلمة (مذبوحينا) بعد قوله (ورقصتم فيه سكارى فارقصوا) ، ومجيء كلمة أنينا) بعد كلمة (زفرة) ، ومجيء كلمة (خمسينا) بعد قوله (خمسة) ، ومجيء قوله (اشربوا الغسلينا) بعد قوله (كلوا من الزقوم) .

ـ مراعاة النظير : وهو أن يجمع الناظم أو الناثر أمراً مع ما يناسبه دون ذكر التضاد لتخرج المطابقة [٤] ونراه في قوله :

واستكثروا الزاد الشهي فإنكم وسلاحكم والزاد مأخوذونا

فلما ذكرهم أعقبه بما يتعلق بهم من سلاح وزاد .

و قوله : كلوا من الزقوم يستتبع قوله : واشربوا الغسلين .

ـ رد العجز على الصدر : ونجده في البيت التالي :

هاتوا الذئاب إلى الليوث فخمسة منهم أبادوا منكم خمسينا

ـ الطباق والمقابلة : وهو كثير ويستعمل لتوضيح الفكرة مثل : (أمانياً ومنونا) ، (جئتم ورحتم) ، وقوله : (رقصتم سكارى ورقصتم مذبوحين) ، وقوله : (معلمات الثياب وثياب الطين) ، وقوله (الذئاب والليوث والحيتان والنسور : في الأرض والسماء)

---

[١] المصدر السابق ص ٨٥ .
[٢] البلاغة العربية (علم البديع) ص ١٣٢ للدكتور بكري الشيخ أمين .
[٣] المصدر السابق ص ٨١ ويقول الدكتور بكري الشيخ أمين في تعريفه : (أن يُجعَل قبل العجز من الفقرة أو البيت ما يدل على تمامه إذا عُرِفت القافية أو الوزن .
[٤] المصدر السابق ص ٦٥ .

ـ المزاوجة والترادف : لتقوية المعنى وتوضيح المبهم : كقوله (الزفرة والأنين) وقوله (تاه وأبى) وقوله (معسر أو أعزل) ..

الأساليب :

لعل الأسلوب الإنشائي جاء مساوياً للأسلوب الخبري في هذه الأبيات لأن عاطفة التحدي والشماتة والسخرية تتطلب تنويع الأساليب .

الأسلوب الإنشائي : نجد النداء في البيت الأول (ياأهل رومة) للتحدي ونجد الاستفهام محذوف الهمزة (تطلبون) للسخرية ، وفي البيت الثالث نجد الأمر (ارقصوا) للشماتة ، وفي البيت الرابع نجد القسم وجوابه للسخرية من سوء المنقلب ، وكذلك في البيت الخامس . أما الطلب ففي الأبيات السابع والثامن والتاسع (هاتوا ، استجمعوا ، استكثروا) فللتحدي والاستهانة ، وكذلك الطلب في البيتين الحادي عشر والثاني عشر .

أما الأسلوب الخبري فنجد الاستهزاء في البيت والتوبيخ في البيت السادس ولم يخرج الخبر إلى غرض بلاغي غير الإفادة في البيت العاشر ، أما في البيت الأخير فإننا نجد التحدي والتصميم .

أثر العاطفة في الموسيقا :

ـ الوزن : إن اختيار البحر الكامل بتفعيلاته الستة (متفاعلن) يعطي الشاعر مدى واسعاً ونفساً طويلاً للتعبير عن الأفكار المشوبة بعاطفته الصادقة القوية ومجالاً ممتداً لإظهار سخريته وتحديه .

ـ القافية : النون بين مدين فيها انفساح وانفتاح يذهب النفس سريعاً ، فلو كانت العاطفة أنيناً وحزناً أو شوقاً وحنيناً لكان اختياره موفقاً أكثر ، لكن العاطفة هنا عاطفة حماسة وقوة وتحد ، ولعل حرف الباء ـ مثلاً ـ بقوته ، أو الراء بتكراره أو السين والصاد بصفيرهما أو الكاف والقاف بمخرجيهما كانت مناسبة أكثر ،

الموسيقا الداخلية الظاهرة : واضحة المعالم في البيت الثالث والرابع والثامن والتاسع إذ تسمع صفير السين والصاد وكأنه يوحي بصوت المعركة وصليل السيوف .. أما الموسيقا الخفية فإنها تبدو واضحة في العاطفة الصادقة مع الصور المتناسقة والأفكار المتلاحقة والمحسنات المعنوية المتعددة .

بقي أن نقول : ولد هذا الشاعر ومات في / ١٨٨٧ ـ ١٩٤٨ / م وهي الحقبة التي يعدُّها مؤرخو الأدب على أنها من العصر الحديث ، مع أن جلَّ قصائده التي قالها كانت في العثمانيين وحروبهم ، وكان يعلن ولاءه وانتماءه إليهم ، وهذا ما دفعني إلى جعله من العصر العثماني .

القصة في شعر الحروب العثمانية :

حين استعرضنا شعر الفتوح العثمانية في البابين السابقين ألمحنا إلى أن للقصة وجوداً ملموساً فيه ، ولعل ذلك عائد إلى ما يلي :

١ ـ إن الحروب كانت بين طرفين متعاديين أحدهما على حق والثاني على باطل ، والعثمانيون محاربون منذ أن وجِدوا إلى أن سقطت دولتهم . وقد كان هناك إصرار من الطرفين المتحاربين على النصر واستعداد له استعداداً مادياً ومعنوياً يصورهما الشاعر لإظهار لذة النصر عند المنتصرين ، فكانت القصة أوضح طريق إلى ذلك .

٢ ـ إن القصة في شعر الحروب العثمانية امتداد للقصة في الشعر العربي في عصوره القديمة .

وقد تناول الشعراء قصص الحروب بشكل مفصل ، فوجدت مطولات قد تتجاوز مئة بيت ، وقد تكون القصة قصيرة متوفرة العناصر ضمن قصائد ذات أغراض متعددة ، وقد تأتي في قالب قصة غير مكتملة العناصر في معرض المديح أو الهجاء فتكون جزءاً من قصيدة ذاتية :

١ ـ القصة الشعرية المطولة : رأيناها في شعر العديد من الشعراء ، لكن أطولها وأهمها: أرجوزة الشاعر السيد فتح الله التي مدح فيها الوزير حسين الجليلي [١] ، التي تعد مطولة [٢] دقيقة الوصف ، واضحة العناصر القصصية ، تصف حصار شاه العجم نادر شاه للموصل ومحاولة احتلالها وتدميرها ، فلم يفلح إذ وجد مقاومة عنيفة من أهلها وممن لجأ إليها ، ولم يفك عنها الحصار إلا بعد أن فقد من جنوده الكثيرَ ، ويئس من دخولها .

فقد وصل إلى الموصل نبأ هجوم نادر شاه وقائد جيشه طهماز على القرى والدساكر لترويع الآمنين وسلب المؤن والأقوات وهم في طريقهم إلى الموصل :

هـــذا وطهمـــاز اللعـــين قـــد أتـــى ... نحـــو قـــرى الصـــوران نحـــو أثبتـــا

ثـــم ســـــرایاه أتـــــت للحـــــلَّهْ ... ونحـــــو بغـــــداد بغيـــــر علَّـــه

ثـــم أتـــى نحـــو قـــرى بغـــداد ... لأخـــــذ قـــــوت غلَّـــــــةٍ وزاد

ثم تأكد الخبر حين وصل الهاربون من الأكراد إلى الموصل بمالهم وعيالهم :

والنـــاس أضـــحت بـــين عـــلَّ وعســـى ... لـــم يفرقـــوا بـــين صـــباح ومســـا

إذ جاءهـــــم فـــوج مـــن الأكـــراد ... بالمـــــــال والعيـــــــال والأولاد

ثم مر على كركوك (وهي مدينة في طريق الموصل) ، وأحاط بأهلها ونادى فيهم أن قدموا الطاعة لنادر شاه ، فلما تباطؤوا أحدق بهم وأصلاهم المدافع ، وأحلَّ فيهم الدمار حتى ألجأهم إلى طلب الأمان ، ولعلَّ هجومه على كركوك وتدميرها كان رسالة إلى أهل الموصل لإخافتهم :

ومـــذ أتـــى شـــهر جمـــادى الآخـــرِ ... أتانـــا خـــوف مالـــه مـــن آخـــرِ

---

[١] جرى التعريف بالشاعر والممدوح ، وذكرت بعض أبيات الأرجوزة في البحث ص ٩٣ . أما الأبيات ففي الروض النضر ج٢ ص / ٥١٢ ـ ٥٢٢ / .

[٢] المطولة تتخذ من القصة قالباً لها دون أن تلتزم بتقاليد القصة وإنما تتخذ منها قالباً عاماً يساعد على سوق الأحداث ورسم الشخصيات وما يتخلل ذلك من حكم وعبر في مساق منتظم وخط متصل ، كما أن طولها شاغل عن الافتنان والتأنق . كتاب النقد الأدبي في دولة الإمارات عام ٩٦ ص ١٠٣ بتصرف .

لكونـــه جـــــاء إلـــى كركـــــوكِ أحـــــاط بالمـــــالك والممـــــلوك

وصـــاح فـــي أجنـــاده المشـــهوره فيمـــا لـــديهم لـــم تـــزل مقهـــوره

نـــادوا ســـريعاً أهـــل هـــذا البلـــد قولـــوا لهـــم لـــيس لكـــم مـــن مـــدد

قومـــوا انزلـــوا ثـــم أطيعـــوا الشـــاها لأنـــه بجنـــده قـــد باهـــى

فمـــا أجـــابوه علـــى الفـــور وقـــد كـــان بهـــم خبـــث عظيـــم وحقـــد

فأحـــدقوا مـــن طـــرف القرايـــا ثـــمَّ أحلُّـــوا بهـــم الرزايـــا [1]

فـــأمطر القنبـــر والنـــار علـــى أهيـــل كركـــوك مصـــراً فـــي الـــولا[2]

فصـــاحت المخلـــوق بالأمـــاني فـــي ذلـــك الوقـــت لهـــذا الشـــان [3]

واستطاع الملك نادر أن يفتَّ في عضد أهل الموصل بهذه الحرب النفسية :

إذ جـــاءت الرســـل بهـــذا القـــال وأخـــذ كركـــوك وســـوء الحـــال

فاختـــل عقـــل النـــاس مـــن هـــذا الخبـــر وشـــاع هـــذا القـــول فينـــا واشـــتهر

فصاحـــت المخـــلوق بالبكـــاء بـــل شـــخَّص الطـــرف إلـــى الســـماء

وســـار ذا الملعـــون بالأجنـــاد وبـــدَّل الرقـــادَ بالســـهاد

لكن والي الموصل لما تحقق الخبر ورأى الناس خائفين ، نادى في الناس واستشارهم في حفر خندق حول الموصل وبناء سور عال ، ونفخ فيهم روح الحمية وشجعهم :

إن تنـــظر النـــاس تـــرى[4] ســـكارى بغيـــر خمـــر وهـــمُ حيـــارى

وإذ أراد الله صـــون النـــاس مـــن كيـــد ذي الـــرفض شـــديد البـــاس

ولَّـــى علينـــا آصـــف الزمـــان ورســـتم الأيـــام والأوان [5]

فنـــادى فـــي النـــاس هلمـــوا واقبلـــوا أن تســـمعوا قـــولي وإلا فاهمـــلوا [6]

فالســـور فـــي بلدتكـــم مدثـــور وخنـــدق مـــن قِـــدَمٍ مهجـــور

وآلـــة الحصـــر نعـــم معدومـــة وهـــذه عندكُـــمُ معلومـــة [7]

نحفـــر خنـــدقاً ونبنـــي ســـورا ونحـــفظ العيـــال ثـــمَّ الـــدورا

---

[1] القرايا : جمع قريَّة ، وهي بيت النمل ، أما قرية فجمعها قُرى وقِرى .
[2] القنب : عامية لكنها مأخوذة من العربية ، والقُنبرة والقُبَّرة : طائر يشبه الحُمَّرة ، جمعها قنابر ولعله شبه مقذوفات المدافع بها .
[3] المخلوق : يريد المخلوقات أي الناس ، وقد أنث الفعل .
[4] لم يجزم الشاعر جواب الشرط (إن)
[5] آصف : وزير النبي سليمان عليه السلام وكان معه الاسم الأعظم ، ورستم ملك فارسي جبار .
[6] جعل همزة القطع في أهملوا همزة وصل .
[7] لغة الشاعر عامية وركيكة .

فأدركتنـــــا غـــيرة الغيـــــور ... فـــي حفـــر خنـــدق وضـــرب ســـــور

بذلنـــــا جهـــداً وصرفنـــــا مـــالا ... لنحـــــــــفظ الأولاد والعيـــــــالا

وهكذا بذلوا جهداً كبيراً في ترميم السور وحفر الخندق ، وزاد من ثباتهم أن حاكم حلب جاء الموصل بمدد ، فارتفعت معنويات أهلها .

وكان لوالي الموصل أثر كبير في شحذ الهمم :

قـــد عقـــــد الرايـــات والبنـــــودا ... وحـــــرض الرجـــــال والجنـــــودا

وعلـــــق الابـــواب تـــم ســـــدها ... بـــداك فـــوّى النـــاس إدمـــا شـــــدها

اعطـــى مـــن الســـلاح والســـيوف ... وصـــرنا لا نخشـــى مـــن الحتـــوف[1]

كـــان يـــدور الســـور فـــي الليـــالي ... يحـــــذّر النـــاس مـــــن الوبـــــال

وحين جاء طهماز قائد جيش الصفويين إلى الموصل ووصل بجنده إلى أطرافها :

أجنـــــاده أرســـــلها فـــي القفـــر ... حتـــى انتهـــت نحـــو قرايـــا العقـــر[2]

فـــأحرقوا التيـــن كـــذا البيـــوتا ... وأحـــرزوا الغلّـــة بـــل والقـــــوتا

وأســـروا النســـــاء والأطفـــــالا ... وقتلـــــوا الشـــــبان والرجـــــالا

وحين حاصر المدينة حاول والي حلب الهجوم عليهم ، وتبعه فوج من الأكراد ومراد ابن والي المدينة ، لكنهم رُدوا على أعقابهم إلى إلى داخل السور وقتل منهم عشرون وأسرثلاثون وازداد البلاء والكرب على أهل الموصل لأنهم خسروا أول معركة لهم مع جنود الشاه نادر ، وكان الشاعر معهم وشاهد من الهول ما لم يذكر بلسان .

ويصف جنود العدو كثرة بالجراد ، وأنهم بدأوا يجمعون ليقيموا تلالاً قريبة من السور ، وكانوا مثل الشياطين لا يخافون رصاص جند الكدينة ولا سهامهم أو رماحهم ، وجاؤوا بجذوع الأشجار:

وانتشـــروا فـــي البـــر كالجـــراد ... ومـــــلأوا التـــــلال والبـــــوادي

أعقـــبهم مـــن خلفهـــم بالخيـــل ... تســـوقهم تجـــري بهـــم كالســـيل

تراهُـــمُ فـــي ســـاعة قـــد جمعـــوا ... أعظـــم تـــرب مثـــل تـــلٍّ رفعـــوا

هـــذا ولـــم يخشـــوا ولـــم ينصـــرفوا ... مثـــل الشـــياطين فلـــم ينحرفـــوا

وقطعـــوا الأشـــجار مـــن أصـــولها ... نحـــو المتـــاريس لقـــد أتـــوا بهـــا

---

[1] البيت مكسور الوزن .

[2] يؤكد الشاعر على العامية في تكرار كلمة (قرايا) ، والعقر : يريد قرى عقرة قرب الموصل .

ثم قطع الملعون الماء عن المدينة ، فلما حاول أهلها الاستسقاء منعهم بضربهم بالرصاص ، فاستعاضوا بماء الآبار .

وفي السابع من شعبان ـ وكان يوم الجمعة ـ بدأت المدافع تقذف الحمم من مقابر المدينة :

قـــد مـــلأ الأطـــواب والقنـــابرا ... أدخـــل أجنـــاداً لـــه المقـــابرا [1]

فابتـــدروا قبيـــل فجـــر الجمعـــة ... مـــن كـــلِّ أطـــراف وكـــل بقعـــة

فأرســـلوا الأطـــواب والقنـــابرا ... فـــلا تســـل عـــن حالنـــا ومـــا جـــرى

شـــرقاً وغربـــاً ، قبلـــةً شـــمالا ... برقـــاً ورعـــداً ، مثـــل ســـيلٍ ســـالا

فأحرقت الدور وهدَّت جوانب من السور ، فبكت النساء والحرائر ، وتفطرت قلوبهن ، ورأى طهماز ذلك فطمع في هدِّ السور كله ، لكن الوالي سدَّ بكتيبته إحدى الثغرات ، وفعل ذلك ابنه مراد:

هـــذا ووالينـــا الـــوزير الأعظـــم ... البطـــل الليـــث الشـــجاع الأكـــرم

قـــد جعـــل النجـــل الســـعيد المفتـــدى ... نعـــم مـــراد فـــي مقامـــات الجِـــدا

أوقفـــه فـــي بـــاب ســـنجار فلـــم ... يبـــال أطوابـــاً ولـــم يحـــذر ألـــم [2]

وثـــم والينـــا المفـــدى قـــد بنـــى ... خيمتـــه لقلـــة الأولـــى دنـــا [3]

وبدأ يبني بروجاً مطلة على أرض المعركة ليصطاد منها الأعداء ، ثم بدأت المعركة الضخمة ودامت سبعة أيام مع لياليها إلى الخامس عشر من شهر شعبان ، وهاجم الروافض السور وبدأ الاشتباك بالسلاح الأبيض :

تزاحفـــت أجنـــاده جميعـــا ... تبـــادرت لنحونـــا ســـريعا

ذو ســـلَّمٍ قـــد قصـــد التســـليقا ... وغيـــره قـــد طلـــب التعليقـــا

تظـــن حقـــاً قامـــت القيـــامه ... مـــا منـــا شـــخص أمَّـــل الســـلامه

والصـــبح قـــد عـــاد كليـــل داجٍ ... مـــن شـــدة النقـــع ومـــن عجـــاج [4]

ويصف الشاعر الهجوم القوي السريع والوصول إلى الخندق وامتلاء السور ، ودعا الناس ربهم متضرعين إليه، وبكت النساء :

حينئـــذ قـــد لطـــف الرحيـــم ... ســـامحنا فـــي ذنبنـــا الكريـــم

وأراد الله تعالى أن يرد الأعداء على أعقابهم ، فكان أن ضربوا لغماً فانفجر بهم وقُتِل منهم خلق كثير ، ودارت الدائرة عليهم وامتلأ الخندق بقتلاهم ، وغنم المسلمون سلاحهم :

---

[1] الأطواب : جمع طوب وهو المدفع (والكلمة تركية) .
[2] سنجار : باب من أبواب الموصل .
[3] القلة : رأس الجبل ، فكأن الوالي بنى تلاً عظيماً خلف السور .
[4] العجاج : الغبار الشديد .

إذ ضربـــــوا لغمـــاً غـــدا لـــديهم فعـــــاد نـــــار لفحهـــم عليهـــم

تشـــــجع النـــاس بـــذاك الوقـــت فلـــم يبـــالوا ضـــــرراً مـــن مقـــت

واشـــــتغلوا بالضـــــرب للأحجـــار كـــذاك رمـــي القنبـــر الصفَّـــار

ومـــن عـــلا الســـور مـــن الفجـــار مضـــــى سريعـــاً عـــاجلاً للنـــار

ومـــن أتـــى مـــنهم لتحـــت الســـور لـــم يقـــــدر الفـــــرار للعبـــــور

فولَّـــــوا الأعقـــــاب للفـــــرار وانقلبـــوا صـــرعى علـــى الأدبـــار

فـــامتلأ الخنـــدق مـــن أشـــباحهم إلـــى الجحـــيم ســـاروا فـــي أرواحهـــم

مـــن ســـورنا شـــجعاننا قـــد نزلـــوا كـــم فـــاجر وكافـــر قـــد قتلـــوا

وأحـــرزوا التفنـــك والســـــيوفا وقطعـــــوا الـــــرؤوس والكفوفـــــا [1]

وشجع الوالي المقاتلين فوعدهم بدفع دينارين للرأس المقطوع ، وهكذا هرب طهماز بجيشه الذي فقد ربعه .

وعدَّ الشاعر ما غنمه أهل الموصل من القذائف والمدافع والسلاح الفردي والمؤن ، ثمَّ :

فجـــاءوا ســـرعى نقلـــوا الآلات وصـــاح فـــيهم صـــائح الشـــتات

مـــن بعـــد ذا أصـــبحنا فـــي أمـــان مـــن فـــيض فضـــل الواحـــد المنـــان

نلاحظ في هذه القصيدة عناصر القصة الشعرية واضحة :

ـ فالأحداث : سبق ذكرها من خلال عرض الأبيات .

ـ والزمان : شهر شعبان ، والمكان : الموصل حول سورها وقرب خندقها .

ـ والشخصيات : بطل القصة : والي الموصل حسين الجليلي ، والشخصيات الثانوية والي حلب ، والأمين ومراد ولدا أمير الموصل ، وطهماز قائد جيش الصفويين .

ـ العقدة : هجوم الأعداء على السور واعتلاؤه ، والوصول إلى الخندق ، والضنك الشديد على أهل الموصل .

الحل : انفجار اللغم في جنود الأعداء ومقتل العديد ممنهم ، مما زرع الأمل في نفوس المدافعين، فكان الهجوم المضاد وانسحاب الأعداء وجمع قتلاهم .

أما الأسلوب : فقد كان أقرب إلى العامية ، وفي النص الكثير منها ، وقد كان بسيطاً واضحاً ، وهذا من سمات المطولات .

[1] التفنك : السلاح الفردي الناري (البارودة أو البندقية) والكلمة تركية .

وقد تناول هذه الموقعة العديد من الشعراء ، وعلى رأسهم الشاعر السيد خليل البصير [1] بأسلوب يمتاز بالقوة ومتانة الألفاظ والاهتمام بالبديع والتكلف اللفظي ولا سيما الاقتباس والتضمين ، على شكل قصصي أيضاً ، فمما قال في ذلك (بعد وصف دخول الأعاجم القرى وقتل الرجال وأسر النساء [2] :

ثـــمَّ توجـــهوا ليحصرونـــا ... ويستفزونـــا ويكسرونـــا

جـــاءوا " كـــأنهم جـــراد منتشـــر" ... فحاصـروا " فـي يـوم نحـس مسـتمر" [3]

ويذكر أن عددهم كان يفوق الخمسة والسبعين بعد مئة الألف ، ثم قال :

دنـــوا فـــأمطروا علينـــا نـــارا ... لـــم يهجعـــوا ليـــلاً ولا نهـــارا

" وإصـــبعاً كـــل مـــن الخـــلائق ... فـــي أذنيـــه حـــذر الصـــواعق " [4]

فبـــان بيننـــا ســـماط القحـــط ... حتـــى حُرمنـــا شـــرب مـــاء الشـــط

وكلنـــا يرتقـــب القتـــالا ... ممتثـــلاً بقـــوله تعـــالى :

(يـــا أيهـــا الـــذين آمنـــوا اصـــبروا ... وصـــابروا ورابطـــوا) لتنصـــروا [5]

ثم يقص ما فعل اللغم بالعجم وهم على السور :

فضـــرهم مـــا صـــنعوا مـــن اللغـــم ... إذ رده الله عليهـــم فقصـــم

وكـــل ســـلَّم رفيـــع نُصِـــبا ... جُـــرَّ إلـــى الســـور ومنهـــم سُـــلِبا

فقـــارب الســـور المبارزونـــا ... " وإنهـــم لنـــا لغائظونـــا " [6]

لمـــا رأونـــا حـــافظين الســـورا ... " ولـــوا علـــى أدبارهـــم نفـــورا " [7]

فأصـــبحوا فـــي ذلـــك اليـــوم العسِـــرْ ... " كأنهـــم أعجـــاز نخـــل منقعـــرْ " [8]

وطلب سلطان الصفويين الصلح فأجيبَ إليه :

لمـــا أريقـــت مـــنهم حمـــر الـــدما ... ببيضنـــا ألقَـــوْا إلينـــا الســـلما

فأرســـل النـــادر ســـلطان العجـــم ... يحـــاول الصـــلح ويبتغـــي الســـلم

فصـــالح الصـــدر أمـــين الموصـــل ... أعنـــي حســـيناً صـــاحب القـــدر العلـــي

تبيـــانه أكثـــر مـــن أن يذكَـــرا ... لله دره جريئـــاً أجســـرا

---

[1] وردت ترجمته في الباب الأول من هذا البحث ص ٩٥ ، وفي الروض النضير ج١ ص / ٣٤٧ / .
[2] الروض النضير ج٢ ص / ٥٣٣ ـ ٥٣٦ / أكثر من ستين بيتاً .
[3] الآية في الشطر الأول : من سورة القمر الآية / ٧ / ، والآية في الشطر الثاني من السورة نفسها / ١٩ / .
[4] هذه العبارة مأخوذة من سورة البقرة الآية / ١٩ / (يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت) .
[5] الآية / ٢٠٠ / من سورة آل عمران .
[6] سورة الشعراء الآية / ٥٥ / .
[7] سورة الإسراء الآية / ٤٥ / .
[8] سورة القمر الآية / ٢٠ / .

إذ لـــم ترُعْـــه كثـــرة القبائـــل منهـــم تأســـياً بقـــول القائـــل :

(لا أقعـــد الجـــبن عـــن الهيجـــاء ولـــو توالـــت زمـــر الأعـــداء) [1]

أمـــا الشـــقي الخـــارجي نـــادر المعتـــدي البـــاغي الظلـــوم الغـــادر

فكـــان يبـــدي الـــود والمخادنـــه بعـــد انعقـــاد الصلـــح والمهادنـــة

أقـــام فـــي ديارنـــا أيامـــا ثـــم نـــوى النهضـــة والقيامـــا

ونحـــن طائفـــون عاكفونـــا فـــي الســـور حاضـــرون حاذرونـــا

فغـــاب عـــن عســـكره المشـــؤوم فأصبـــح " النـــادر " كالمعـــدوم

صـــالوا فصـــالحوا فولـــوا الـــدبر " وكـــل شـــيء فعلـــوه فـــي الزبـــر" [2]

وفي هذه الأرجوزة نرى عناصر القصة واضحة أيضاً : فالأحداث حدثت في زمان هو يوم الجمعة في النصف من شهر شعبان :

ســـطا خميســـهم علينـــا يـــوم الجمعـــه فـــي نصـــف شـــعبان بفـــرط المنعـــه

والمـــــكان : على أسوار مدينة الموصل :

فقـــارب الســـور المبـــارزونا وإنهـــم لنـــا لغائظونـــا

والشخصيات : الوالي أمير الموصل وجنده ، والسلطان نادر وجنده .

والعقـــدة : الهجوم الكبير على أهل الموصل .

والحـــل : انفجار اللغم بهم .

فإذا ما قورنت هذه الأرجوزة بأرجوزة السيد فتح الله ، رأينا في هذه اختصاراً ، وفي تلك إسهاباً ودقة في الوصف ، ولاغرو في ذلك فالشاعر خليل البصير أعمى لا يستطيع الوصول إلى ما رآه الأول ، وحسبه ـ مع ذلك ـ أن أسلوبه كان أكثر رصانة ، وأنه استطاع أن يصف ما لم يستطع وصفه المبصرون ممن ذكروا هذه الموقعة .

ومن هذه المطولات القصصية أيضاً : المنظومة التمثيلية للشاعر حافظ إبراهيم [3]التي قالها عقب ضرب الأطول الأطول الطلياني لمدينة بيروت انتقاماً من الأتراك ، وذلك بعد أن طردوهم من طرابلس الغرب حين هاجم

---

[1] لم أعثر على قائل هذا البيت ، لكنه شاهد نحوي في المفعول لأجله ذكره ابن مالك النحوي ، واستشهد به صاحب النحو الوافي ج٢ ص ٢٤٠ ، وقال محقق أوضح المسالك إلى ألأفية ابن مالك : لم أجد في هذا الشاهد ما يدل على نسبته إلى قائل معين .

[2] سورة القمر الآية / ٥٢ / .

[3] سبقت ترجمة الشاعر في الباب الأول من هذا البحث ص ٧٥ .

الطليان المدينة عام / ١٩١٢ م / ، وقد فرض هذه الرواية بين جريح من أهل بيروت وزوج له اسمها ليلى ، وطبيب ورجل عربي ، والقصيدة من خمسة وثمانين بيتاً [١] يبدؤها بقوله :

ليـــــــلاي مـــا أنـــا حـــيٌّ يرجـــى ولا أنـــا ميْـــتُ

لـــم أقـــض حـــق بـــلادي وهـــا أنـــا قـــد قضيْـــتُ

شـــقيت نفســـي لـــو أنـــي لمـــا رُميـــت رميْـــتُ

فالجريح حزين لأن القذائف جاءته من عرض البحر فأصابته دون أن يشعر:

بيـــروت لـــو أن خصـــماً مشـــى إلـــيَّ مشيْـــتُ

أو داس أرضـــك بـــاغ لدســـته وبغيْـــتُ

لكـــن رمـــاك جبـــان لـــو بـــان لـــي لاشـــتفيت

ويتألم أن الحياة بدأت تخبو في حناياه دون أن يستطيع أن يدافع عن وطنه ويرد غائلة المعتدي ، فتجيبه زوجته المخلصة :

لـــو تُفْتَـــدى بحيـــاتي مـــن الـــردى لفديـــت

ولـــو وقـــاك وفـــيٌّ بمهجـــة لوقيـــت

ويتمنى الشاعر أن يكون قبره على جبال لبنان ، وأن يكتب عند رأسه :

هـــذا الـــذي مـــات غـــدراً هنـــا فتـــى الفتيـــان

رمتـــه أيـــدي جنـــاة مـــن جيـــرة النيـــران

قرصـــان بحـــر تولـــوا مـــن حومـــة الميـــدان

ثم يصف الإيطاليين بالجبن والهروب كالطيور الضعيفة أمام النسور ، ولو نازلوا أهل الشام لرأوا أبطالاً لا يهابون الموت ، ويرغبون بالحياة العزيزة الكريمة .

ويبدو على البعد رجل يلبس زياً عربياً ومعه طبيب ، فيطلب الوالي إلى الجريح أن :

هـــوِّن عليـــك تماســـك إنـــي ســـمعت أنينـــا

ويلتفت إلى المرأة :

بـــالله مـــا ذا دهـــاه ؟ ياهـــذه خبرينـــا

فتخبرهم المرأة بحال الجريح ، ويعاينه الطبيب فيراه يدنو من الموت فيقول :

---

[١] ديوان حافظ إبراهيم ص / ٣٨٣ ـ ٣٩٠ / .

أواه إنِّـــــــــــــــي أراه بـــالموت أمســـى رهينـــا

جـــــــراحه بالغـــــــات تعيـــي الطبيـــب الفطينـــا

وعـــــن قريـــب سيقضـــي غـــضَّ الشـــباب حزينـــا

فيثور العربي لهذا المصير الحزين قائلاً :

أفٍّ لقـــــوم جيـــــــــاع قـــد أزعجـــوا العالمينـــا

قِـــــراهمُ أيـــــن حلُّـــــوا ضـــرب يقـــد المتونـــا

عـــــاثوا فســـــاداً وفـــــروا يســـــتعجلون الســـــفينا

ويهاجم أوروبة وحضارتها الكاذبة ، فكلها مكر وخداع وإيذاء للآخرين :

ثم يموت الجريح فيأسى العربي ويقول مهدداً الأعداء المجرمين :

فيـــــا شـــــــهيداً رمتـــــه غـــدراً كـــرات الأعـــادي

نـــــم هانئـــــاً مطمئنـــــاً فلـــم تنـــــم أحقـــــادي

فســـــوف يرضـــــيك ثـــــأر يـــذيب قلـــب الجمـــــاد

فهذه التمثيلية قصة تفتقر إلى العقدة والحل ،، وإلى زمان أوضح وإن كان معروفاً ،، يمتاز أسلوبها بالرصانة ، والنص من مجزوء الكامل ، لكنها لا ترقى في صياغة القصة وقوة العاطفة إلى أرجوزة السيد فتح الله ، ولكل منهما سلبياتها وإيجابياتها .

أما القصة القصيرة ضمن المطولة فمثالها : قصة زينب المتطوعة في موقعة (مضيق ملونا) في مطولة (صدى الحرب) ذات الأبيات الستة والستين بعد المئتين لأمير الشعراء أحمد شوقي [1] وفيها يصف الفتاة (زينب) التي تحمل بيديها لواء الحرب وتسير به تحدو الجيش إلى قتال اليونان ، فيدور حوار بينه وبينها :

فقلـــت : مـــن الحـــامي ؟ أليـــث غضـــنفر مـــن التـــرك ضـــار أم غـــزال مربَّـــبُ ؟

أم الملـــك الغـــــازي المجاهـــد قـــد بـــدا أم الـــنجم فـــي الأرام أم أنـــت زينـــب ؟

ثم يمدحها لانخراطها في الجيش ، تقاتل الأعداء وتشد من عزيمة الرجال ، فتقول له : ما دمت شاعراً فصف بسالة النساء وشجاعتهن :

فقالـــت : شـــهدت الحـــرب أو أنـــت موشـــك ؟ فصـــــفنا فأنـــــت الباســـــل المتـــــأدب

وانطلقت إلى قلب المعركة :

ونـــادت فلبـــى الخيـــل مـــن كـــل جانـــب ولبى عليـــها القسْـــور المترقب

[1] ديوانه ج١ ص / ٤٨ ـ ٥٠ / .

ثم يصف المعركة وما فيها من أهوال وشجاعة المجاهدين ، واستئسار الأعداء الخائفين ، وتراه بعد ذلك يهرول إلى الفتاة معجباً بشجاعتها وشجاعة أمثالها :

فقبَّـــلت كفـــاً كـــان بالســـيف صـــارماً وقبلـــت ســـيفاً كـــان بـــالكف يضـــرب

وقلـــت : أفـــي الـــدنيا لقومـــك غالـــب وفـــي مثـــل هـــذا الحجـــر ربـــوا وهـــذبوا

في هذه القصة يغلب أسلوب الإنشاء والسرد ، فنحن لا نرى إلا قالب القصة أين منها وضوح الأحداث والعقدة والحل .. إلا أن فيها حواراً بين شخصيتين : بطلة القصة والراوي الذي لم يسمح لنا برؤية الشخصية إلا من خلاله .

لكن قصة الحاج عبد الأزل أوضح في عناصرهامن سابقتيها : فالبطل كهل خالط البياض سواد شعره ، يركب فرساً يماثله كهولة ، عاشا صديقين منذ زمن لا يأنس أحدهما إلا بالآخر . انطلق الفرس بصاحبه إلى حومة الوغى فهذا دأبهما كلما دعا داعي الجهاد ، فهمة البطل في النزال تفوق همة الشباب ، فإذا مااهتز في ساحتها كالسيف الباتر انثنى الفرس كالغزال الربرب ، ولكن في هذه المعركة حدث ما كان في الحسبان فقد توالى الرصاص منهمراً عليهما ، فأصاب من الفرس مقتلاً ، ويأبى الحاج المجاهد إلا أن يستمر في القتال ويلحق بفرسه الحبيب ، فلطعم الموت في القتال ألذ من طعمه على فراش الموت ، ودفن مع فرسه في بقعة واحدة .

قصة رائعة شدت اهتمام القارئ وجعلته يتفاعل مع الشهيد وفرسه ، ويكبره أن رغب بالموت في ميدان المعركة على الرغم من كبر سنه [1] يقول الشاعر :

وأشـــمط ســـواس الفـــوارس أشـــيبا يســـير بـــه فـــي الشـــعب أشـــمط أشـــيبُ

رفيقـــا ذهـــاب فـــي الحـــروب وجيئـــة قـــد اصـــطحبا ، والحـــر للحـــر يصـــحب

إذا شـــهداها جـــددا هـــزة الصِّـــبا كمـــا يتصـــابى ذو ثمانيـــن يطـــرب

فيهتـــزُّ هـــذا كالحســـام وينثنـــي وينفـــر هـــذا كالغـــزال ويلعـــب

تـــوالى رصـــاص المطلقـــين عليهمـــا يخضِّـــل مـــن شـــيبيهما ويخضِّـــب

فقيـــل : أنـــل أقـــدامك الأرض إنمـــا أبـــرُّ جـــواداً ـــ إن فعلـــت ـــ وأنجـــب

فقـــال : أيرضـــى واهـــب النصـــر أننـــا نمـــوت كمـــوت الغانيـــات ونعطـــب

ذرونـــي وشـــأني والـــوغى لا مباليـــاً إلـــالموت أمشـــي أم إلـــى المـــوت أركـــب

أيحملنـــي عمـــراً ، ويحمـــي شـــبيبتي وأخـــذله فـــي وهنـــه وأُخيِّـــب ؟

إذا نحـــن متنـــا فادفنونـــا ببقعـــة يظـــل بذكراهـــا ثرانـــا يُطَيَّـــب

[1] من مطولة / صدى الحرب / للشاعر أحمد شوقي ج١ ص ٥٠ .

ولا تعجبـــوا أن تبســل الخيــل إنهـــا لهـا مثـل مـا للنـاس فـي المـوت مشـرب

فماتـــا أمـــام الله مـــوت بســـالة كأنهمـــا فيـــه مثـــال مُنصَّـــب

ويقول الشاعر في قصيدة أخرى في نفس القصة [1] :

وربَّ مجـــاهدٍ شـــيخٍ مبجَّـــلْ ترجلـــت الجبـــال ومـــا ترجَّـــل

أراد ليركـــب المـــوت المحجَّـــل إلـــى أجـــداده المســـتشهدينا

وفـــى لجـــواده ، وحنـــا عليـــه وقـــد شخصـــت بنادقهـــم إليـــه

وصـــاب رصاصـــها يـــدمي يديـــه وأوشـــكت الســـواعد أن تخونـــا

تعـــوَّد أن يصيـــب وأن يصـــابا فخوطـــب فـــي النـــزول فمـــا أجابـــا

وقـــال ـ وقـــد قضـــى ـ قـــولاً صـــواباً هنـــا فليطلـــب المـــرء المنونـــا

أما القصة التي يرويها الشاعر ضمن قصيدة ذات غرض شعري واحد أو غرضين فمثالها القصة الواردة في قصيدة البهاء البعلي ومطلعها :

بـــالفتح زاد الـــدين عـــزاً واعتلـــى والله أعظـــم منَّـــة وتفضـــلا

وقد سبق أن درسناها دراسة وافية في هذا الباب [2] ، وقصيدة فيض الله بن أحمد القاف ومستهلها:

لله درُّ جيـــوش الـــروم إذ ظهـــروا علـــى الـــروافض إذ صـــارت بهـــم عبـــر

التي درسناها ـ كذلك ـ دراسة وافية في هذا الباب [3] .

وبعد فإن استعراضنا للقصائد الخمسة التي اخترناها من القرون العثمانية المتعددة دراسة ونقداً أكد لنا أن شعر الحروب والفتوحات في العصر العثماني يمتاز ـ غالباً ـ بما يلي :

١ ـ كانت الأفكار تتسم بما يلي :

أ ـ التسلسل والترابط في سردها سواء أكانت معاني وأفكاراً مترابطة يقود بعضها إلى بعض ، أم جاءت في قالب قصصي يستكمل عناصره الفنية في بعض القصائد ، ويفتقر في بعضها الآخر إلى الحبكة الفنية .

ب ـ الثقافة الإسلامية الواعية ، والفخر بالانتماء إلى الإسلام والخلافة العثمانية ، وأستطيع أن أقول : إن الانتماء إلى الخلافة العثمانية عند شعراء القرن الرابع عشر كان أقوى من غيرهم من شعراء القرون الأخرى ، وعودة إلى شعر أمير الشعراء شوقي وأحمد الكاشف وصادق والرصافي أكبر دليل على ذلك .

ج ـ الإقناع الوجداني مما أدى إلى سرد الأدلة والبراهين لإقناع القارئ ، وعمق الأفكار وغزارتها ، وحسن العرض والتعليل .

---

[1] ديوانه ج٣ ص ٢٨٣ .
[2] الباب الثالث من هذا البحث ٠ص ٢١٩ وما بعدها .
[3] الباب الثالث من هذا البحث ص ٢٠٨ وما بعدها .

د ـ امتزاج الأفكار بالوجدان وقد أدى هذا إلى تفاعل القارئ بالأدب وانبثق عن ذلك تأثير أفكار الشعراء بالقراء إيجاباً .

هـ ـ الأدب الإنساني الخالد الذي تجلى في بث الحكم والعظات الكثيرة التي تدل على نضج الشعراء وعمق التجربة والمعاناة ، وقد يفرد الشاعر الحكم في قصائد كاملة تدل على الرؤية الواقعية للحياة .

٢ ـ وكان التعبير يتسم بما يلي :

أ ـ الألفاظ تناسب العاطفة نوعاً وكماً ، أما نوعاً فبالألفاظ الموحية بالعاطفة التي أدلت بدلوها في إثراء المعنى وإلقاء الظلال ، إلا أنها كانت ـ على الأغلب ـ على غير المستوى المطلوب .كما كانت ملائمة للفكرة ، فلكل غرض من أغراض الشعر ألفاظه التي تماشيه .

وأما كمَّاً : فإن حرارة العاطفة وتتابع الأفكار تحتاج إلى كلمات أكثر ، وعودة إلى سمات الأفكار في القصائد المدروسة توضح ذلك .

ب ـ الأساليب تنوعت أيضاً ، فقد يغلب الأسلوب الخبري في سرد الأحداث ، ويكون للأسلوب الإنشائي دور الربط وإثارة الانتباه خاصة أنه يخرج ـ في الغالب ـ إلى أغراضه البلاغية .

ج ـ المحسنات البديعية : وكان لها ـ بنوعيها ـ القدح المعلى في تزيين الأسلوب والتراكيب وساعدت في إبراز الأفكار والعاطفة وأكسب النص موسيقا مناسبة ، ولا ننسى أن بعضها جاء متكلفاً ، لكنه تكلف غير ممجوج .

٣ ـ وكان التصوير يتسم بما يلي :

أ ـ التصوير الجزئي تقليدي ، لكن تناسقه مع العاطفة والفكار ولَّد في بعض الأحيان صوراً كلية متحركة .

ب ـ كما ظهر الخيال الكلي بألفاظه المناسبة وخطوطه المتشابكة : اللون والحركة والصوت، وقد تستغرق الصورة أبيات عدة تعج بالحياة وخاصة في تصوير المعارك .

٤ ـ وقد كان للقصة دور بالارتفاع بمستوى شعر الفتوحات ، وقد اكتملت عناصرها في بعض القصائد مما يدل على قدرة شعرية رائعة ، واقتصربعضها على الحوار ، واهتم بعضها بالقالب القصصي دون عناصره ، ولا أزعم أن الشعر كان بمستوى جيد دائماً فهناك قصائد ضعيفة متهالكة أمثال قصيدة العرضي في مدحه شيخ الإسلام بالي زادة [١] ، ولعل هذا عائد إلى أن العرضي لم يكن شاعراً بل فقيهاً كاتباً ، وعلى الرغم من الحبكة الفنية القوية لأرجوزة السيد فتح الله التي تعد من فن المطولات إلا أن لغتها كانت أقرب إلى العامية المبتذلة .

إلا أنني أظن أن الشعر في العصر العثماني عامة وشعر الفتوحات خاصة كان جيداً .

[١] القصيدة في الباب الأول من هذا البحث ص ٤٩ . وفي خلاصة الأثر ج ٢ ص٩٤ .

وأخيراً فإني أضم صوتي إلى صوت الأستاذ الدكتور عمر موسى باشا لأهيب بالدارسين أن يِيمموا وجوههم شطر هذه الفترة الزمنية من أدبنا الزاهر دراسةً وتمحيصاً ليستخرجوا كنوزها وينفضوا عنها غبار الإغفال والإهمال [1].

[1] تاريخ الأدب العربي / العصر العثماني / للدكتور عمر موسى باشا ص ٧ .

الـخـاتمـــــــــة

وفيها أجمل ماتم بحثه في هذه الرسالة :

المقدمة : كانت دحض افتراءات المستشرقين ـ ومن نهج نهجهم ـ على الدولة العثمانية الإسلامية ، موضحاً أن شعار العثمانيين حين قامت دولتهم كان نشر الإسلام والدفاع عنه ، مستشهداً بأقوال الخلفاء أنفسهم وبأعمالهم في سبيل تحقيق ذلك ، وأن المسلمين العرب استنصروهم على المماليك الذين عطلوا شريعة الله ، ووصل منهم ـ العرب ـ إلى مراتب رفيعة في الخلافة العثمانية ، مركزاً على أن هذه الافتراءات صدرت عن الصليبيين العرب والغربيين ، مستغلين ما فعله الكماليون بالعرب ، فوضحت أن أتاتورك والطورانيون هم الذين أساءوا إلى الإسلام ، بل إنهم لم يطتفوا بذلك بل ألغوا الخلافة الإسلامية .

وأكدت على أن الشعر العثماني ينتهي بانتهاء الدولة العثمانية لا بدخول نابليون بونابرت إلى مصر ، مستشهداً بانتماء كبار الشعراء إلى الخلافة الإسلامية العثمانية أمثال شوقي وحافظ وغيرهما

ثم وضحت طريقتي في البحث الأكاديمي ، بعد أن بينت سبب اختياري لهذا الموضوع .

التمهيد :

تحدثت فيه عن نشأة الدولة العثمانية واعتناق الأتراك الإسلام ، والعمل على نشره والدفاع عنه ، وخصصت دراستي للفترة الواقعة ما بين فتح السلطان سليم الأول للبلاد العربية وانتهاء الخلافة العثمانية أي ما بين العامين /١٥١٦ ـ ١٩٢٤ م/ ، والتي دامت أربعة قرون .

وقد استفدت من تقسيمات المؤرخين لعصور الخلافة الثلاثة : قوة وضعفاً وانحطاطاً وترجمت لكل خليفة منهم باختصار موضحاً أهم الأحداث التي جرت في عهده ، منوهاً إلى الصدور العظام ذوي التأثير القوي في مسيرة الخلافة العثمانية .

وركزت على عوامل الضعف في العصر العثماني الثاني ، وسمات العصر في أوروبة وغيرها في عهد التراجع والانحطاط .

الباب الأول : شعر الفتوحات العثمانية مضموناً :

قسمت هذا الباب إلى ثلاثة فصول :

<u>الفصل الأول :</u> شعر الفتوحات في الجبهة الغربية : ذكرت أولاً أسباب قلة الأشعار العربية التي رصدت الحروب العثمانية في أوروبة ، وعرضت بعض القصائد والأبيات التي أرخت لهذه الحروب ، معتبراً التسلسل الزمني للفتوحات ، معلقاً في أحايين كثيرة على الأفكار المطروحة ، ومترجماً للشاعر والممدوح والمعركة ، كما عرَّجت على ذكر المعارك التي لم تكن لصالح العثمانيين على الجبهة الغربية .

الفصل الثاني : شعر الفتوحات في الجبهة الشرقية :

ذكرت إضاءة لتاريخ الصفويين في إيران وأهم ملوكهم ، وسجلت المعركة بينهم وبيم العثمانيين كما أوردها صاحب كتاب مفاكهة الخلان ، ثم تحدثت عن اجتماع الصفويين والغرب على حرب العثمانيين ، وذكرت بعض القصائد والمقطوعات والأبيات التي أرخت لتلك الحروب .

الفصل الثالث : شعر الحرب في البلاد العربية :

وذكرت فيه إضاءة عن الدروز ونشأتهم وعلاقة الدولة العثمانية بهم ، ثم ذكرت القصيدة التي تبسط تمردهم ، وتذكر القضاء عليهم .

ب ـ وتحدثت باختصار عن محمد علي باشا وعلاقته بالخلافة العثمانية ، وعرجت على تذمر المسلمين من تسلط غيرهم على مقدراتهم .

الباب الثاني : الأغراض الشعرية :

وتحدثت فيه عن الأغراض التالية :

١ـ المديح : وقد قسمته إلى مديح الخلفاء ومديح الوزراء وكبار القوم ومديح عامة الناس .

٢ ـ الفخر : بالشعر وبالنفس ، فكراً وشجاعة ، وبالأخوة الإسلامية ..

٣ ـ الرثاء : وجعلته قسمين : رثاء الأشخاص ورثاء المدن .

٤ ـ الوصف : لما تقع عليه العين أثناء الحروي وما بعدها من دمار وإبادة وسلاح .. وتصوير لغدر الأعداء وجرائمهم وذلك كله من خلال أحاسيس الشاعر .

٥ ـ الهجاء : وقد قسمته إلى :

ـ هجاء المحتلين الأوروبيين .

ـ وهجاء الصفويين .

ـ وهجاء الخونة والفاسدين من العرب والأتراك .

وأدخلت فيه اللوم والتأنيب والشماتة .

٦ ـ النزعة الإسلامية : وضحت فيها حب الإسلام وأهله ، والولاء في الله ، ونصر الله للمجاهدين بملائكته ، وحض المجاهدين على القتال .

٧ ـ الحكمة : عرضت باقة من حكم الشعراء ، ونبهت إلى اهتمام العثمانيين بهذا الغرض حتى أفردوا له مقدمات القصائد ، بل قصائد كاملة .

٨ ـ حب الوطن والحنين إليه : وذكرت الشوق إليه والذكريات الجميلة وعطاءه الفياض .

٩ ـ التفجع : وهو غرض جديد ظهر حين بدأت الدولة العثمانية تنهار وتتفكك ، مع ذكر المصائب التي حلت بالمسلمين ، وهو غير الرثاء .

١٠ ـ النصح والإرشاد والحث على النهوض : ونبهت إلى أن ذلك قد يكون بما يشبه الوخز والتوبيخ .

١١ ـ التأريخ الشعري : وذكرت نشأته وطريقته مع بعض الأمثلة .

ثم أتبعت الأغراض بإضاءة عن القديم والجديد في أغراض الشعر .

الباب الثالث : دراسة فنية ونقدية ، وتشمل :

سمات الأفكار ، وسمات التعبير والصورة الشعرية والموسيقا والوحدة العضوية للقصيدة ، وذلك في خمس قصائد لشعراء من عدة قرون تبين مكانة الشعر العربي في العصر العثماني مدللاً على جودة هذا الشعر حاضاً دارسي الأدب أن يهتموا به ويحلوه المحل المناسب في دراستهم للشعر العربي عامة ، وأن يدرسوه بتجرد عن الأهواء وبعد عن التقليد للمستشرقين ومن لفَّ لفهم .

ثم تحدثت عن القصة في القصة في شعر الفتوحات العثمانية وحروبها ، فركزت على ما يلي : أ ـ القصة التي استغرقت مطولة .

ب ـ القصة التي استغرقت جزءاً من المطولة .

ج ـ القصة في القصائد الذاتية .

ثبت المراجع

١ـ ابن الرومي (حياته من شعره) : عباس محمود العقاد ، منشورات المكتبة العصرية صيدا ـ بيروت / ١٤٠٤ هـ ـ ١٩٨٤ م / .

٢ ـ أخبار الدول وآثار الأول (ثلاثة مجلدات) : أحمد القرماني ، دراسة فهمي عبد الرزاق سعد وأحمد حطيط ، عالم الكتب بيروت / ١٩٩٢ / .

٣ ـ الأدب والنصوص للصف الثالث الثانوي في دولة الإمارات العربية المتحدة ، الطبعة العشرون ، دار الغرير / ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٦ م / .

٤ ـ الأسلوب الصحيح في البلاغة والعروض : تأليف جماعة من الأساتذة وفقاً لمنهج وزارة التربية الوطنية ، منشورات دار الحياة بيروت د.ت (دون تاريخ) .

٥ ـ الأعلام : قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين (٨ مجلدات) خير الدين الزركلي ، نشر دار العلم للملايين ، بيروت الطبعة السادسة / ١٩٨٤ م / .

٦ـ أوضح المسالك لإلى ألفية ابن مالك (أربعة أجزاء) : لابن هشام الأنصاري ، تحقيق محيي الدين عبد الحميد ، دار الفكر بيروت .

٧ـ إيران وعلاقتها الخارجية في العصر الصفوي من (٩٠٦ ـ ١١٤٨هـ / ١٥٠٠ـ ١٧٣٦ م) تأليف نصر الله فلسفي ،ترجمة محمد فتحي يوسف الريس ، نشر دار الثقافة للطباعة والنشر / ١٩٨٩ م /

٨ ـ البلاغة العربية في ثوبها الجديد (ثلاثة أجزاء) : الدكتور بكري الشيخ أمين ، نشر دار العلم للملايين ، الطبعة الثانية / ١٩٨٤ م / .

٩ ـ تاريخ الأدب العربي : أحمد حسن الزيات ، نشر دار الثقافة بيروت ، (الطبعة الثامنة والعشرون / ١٩٧٨ م / .

١٠ ـ تاريخ الأدب العربي : لعمر فروخ (٦ مجلدات) نشر دار العلم للملايين بيروت ، الطبعة الثامنة (حزيران / يونيو) ١٩٨٤ م .

١١ ـ تاريخ الأدب العربي (العصر العثماني) : الدكتور عمر موسى باشا ، نشر دار الفكر المعاصر بيروت ، دار الفكر دمشق ، الطبعة الأولى / ١٤٠٩ هـ ـ ١٩٨٩ م / .

١٢ ـ تاريخ تركيا : محمود شاكر ، نشر المكتب الإسلامي / ١٤١١ هـ ـ ١٩٩١م / .

١٣ـ التاريخ العثماني : محمود شاكر المكتب الإسلامي الطبعة السابعة /١٤١١ هـ ـ ١٩٩١/م.

١٤ ـ جوانب مضيئة في تاريخ العثمانيين : زياد أبو غنيمة ، نشر دار الفرقان ، الطبعة الأولى / ١٤٠٣ هـ ـ ١٩٨٣ م / .

١٥ ـ الحركة الشعرية في حلب في القرن الحادي عشر الهجري : الدكتورة زينب بيره جكلي ، رسالة دكتوراه لم تطبع بعد / ١٤١٤ هـ ـ ١٩٩٤ م / .

١٦ ـ حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر (ثلاثة أجزاء) : الشيخ عبد الرزاق البيطار ، حققه ونسَّقه وعلق عليه : محمد بهجة البيطار ، نشر دار صادر بيروت ، د، ت .

١٧ ـ خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر : للمؤلف : محمد أمين بن فضل الله بن محب الدين بن محمد المحبي ، نشر مطبعة دار السعادة ، مطبعة الوهيبة بمصر / ١٢٨٤هـ/ .

١٨ ـ در الحبب في تاريخ أعيان حلب (جزء بقسمين) تأليف ابن الحنبلي رضي الدين ممحمد ابن إبراهيم بن يوسف الحلبي ، حققه محمود الفاخوري ويحيى زكريا عبارة ، دمشق / ١٩٧٢ م / .

١٩ ـ الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها : الدكتور عبد العزيز الشناوي القاهرة ١٩٨٠م.

٢٠ ـ ديوان أحمد الكاشف : دراسة وتحقيق وتعليق الأستاذ الدكتور محمد إبراهيم الجيوشي ، الهيئة المصرية للكتاب / ١٩٨٧ م .

٢١ ـ ديوان إسماعيل صبري : صححه وضبطه حسن رفعت ، نشر مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة / ١٣٥٧ هـ ـ ١٩٣٨ م / .

٢٢ ـ ديوان الأمير منجك بن محمد : المطبعة الحنفية ، دمشق /١٨٨٣م/ ، د.ت .

٢٣ ـ ديوان البارودي (أربعة مجلدات) حققه وضبطه وشرحه : على الجارم ومحمد شفيق معروف ، نشر دار العودة بيروت ، طبع عام / ١٩٩٢ م / .

٢٤ ـ ديوان حافظ إبراهيم ، ضبطه وصححه ورتبه : أحمد أمين ، أحمد الزين ، وإبراهيم الإبياري ، نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب ، الطبعة الثالثة / ١٩٨٧ م / .

٢٥ ـ ديوان الشيخ أمين خالد الجندي : محمد كمال بكداش ، المكتبة الأنسية ، مطبعة المعارف بيروت د.ت .

٢٦ ـ ديوان صادق : الجزء الثاني وادي الدموع : محمود محمد صادق ، المطبعة التجارية الكبرى بشارع عابدين (د . ت) .

٢٧ ـ ديوان صدى الخاطر : للشاعر أمين بك ناصر الدين اللبناني ، مطبعة الصفاء ، عِبية ، لبنان ،/١٣٣١هـ ـ ١٩١٣ م / .

٢٨ـ ديوان معروف الرصافي (المجموعة الكاملة) : من التراث العربي ، منشورات دار الحياة ، لبنان ، الطبعة السادسة / ١٩٥٧ م / .

٢٩ ـ ديوان ولي الدين يكن : الطبعة الأولى ، مطبعة المقتطف والمقطَّم بمصر / ١٣٤٣ هـ ـ ١٩٢٤ م / .

٣٠ ـ الروض النضر في ترجمة أدباء العصر : تأليف عصام الدين عثمان بن علي بن مراد العمري ، تحقيق الدكتور سليم النعيمي ، مطبعة المجمع العلمي العراقي / ١٣٩٤ هـ ١٩٧٤م / .

٣١ ـ رياض الصالحين للإمام النووي الدمشقي ، حققه وأخرج أحاديثه : عبد العزيز رباح ، أحمد يوسف دقاق ، وشعيب الأرنؤوط ، توزيع : الرئاسة العامة لإدارة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد في الرياض المملكة العربية السعودية ، دار المأمون للتراث / ١٢٠٢ هـ ـ ١٩٨٢ م / .

٣٢ ـ السلاطين العثمانيون : تأليف عبد القادر ده ده أوغلو ترجمة محمد جان ، دار سحنون للنشر والتوزيع ، تونس / ١٩٩٠ م / .

٣٣ ـ السلطان المجاهد محمد الفاتح (فاتح القسطنطينية) تأليف زياد أبو غنيمة ، نشر دار الفرقان عمان الأردن ، الطبعة الثانية / ١٤٠٤ هـ ـ ١٩٨٤ م / .

٣٤ ـ سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر : لأبي الفضل محمد خليل بن علي المرادي ، نشر دار ابن حزم / لبنان ، ودار البشائر الإسلامية / عمَّان ، الطبعة الثالثة / ١٤٠٨ هـ ـ ١٩٨٨ م / .

٣٥ ـ شذرات الذهب في أخبار من ذهب (ثمانية مجلدات) : لابن العماد عبد الحي الملقب بأبي الفلاح الحنبلي ، نشر دار المسيرة بيروت / ١٩٧٩م /

٣٦ ـ شرح ديوان سقط الزند للمعري : تحقيق الدكتور ن . رضا ، منشورات دار الحياة بيروت / ١٤٠٧ هـ ـ ١٩٨٧ م / .

٣٧ ـ الشعر الحجازي في القرن الحادي عشر الهجري / ١٠٩١ هـ ـ ١٦٨٨ م / : الدكتور عائض بن بنية الردادي ، القسم الثاني ، د . ت .

٣٨ ـ الشعر الحديث في الحجاز / ١٩١٦ ـ ١٩٤٨ م / : عبد الرحيم أبو بكر ، الصادر عن دار المريخ الرياض ، طبع بمطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب ، رقم الإيداع بدار الكتب المصرية : ١٩٨٠/٤٨٦٨ ، أنهى كتابه صيف ١٩٧٣ القاهرة .

٣٩ ـ الشوقيات للشاعر أحمد شوقي (أربعة أجزاء) : نشر دار الكتاب العربي ، بيروت ، الطبعة الحادية عشرة / ١٤٠٦ هـ ـ ١٩٨٦ م / .

٤٠ ـ صحوة الرجل المريض أو السلطان عبد الحميد والخلافة الإسلامية : موفق بني المرجة ، الناشر : أحمد عبد الله الفليح ، مؤسسة صقر الخليج للطباعة والنشر / ١٩٨٤ م / .

٤١ ـ صحيح البخاري (أربعة مجلدات) : نشر دار الفكر / ١٤٠١ هـ ـ ١٩٨١ م / .

٤٢ ـ طائفة الإسماعيلية : محمد كامل حسين ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة / ١٩٥٩ / .

٤٣ ـ العثمانيون في التاريخ والحضارة : الدكتور محمد حرب ، نشر دار القلم دمشق ، الطبعة الأولى / ١٤٠٩ هـ ـ ١٩٨٩ م / .

٤٤ ـ العثمانيون والروس : الدكتور علي حسون ، المكتب الإسلامي ، الطبعة الأولى / ١٤٠٢ هـ ـ ١٩٨٢ م / .

٤٥ ـ العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب (مجلدان) شرح ناصيف اليازجي ، دار بيروت للطباعة والنشر / ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١ م / .

٤٦ ـ العقد الفريد (أربعة مجلدات) : أحمد بن عبد ربه الأندلسي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت لبنان ، الطبعة الأولى / ١٤٠٩ هـ ـ ١٩٨٩ م / .

٤٧ ـ العقود الدرية في الدواوين الحلبية / ديوان مصطفى البابي الحلبي ، جمع محمد راغب بن محمود الطباخ ، نشر المطبعة العلمية حلب / ١٩٢٩ م / .

٤٨ ـ عقيدة الدروز : عرض ونقض : تأليف الدكتور محمد أحمد الخطيب ، دار عالم الكتب ، الرياض ، الطبعة الثالثة / ١٤٠٩ هـ ـ ١٩٨٩ م / .

٤٩ ـ فقه السنة (ثلاثة مجلدات) : السيد سابق ، دار الكتاب العربي بيروت / د. ت .

٥٠ ـ فلسفة التاريخ الإسلامي العثماني : محمد جميل بيهم ، بيروت مكتبة صادر / ١٩٢٥ م / .

٥١ ـ القاموس المحيط (أربعة أجزاء) : مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي ، نشر دار الجيل ، بيروت ، طبع في مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر/ ١٣٧١هـ ـ ١٩٥٢ م/.

٥٢ ـ القرآن الكريم .

٥٣ ـ قول على قول (١٢ مجلداً) : حسن الكرمي ، دار لبنان للطباعة والنشر ، بيروت لبنان ، الطبعة الرابعة / ١٤٠٧ هـ ـ ١٩٨٧ م / .

٥٤ ـ الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة للشيخ نجم الدين الغزي ، حققه وضبط نصه : الدكتور جبرائيل سليمان جبور ، منشورات دار الآفاق الجديدة بيروت ، الطبعة الثانية / ١٩٧٩ م / .

٥٥ ـ مسند الإمام أحمد بن حنبل (ستة مجلدات) : الطبعة الثانية / ١٣٩٨ هـ ـ ١٩٧٨ م / د.ت ، لم تذكر دار النشر.

٥٦ ـ معجم الأنساب والأسر الحاكمة في التاريخ الإسلامي : المستشرق زامباور ، أخرجه : الدكتور زكي محمد حسن بك ، وحسن أحمد محمود ، وساعد في ذلك : الدكتورة سيدة إسماعيل كاشف ، حافظ أحمد حمدي ، وأحمد ممدوح حمدي ، الناشر دار الرائد العربي بيروت لبنان ، د. ت .

٥٧ ـ المعجم الوسيط : قام بإخراجه : إبراهيم مصطفى ، أحمد حسن الزيات ، حامد عبد القادر محمد علي النجار ، التوزيع : دار الآداب في الشارقة ، طبعته : دار الدعوة ، استانبول / ١٩٨٩ م / .

٥٨ ـ مفاكهة الخلان في حوادث الزمان (تاريخ مصر والشام) القسم الثاني : تأليف شمس الدين بن طولون ، حققه وكتب له المقدمة والحواشي والفهارس : محمد مصطفى ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والأنباء والنشر ، الدار المصرية للتأليف والترجمة القاهرة / ١٣٨٤ هـ ـ ١٩٦٤ م / .

٥٩ ـ الملل والنحل : محمد عبد الكريم الشهرستاني (أبو الفتح) ، تحقيق عبد العزيز محمد الوكيل ، دار الفكر بيروت لبنان .

٦٠ ـ من تاريخنا : محمد سعيد العامودي ، القاهرة دار مصر للطباعة / ١٩٧٧ م / .

٦١ ـ المنجد في اللغة والأعلام : منشورات دار المشرق ، بيروت ، توزيع المكتبة الشرفية / ١٩٨٦ م / ، الطبعة السابعة والعشرون .

٦٢ ـ المنح الرحمانية في الدولة العثمانية وذيله اللطائف الربانية على المنح الرحمانية : تأليف محمد بن أبي السرور البكري الصديقي ، تقديم وتعليق وتحقيق : الدكتورة ليلى الصباغ ، دار البشائر دمشق ، الطبعة الأولى / ١٤١٥ هـ ـ ١٩٩٥ م / .

٦٣ ـ الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة ، إصدار الندوة العالمية للشباب الإسلامي ، الرياض الطبعة الثانية / ١٤٠٩ هـ ـ ١٩٨٩ م / .

٦٤ ـ النحو الوافي (أربعة مجلدات) : عباس حسن ، نشر دار المعارف بمصر ، الطبعة الخامسة / ١٩٧٥ م / .

٦٥ ـ نفحة الريحانة ورشحة طلاء الحانة (ثلاثة أجزاء) : محمد بن فضل الله المحبي ، تحقيق عبد الفتاح الحلو ، طبع بدار إحياء الكتب العربية : عيسى البابي الحلبي وشركاه ، الطبعة الأولى/ ١٣٨٧ هـ ـ ١٩٦٧ م / .

٦٦ ـ النقد الأدبي للصف الثالث الثانوي في دولة الإمارات العربية ، تأليف الدكتور محمد زكي عشماوي ، محمد حسن عبد الله ، إسماعيل مصطفى الصيفي ، مطبعة رأس الخيمة الطبعة الثامنة عشرة / ١٤١٦ هـ ـ ١٩٩٦ م / .

٦٧ ـ والدي السلطان عبد الحميد الثاني : مذكرات الأميرة عائشة عثمان أوغلي ، عرَّبها : الدكتور صالح سعداوي صالح ، نشر دار البشير للنشر والتوزيع ، الطبعة الولى / ١٤١١ هـ ـ ١٩٩١ م

مراجع مثرية

١ ـ الأدب المملوكي والعثماني : الدكتور بكري الشيخ أمين .

٢ ـ إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء : الشيخ راغب الطباخ .

٣ ـ بدائع الزهور في وقائع الدهور : ابن إياس الحنفي ، تحقيق خليل إبراهيم .

٤ ـ البدر الطالع بمحاسن مَنْ بعد القرن السابع (من القرن الثامن إلى القرن الثالث عشر ١٢٥٠هـ) : محمد بن علي الشوكاني .

٥ ـ بلاد الشام ومصر من الفتح العثماني إلى حملة نابليون بونابرت : رافق عبد الكريم .

٦ ـ تاريخ الدولة العثمانية العلية : حليم إبراهيم .

٧ ـ تاريخ الدولة العلية العثمانية : محمد فريد بك المحامي .

٨ ـ تاريخ سلاطين آل عثمان : كتبه يوسف آصاف ، ترجمه عبد الوهاب الجابي .

٩ ـ تراجم أعيلن القرن الثالث عشر وأوائل القرن الرابع عشر : أحمد تيمور .

١٠ ـ تكملة شذرات الذهب في أخبار من ذهب : أكرم حسن العلبي .

١١ ـ الحروب العثمانية الفارسية وأثرها في انحسار المد الإسلامي عن أوروبا : محمد هريدي .

١٢ ـ الحوادث اليومية في تاريخ إحدى عشرة وألف وميـَّة : محمد بن عيسى بن محمود بن كنات

١٣ ـ ريحانة الألِبا وزهرة الحياة الدنيا : شهاب الدين الخفاجي .

١٤ ـ سلافة العصر : أحمد بن معصوم .

١٥ ـ الشقائق النعمانية في أحوال الدولة العثمانية : أحمد أفندي طاش كبرى زاده .

١٦ ـ وله أيضاً : بقية الشقائق النعمانية في أحوال الدولة العثمانية .

١٧ ـ صفوة مَنْ انتشر مِنْ أخبار صلحاء القرن الحادي عشر .

١٨ ـ عجائب الآثار في التراجم والأخبار : للجبرتي .

١٩ ـ عرف البشام فيمن ولي فتوى دمشق الشام : محمد خليل المرادي .

٢٠ ـ ذيل عرف البشام : الدكتور مطيع الحافظ .

٢١ ـ عيون الأخبار ونزهة الأمصار : لأبي السرور البكري .

٢٢ ـ الفتح العثماني لسورية ومطلع العهد العثماني فيها : الدكتورة ليلى الصباغ .

٢٣ ـ لطف السمر وقطف الثمر من تراجم أعيان الطبقة الأولى من القرن الحادي عشر : نجم الدين الغزي .

٢٤ ـ المروج السندسية في تاريخ الصالحية : محمد بن عيسى بن كنات .

٢٥ ـ المسرح الحديث (انتصار العثمانيين على الروس) : محمد يوسف نجم .

٢٦ ـ مطلع البدور ومجمع البحور : أحمد بن صالح بن أبي الرجال / ١٠٩٢ هـ / .

٢٧ ـ معادن الذهب : أبو الوفا العرضي .

٢٨ ـ من أعلام الفكر العربي : الدكتورة ليلى الصباغ .

٢٩ـ المواكب الإسلامية في الممالك والمحاسن الشامية : محمد بن عيسى بن كنات .

٣٠ـ النور السافر في أخبار القرن العاشر : عبد القادر العَيْدروس .

٣١ ـ السنا الباهر بتكميل النور السافر في أخبار القرن العاشر : محمد بن أبي بكر الحسيني .

محتويات الكتاب

محتويات الكتاب

	العنوان	رقم الصفحة
	المقدمة	٢
	تمهيد: نشأة الدولة العثمانية	٦
	العثمانيون يعتنقون الإسلام	٦
	الخلافة العثمانية:	٧
	١- عصر القوة	٨
	٢- عصر الضعف	٩
	- عوامل عصر الضعف	٩
	- الخلفاء في عصر الضعف	١١
	٣- عصر التراجع والانحطاط	٢١
الباب الأول:	شعر الفتوحات العثمانية :(مضموناً)	٢٤
	الفصل الأول : شعر الفتوحات في الجبهة الأوروبية	٢٤
	الفصل الثاني : شعر الفتوحات في الجبهة الشرقية	٥٢
	الفصل الثالث : شعر الحرب في البلاد العربية	٦٥
	أولاً: حركة الدروز	٦٥
	ثانياً : محمد علي باشا والدولة العثمانية	٦٨
	ثالثاً : التذمر من استلام غير المسلمين المناصب	٦٩
الباب الثاني :	شعر الفتوحات العثمانية (أغراضاً)	٧١
	أولاً : المديـــــــــح :	٧١
	١ ـ مديح الخلفاء	٧١
	٢- مديح الوزراء وكبار القوم	٧٨
	٣-مديح عامة الناس	٨٣
	ثانياً : الفخـــــــــر	٨٦
	ثالثاً : الرثـــــــــاء :	٩١
	رثاء الأشخاص	٩١
	رثاء المدن	٩٦
	رابعاً : الوصـــــــف	١٠٠
	خامساً : الهجـــــــاء	١٠٨
	سادساً : النزعة الإسلامية	١١٨
	سابعاً : الحكـــــــمة	١٢٢
	ثامناً : حب الوطن والحنين إليه	١٢٦
	تاسعاً : التفجـــــــع	١٣٠
	عاشراً : النصح والإرشاد والحث على النهوض	١٣٤
	أحد عشر : التأريخ الشعري	١٣٨
	القديم والجديد في الأغراض الشعرية	١٤٠
الباب الثالث :	الدراسة الفنية النقدية :	١٤٢
	تمهيـــــــد	١٤٢
	القصيـــدة الأولى	١٤٤
	القصيـــدة الثانية	١٥١
	القصيـــدة الثالثة	١٥٥
	القصيـــدة الرابعة	١٦١

القصيـدة الخامسة ١٦٦
القصة في شعر الحروب العثمانية ١٧٠
الخاتمة ١٨٤
ثبت المراجـــــع ١٨٧
المحتويات ١٩٤